عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري
ورحلته « لسان المقال »

الدكتور أبو القاسم سعد الله

من المخطوطات النادرة عن الجزائر والمغرب، خلال القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة (لسان المقال ، في النبأ عن الحسب والنسب والآل) . وقد رأيت من المناسب أن أقدم عنها وعن مؤلفها خلاصة لهذا المؤتمر الذي خصص لتاريخ المغرب العربي وحضارته (*) . وأقول « خلاصة » لأنني في الواقع قد أنجزت دراسة مطوّلة عن حياة ابن حمادوش ورحلته وأعماله الأخرى قد أنشرها قريباً . ولنبدأ بحياة المؤلف .

ا ـ حياة ابن حمادوش :

والظاهر أن أول من اكتشف ابن حمادوش هو الدكتور لوسيان لكليرك الذي ترجم له كتابه (كشف الرموز) إلى الفرنسية[1] . كما

(*) ألقي هذا البحث في المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته الذي انعقد بتونس بين ٢٤ — ٢٩ ديسمبر ١٩٧٤

(١) باريس ، ١٨٧٤ . والكتاب غير كامل ، وبعد اكتشاف الرحلة يظهر أنه القسم الرابع من كتاب (الجوهر المكنون في بحر القانون) الذي ألفه ابن حمادوش . والمراد بالقانون هو كتاب القانون لابن سينا . وقد طبع (كشف الرموز) ناقصاً بالعربية أيضاً عدة طبعات على يد رودسي قدور ، أولها بالجزائر سنة ١٩٠٣ . وقد أشرف على هذه الطبعة السيد عبد الرزاق الأشرف .

أشار في نهاية الترجمة إلى كتاب آخر لابن حمادوش وهو (تعديل المزاج)(١) ولكن الدكتور ليكليرك لم يطلع على رحلة ابن حمادوش التي نحن بصدد التعريف بها ، ولذلك كان حديثه عن حياة المؤلف مختصراً مبنياً على الظن لا على اليقين .

وفي سنة ١٨٨٦ ذكر المؤلف الاسباني قونز اليز في كتابه (مشاهير مسلمي مدينة الجزائر) (٢) حوالي ثلاثة أسطر عن ابن حمادوش ، ضمنها تاريخ ميلاده الصحيح ؛ وهو تاريخ لم يهتد إليه ليكليرك ولم يرد إلا في (لسان المقال) مما جعلنا نرجح أن قونز اليز قد اطلع على الرحلة (٣) . أما الدكتور غبريال كولان (٤) فقد اعتمد في كتابه على ليكليرك ولم يأت بجديد عن حياة المؤلف . وعندما أصدر أبو القاسم الحفناوي كتابه أورد كلام قونز اليز عن حياة ابن حمادوش دون ذكر اسمه مشيراً إليه فقط

(١) كتيب في كراسة أو نحوها وصفه الدكتور ليكليرك وصفاً قصيراً في آخر ترجمته (لكشف الرموز) ص ٣٨٠ . والظاهر أن ابن حمادوش قد ألفه بمدينة رشيد بمصر ، لأن الكتاب يحمل هذه الإشارة ، وكان ذلك سنة ١١٦١ هـ ١٧٤٨ م .

(٢) الجزائر ، ١٨٨٦ . والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة ضمنها النص العربي مع ترجمته بالفرنسية . وقد قدمه له بالعربية مفتي الحنفية بالجزائر عندئذ الشيخ أحمد بوقندورة .

(٣) ذكر السيد قونز اليز في بداية كتابه أن ابن حمادوش من مصادره الأساسية ، وأشار إليه باسم « عبد الرزاق » فقط ودون ذكر اسم الكتاب ، ويغلب على الظن أنه نقل من (لسان المقال) . وقد نقل عنه أيضاً أسماء ولاة الجزائر وبعض علمائها .

(٤) كتب رسالة دكتوراه في الطب عن « الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري » وطبعها بالجزائر سنة ١٩٠٥

باسم « مؤلف اورو باوي » [١] . وهكذا يتضح أن حياة ابن حمادوش ظلت مجهولة ، لأن جزءاً كبيراً من ترجمته الشخصية يوجد في رحلته التي لم يطلع عليها – حسبما نعتقد – سوى السيد فونز اليز . أمّا المتأخرون فقد اعتمدوا على هذا مثل السيد نور الدين عبد القادر [٢] ، أو نقلوا عن الرحلة مباشرة دون ترجمة لمؤلفها مثل السيد محمد داود [٣] .

ولد عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش سنة ١١٠٧ هـ ١٦٩٥ م في مدينة الجزائر على الأرجح ومن ثمة نسبته إليها « الجزائري » ، وكانت أسرته من طبقة الحرفيين التي كانت تمارس التجارة ولا تهتم بالسياسة والرياسة إلا قليلاً . وكانت حرفة أسرته هي الدباغة حسبما فهمنا من رحلته ، لأنه ذكر والده وعمّه في بعض العقود موصوفين بكلمة « الدباغ » . وعند زواجه الأول صاهر ابن حمادوش عمّه الذي زوجه ابنته البكر وأسكنه في داره. أما في زواجه الثاني فقد تزوج ثيّباً هي ابنة أمين الصفارين (النحاسين) . وكان لابن حمادوش ولدان على الأقل من زوجه الثانية مات أحدهما صغيراً . ولا ندري ما إذا كان له أطفال من زواجه الأول . ولم يكن ابن حمادوش سعيداً مع زوجه الثانية ولا مع أسرته الباقية كأمه وأخته لانشغاله بالكتب والعلم من جهة ولفقره من جهة أخرى . ولا ندري إلى الآن

---

(١) (تعريف الخلف برجال السلف) ، الجزء ٢ – الجزائر ، ١٩٠٧ ، ص ٤٧١

(٢) (صفحات من تاريخ مدينة الجزائر) ، الجزائر ، ١٩٦٤ ، ص ١٩٤ ، وقد نقل عبارة فونز اليز حرفياً دون ذكر اسمه .

(٣) (تاريخ تطوان) ، القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ، ١٩٦٢ ، ص ١٤٨ – ١٥٢ ، وقد لخص ما كتبه ابن حمادوش عن المغرب وخصوصاً مدينة تطوان وعلمائها .

متى ولا أين توفي ابن حمادوش ، لكن بعض المراجع تشير ظنياً إلى أنه قد تجاوز التسعين سنة (١).

عاصر ابن حمادوش أحداثاً وتطورات سياسية واجتماعيـة وثقافية . فقد دون في رحلته أنه عاصر عهد الباشوات الذين استبدوا بالحكم في الجزائر عن السلطان العثماني ، وكان ما يزال طفلاً عندما استعاد الجزائريون مدينة وهران من يد الاسبان (٢) ، ولكنه كان واعياً لاحتلال اسبانيـا لها من جديد (٣) . وذكر في رحلته بعض الثورات الداخلية مثل ثورة أهل زواوة على قائد سباو ، وتحدث عن توقيع الصلح بين الجزائر والدنمارك ، كما سجل فيها حادثة فرار ابن أحمد الريفي المغربي ومحمد باي التونسي إلى الجزائر في وقت واحد واجتماعهما مع داي الجزائر عندئذ ، إبراهيم باشا . أما في المغرب فقد شاهد عياناً ثورة أحمد الريفي ، حاكم إقليم تطوان ، على السلطان مولاي عبد الله ، وروى أحداثها بشيء من التفصيل والتأثر ، ووصف آثار هذه الثورة على الحياة المغربية سياسياً واقتصادياً (٤) . ولا شك أن ابن

---

(١) كولان ، ص ٣٥ ، ضبط هو اسمه (حمادوش) دون أن نعرف ما إذا كانت الميم مخففة أو مشددة .

(٢) كان ذلك على يد الباشا محمد بقطاش (بكـداش) ، سنة ١١١٩ هـ ١٧٠٨ م ، وهو الباشا الذي ألف فيه محمد بن ميمون ، أستاذ ابن حمادوش ، كتابه (التحفة المرضية في الدولة البكداشية) تمجيداً له . وقد نشر هذا الكتاب السيد محمد بن عبد الكريم ، الجزائر ١٩٧٢ .

(٣) احتلوها من جديد سنة ١١٤٥ هـ - ١٧٣٢ م ، وظلوا فيها إلى سنة ١٢٠٥ هـ ١٧٩١ م حينما افتتحها الباي محمد الكبير وأعادها للدولة الجزائرية .

(٤) سنفصل القول في هذه المسائل ، وكذلك المسائل الاجتماعية والثقافية في نهاية البحث .

حمادوش قد عاصر أحداثاً أخرى في تونس ومصر وبلدان الشرق الأخرى التي زارها أو أقام فيها أثناء حجه وأسفاره ، ولكنه على كل حال لم يذكرها في الجزء الذي بين أيدينا من الرحلة .

كما عاصر ابن حمادوش تطورات اجتماعية وثقافية لا شك أنها أثرت على مجرى حياته . فحديثه عن عقود الزواج في وقته (وهي عقود كانت تختلف مهورها من طبقة إلى أخرى) ومعاناته في البحث عن موارد للرزق سواء في الجزائر أو في المغرب ، واحتماؤه بالشرف والعلم بدل الجاه والسياسة والمال ، وكثرة تعرضه الأسعار في أسواق الجزائر والمغرب ، كلها تعكس الجو الاجتماعي والاقتصادي الذي كان يعيشه . ومما لا ريب فيه أن أسفاره الأخرى قد أمدته بتجارب أخرى في هذا الميدان ، ولكننا على كل حال لا نملك الآن دليلاً عليها .

وتثقف ابن حمادوش على شيوخ بلاده وعلماء المغرب وتونس والمشرق، كما قرأ عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون [1] . ولئن كنا لا نجد أثراً لشيوخه الأولين . افقدان الجزء الأول من رحلته في الوقت الحاضر ، فإننا نعرف من الجزء الثاني منها أنه قرأ في الجزائر على الشيخ محمد بن ميمون [2] ، كما عاصر فيها علماء وأدباء ما تزال أسماؤهم وبعض أعمالهم تشهد لهم بالحذق والمكانة في مجتمع عصرهم ، أمثال أحمد بن عمار صاحب (نحلة اللبيب) ، والمفتي الشاعر ابن علي ، وعبد الرحمن الشارف ،

---

(١) ذكر المؤلف في الجزء الذي ندرسه من الرحلة الكتب التي قرأها واقتناها ، وجميعها تعكس اتجاهه العلمي أكثر من غيره .

(٢) نحيل إلى المقدمة التي كتبناها للقصيدة السياسية — الأدبية التي عثرنا عليها والتي هي من نظم ابن ميمون ، في (الثقافة) الجزائرية ، عدد ١٥ سنة ١٩٧٣ ، ص ٣٧ — ٤٢

وأحمد الزروق البوني ، وعدد آخر من المفتين وأصحاب الجاه كمحمد بن حسين ، والحاج محيي الدين الزروق ، وعبـــد الرحمٰن المرتضى ، ومحمد المسيـني . وممن قرأ عليهم ابن حمادوش في المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني الفاسي ، وأحمد الورززي التيطواني ، وأحمد السراثري ، وأحمد ابن المبارك (١) .. أما من تونس فلم يذكر فيما بين أيدينا من وثائق سوى الشيخ محمد زيتونة (٢) الذي يسميه « شيخنا » ، والشيخ محمد الشافعي الذي التقى به في الجزائر يوم جاء هارباً من حاشية محمد باي المذكور .

ورغم أن ابن حمادوش قد درس على طريقة عصره فإن اهتمامه كان منصباً خاصة على الكتب العلمية . ولذلك نجده قد درس ابن سينا ، واقليدس ، والقلصادي ، والانطاكي ، وابن البيطار ، وغيرهم من علماء المسلمين واليونان . وكان لا يقرأ نظرياً بل يحاول أن يطبق ما قرأه ويؤلف فيه ، ويجري التجارب الشخصية عليه . وهكذا وجدناه يجري تجارب على النباتات ويركب المعاجين الطبية ، ويختبر موازين المياه ، ويرسم الرخامة الظلية ، ويضع دائرة لبيان اتجاه الرياح ، وغير ذلك من التجارب التي لم تكن محل اهتمام من علماء عصره عامة ، وعلماء بلاده خاصة . وقد لخص هو اهتمامه عندما قال في رحلته إنه أصبح عشابا وصيدلياً وطبيباً في بعض الأمراض (٣) .

* * *

(١) سنذكر بعض التفاصيل عن علاقته بعلماء المغرب .

(٢) الظاهر أنه قرأ عليه في تونس أو في المشرق . ولعل ذلك كان أثناء حجته الأولى سنة ١١٣٠ هـ — ١٧١٨ م . وقد توفي الشيخ زيتونة بتونس سنة ١١٣٨ هـ — ١٧٢٥ م .

(٣) التجارب المشار إليها مفصلة في الرحلة . ولعل هذا الاهتمام بالتجارب العلمية ، والطب خاصة ، هو الذي جعل الدكتور ليكليرك ينعته بآخر ممثل للطب

وهذا الاهتمام هو الذي جعل مؤلفات ابن حمادوش يغلب عليها الطابع العلمي أكثر من الطابع الفقهي أو الأدبي الذي شاع لدى علماء عصره . ولنذكر الآن بعض مؤلفاته في هذا الميدان (١) :

١ — شرح على قصيدة اربع على كردفر .
٢ — تأليف على الروزنامه .
٣ — تأليف في الأعشاب (لعله هو كشف الرموز المطبوع) .
٤ — تأليف في علم الفلك (ذكر فيه سبعة تواريخ تعلمها جميعاً) .
٥ — تأليف في الاسطرلاب والربع المقنطر .
٦ — تأليف في القوس لرصد الشمس .
٧ — تأليف عن الرخامة الظلية بالحساب .
٨ — تأليف في صورة الكرة الأرضية .
٩ — تأليف في علم البلوط (معرفة الطرق البحرية) .
١٠ — الجوهر المكنون (في الطب) .
١١ — بغية الأديب من علم التكعيب (واسمه أيضاً فتح المجيب في علم التكعيب) .
١٢ — تأليف في علم البونبة .
١٣ - تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج .
١٤ — تأليف في الطاعون .

العربي . انظر كتابه (تاريخ الطب العربي) ج ٢ ، باريس ، ١٨٧٦ ص ٣١٠ وقد اعتبره الدكتور كولان صاحب عقلية بعيدة عن الخرافات في عصر سادت فيه الشعوذة وضعف استخدام العقل ، انظر كولان ، ص ٣٩

(١) هذه الكتب مذكورة كلها في الرحلة ، ما عدا الثالث عشر والرابع عشر . وقد ذكر عناوين بعضها ، ولكنه أهمل عناوين الباقي مشيراً إلى موضوعه فقط ، فيقول مثلاً بعد ذكر الفرع العلمي المقصود « ولي تآليف فيه » .

ولابن حمادوش تآليف أخرى في المنطق مثل (الدرر على المختصر) الذي تحدث فيه على مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي ، وهو الكتاب الذي وافقه عليه وأطراه كل من الشيخ أحمد الورززي المغربي (١) والشيخ أحمد بن عمار الجزائري ، وفي النحو مثل (السانح) وهو شرح على ألفية ابن مالك ، وفي الأدب (ديوان) شعر ، قال إنه بنـــاه على الغزل والنسيب والمراثي ومدح الرسول ﷺ . كما ترك ابن حمادوش بعض المقامات الأدبية (٢) . وهو في أشعاره وأدبه لا يرقى إلى مصاف أدباء بلاده المعاصرين له كابن ميمون وابن عمار وابن علي . وقد أشرنا إلى أن الجزء الذي سنتحدث عنه من الرحلة هو الجزء الثاني ، ومعنى هذا أن له جزءاً أول لهذه الرحلة التي قد يكون لها جزء ثالث أو أكثر . ونحن لا نشك في أن تآليف ابن حمادوش أغلبها ضائع ، وأن معظمها صغير الحجم، بالإضافة إلى أنها في جملتها كتب علمية . وليس معنى هذا أنه لم يؤلف في الفقه ونحوه ، ولكن غلب عليه الاتجاه الأول كما لاحظنا .

وقد تجول ابن حمادوش في العالم الإسلامي من تطوان إلى الحجاز . وإذا كنا نعرف من الرحلة بعض التفاصيل عن تجواله في المغرب فإننا لا نعرف عن تجواله في الأقطار الأخرى سوى إشارات طفيفة . فقد جاء

---

(١) كان الشيخ الورززي يتردد على الجزائر . وقد صحح عليه ابن حمادوش الكتاب المذكور أثناء زيارته للجزائر سنة ١١٥٩ هـ - ١٧٤٦ م ، ويبدو أنه زارها مرة أخرى على الأقل سنة ١١٦٢ هـ - ١٧٤٩ م ، وخلالها مدحه المفتي الشاعر ابن علي بقصيدة ؛ انظر محمد داود (تاريخ تطوان) القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ١٩٦٢ ، ص ٩٠ ، وقد ترجم محمد داود ترجمة وافية للشيخ الورززي في المصدر نفسه ، ص ٨٥ - ٩٢ ، وذكر أنه توفي سنة ١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م .

(٢) ذكر منها ثلاثاً في الرحلة ؛ اثنتان منها عن أفكار عرضت له في المغرب أما الثالثة فالظاهر أنه ألفها في الجزائر .

في رحلته أنه كان بتونس حاجّاً عام ١١٣٠ هـ - ١٧١٨ م. ووجد بعض الباحثين أن ابن حمادوش كان في مدينة رشيد بمصر سنة ١١٦١ هـ - ١٧٤٨ وأخبر هو في رحلته أيضاً أنه زار بلاد العرب والعجم والترك بدون تحديد. ومما وصل إلينا من آثاره رحلته التي نحن بصدد التعريف بها.

ب — الرحلة :

ويغلب على الظن، كما أشرنا، أن أول من نقل عن رحلة ابن حمادوش دون ذكر اسمها هو السيد قونز اليز. فهو أول من أرخ لميلاد المؤلف بالتاريخ الذي ورد في الرحلة، ونقل عنه قائمة ولاة الجزائر. وفي سنة ١٩٣٥ كتب الشيخ عبد الحي الكتاني عن الرحلات المغربيـــة (١) وذكر اسم رحلة ابن حمادوش، ثم جاء السيد محمد داود ونقل عنها بعض الفقرات في وصف ثورة الريفي التي كان ابن حمادوش شاهد عيان لها (٢). وأكد الشيخ الكتاني أهمية رحلة ابن حمادوش في رسالة بعث فيها إلى السيد الحاج صادق أثناء كتابة هذا بحثاً عن المولد النبوي في (نحلة اللبيب) لابن عمار (٣). ومنذئذ بدأ اهتمامي بهذه الرحلة. فقد كنت أعدّ مادة كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) وأصبحت هذه الرحلة تشكل إحدى المخطوطات الأساسية التي كان عليّ أن أطّلع عليها لمعرفة أحوال القرن الثامن عشر في

(١) انظر تقريظه لكتاب (دليل الحج والسياحة) تأليف أحمد بن محمد المواري، الرباط، ١٩٣٥ ص ٢٩٥

(٢) (تاريخ تطوان) القسم الثاني، المجلد الثاني، تطوان، ١٩٦٣، ص ٢٢٤ - ٢٢٦

(٣) (المولد النبوي عند ابن عمار مفتي مدينة الجزائر وشاعرها) مقتطف من (الأبحاث المقدمة إلى لويس ماسينيون) نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٧، ص ٢٧٠ - ٢٩٢، والدراسة بالفرنسية.

الجزائر . وسعيت للحصول على نسخة منها فأسعفني صديق مغربي كريم[1] . بصورة منها . وخلال رحلتي إلى المغرب في صيف ١٩٧٣ اطلعت بنفسي على الأصل في الخـزانة العامة بالرباط ، وهي ضمـن مكتبة الشيـخ الكتاني رقم ٤٦٣ [2] .

وتقع مخطوطة الرحلة في ٣٨٧ صفحة من الحجم المتوسط[3]، ومسطرتها ١٦ × ١٢ وتحتوي كل صفحة على حوالي ٢٢ سطراً . ويبدو لي بعد البحث أن عبارة ابن حمادوش فيها تنتهي عند الصفحة ٢٢٦ ، أما الباقي فلا نقطـع الآن بنسبته إليه . وتدل افتتاحية الصفحة الأولى على أن المخطوطة تمثـل بداية الجزء الثاني . فهي تبـدأ بعد الحمدلة والبسملة والتصلية وذكر اسم المؤلف هكذا : « الجزء الثاني من رحلته ... » ولم يرد اسم الرحلة في المتن وإنما أضيف في الحاشية وكتب هكذا : « لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل»[4] . وبداية تاريخ هذا الجزء هو غرة عام ١١٥٦هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٧٤٣ م ، ويمثل التاريخ المذكور بداية رحلته إلى

(١) هو الدكتور عباس الجراري الذي يجب علي أن أسجل هنا اعترافي له بالجميل .

(٢) رغم حرصنا فإننا لم نهتد إلى وجود نسخة أخرى من رحلة ابن حمادوش. وإذا ثبت أن السيد فونتز اليز قـد استعمل الرحلة كما أشرنا فمن المحتمل أن يكون قد اطلع على نسخة أخرى منها .

(٣) أرقام الصفحات مضافة بقلم الرصاص ، وهي المعروفة بالأرقام العربية .

(٤) الكلمة الأخيرة غير واضحة في الرسم ، وقد أثبتناها « الآل » لمناسبة معناها إلى ما قبلها . ومن الممكن قراءة رسمها « المال » وبه أخذ محمد داود ، (تاريخ تطوان) القسم الأول ، المجلد ٣ ، تطوان ١٩٦٢ ، ص ١٤٨ ، وقد رأى محمد داود ، كما رأى الكتاني من قبل ، بأن الرحلة مكتوبة بخط مؤلفها الذي وصفه هكذا « الفقيه المدرس المؤلف المشارك التاجر المتجول » . ويمكن قراءة الكلمة أيضاً « الحال » .

المغرب . وآخر تاريخ مذكور فيها (على فرض صحة القسم الذي لم نقطع بنسبته إليه) هو سنة ١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م ، ذلك أننا نجده في السنة الموالية بمصر . وعلى أية حال فإن الرحلة مبتورة الآخر ، ومن ثمة لا نعرف بالتدقيق اسم كاتبها أو ناسخها ولا مكان ذلك .

و (لسان المقال) مكتوبة بخط واضح وحبر أسود باستثناء بعض العناوين والأسماء فإنها كتبت بالحبر الأحمر ، وهي مكتوبة بأسلوب بسيط غير مسجوع ، ماعدا المقامات المشار إليها . وقد رتبها المؤلف على السنوات والشهور والأيام . ومن الطبيعي أن تظل بعض الأيام والشهور أحياناً غير واردة في الرحلة ؛ وهي في شكل مذكرات أو يوميات كان المؤلف يسجل فيها الأحداث والمشاهدات بصيغة الماضي في غالب الأحيان . وقد أكثر فيها الحشو والاستطراد والنقول من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين . والغالب على الظن أن الرحلة ماتزال بخط مؤلفها[1] وأنها كذلك ما تزال في شكل مسودة . ولا ندري إلى الآن متى ولا أين كتب ابن حمادوش هذا الجزء . وتوجد تعاليق على المخطوطة يعود بعضها إلى منتصف القرن الماضي[2] ، ويدل بعض هذه التعاليق على أن المخطوطة كانت عندئذ في في الجزائر قبل انتقالها إلى المغرب . كما يوجد على صفحتها الأولى اسم مالكها الأول ، على مايظهر لنا ، وهو السيد « الحاج علي بن الحاج سعيد » الذي لانعرف الآن من أمره شيئاً .

---

(١) بذلك قطع عبد الحي الكتاني ، انظر (دليل الحج والسياحة) ، ص ٢٩٥

(٢) آخر تاريخ مذكور في التعاليق بالنسبة للجزائر هو سنة ١٢٣٣ هـ ١٨١٧ - ١٨١٨ م عن وفاة الداي علي باشا ، وبالنسبة للدولة العثمانية عند وفاة السلطان محمود الثاني سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م ، وتولية ابنه عبد المجيد في العام نفسه ، أما بالنسبة لروسيا فقد ذكر المعلق أن نقولا الأول (حاه نكول راى الموسك) قد توفي سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٥ م .

ويمكن تقسيم المحتوى العام للرحلة إلى ثلاثة أقسام هي :

١ – قسم المغرب وهو من صفحة ٢ ـ ٧٥ ، وهذا القسم هو الذي يصح أن نسميه « رحلة » .

٢ – قسم عن المؤلف نفسه في الجزائر ، وهذا القسم ترد أخباره مفرقة ضمن قصص واستطرادات ، وهو عبارة عن مذكرات وحوادث يومية عن قراءاته وملاحظاته ونشاطه .

٣ – قسم يتضمن نقـــولاً كثيرة من كتب ووثائق المتقدمين والمعاصرين : مثل الاكتفاء لابن الكردبوس ، وكتاب تاريخ الدول للملطي وأنس الجليل للعليمي ، بالإضافة إلى مجموعة من عقود الزواج على عـادة أهل مدينة الجزائر ، وكذلك مجموعة من الأسانيد والإجازات والقصص العامة كقصة الفيل وقصة العنقاء .

والمنهج الذي سار عليه ابن حمادوش يجعل عمله غير منسجم وغير متماسك . ذلك أنه لايكاد يربط بين أجزاء الرحلة سوى الترتيب الزمني . وقد لاحظنا أنه قد اتبع طريقة السنوات . وإذا أخذنا بالنص الموجـود عندنا فالرحلة لاتكاد تتجاوز خمس أو ست سنوات من عمر المؤلف الطويل الذي تجاوز بحسب بعض الآراء ، تسعين سنة . وعلى كل حال فإنه كان يحشو كل سنة بأخبار ووقائع تتعلق بشخصه في الغالب ، وإذا ما أفاض في الحديث عن قضايا أخرى فإنه يفعل ذلك إما عن طريق المصادفة كما فعل بذكره أسماء ولاة الجزائر وأسماء سلاطين آل عثمان ، وإما لعلاقتها بشخصه كحديثه عن ثورة أحمد الريفي التي كانت لها عواقب على سير رحلته ، فالمحور إذن هو شخص المؤلف .

وقد اعتاد ابن حمادوش أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي ، والميلادي (الشرقي أو الفلاحي) . وكان يؤرخ نادراً بالتاريخ

الاسكندري . ولكن سنوات الانتقال التي تشكل في الواقع أبواب الرحلة أو فصولها ، كانت بالتاريخ العربي . ويجهد المؤلف نفسه في الأمانة والدقة ، وإذا أعوزه ذلك يذكره دون تحرّج ، فإذا نسي حادثة أو تاريخاً عاد إلى كناشه ويكتب بعد ذلك هكذا « وجدته مقيداً » ، وإذا نقل ونسي العبارات المنقولة قال « هذا ماتعلق بذهني وإن كان عبرت بعبارة غير عبارة المؤلف » ، وإذا كان غير متأكد من خبر سمعه عن فلان سجل ذلك بأمانة قائلاً : « ولم أدر كيف كتب ولا ماصنع إنما بلغني » . وحين عجز عن أن يأتي بجواب لإحدى المسائل ترك بياضاً في النص مضيفاً « فمن وجده » يعني الجواب « فليلحقه هنا في هذا البياض ، وما تركته بياضاً إلا لأجله » ومع ذلك فإن ابن حمادوش كان يفتخر أحياناً بمعارفه وشرفه على معاصريه . فكثيراً ما كان يذكر النوازل التي شارك فيها برأيه ، وينتهي فيها بتسجيل انتصاره على مخالفه بشيء من الزهو ، واصفاً مخالفه بادعاء العلم وضعف المارضة وقصر النظر ، وكان يذكر مناظرته ومناقشته لشيوخ عصره حتى الذين أجازوه منهم . وقد بالغ في الافتخار بشرفه أمام المفتي الحنفي ابن علي ، مخاطباً له بشعر ركيك لايرقى أبداً إلى مكانة شعر خصمه البليغ .

ومصادر ابن حمادوش نوعان : التجربة الشخصية والنقل ، وقد غلب عليه الأول . ذلك أن أكثر ماروى من أحداث في رحلته قد شاهده عياناً أو عاشه . فالتطورات الاجتماعية والسياسية والعلمية التي تحدث عنها في المغرب والجزائر كان مصدرها بالدرجة الأولى التجربة الشخصية . أما النقل فإن ابن حمادوش كان يأخذ بالمشافهة والسماع أو بالاعتماد على الوثائق المكتوبة . فهو كثيراً ما يقول عن أخباره إنها بلغته أو سمعها . وقد أكثر من النقل عن صحيح البخاري ، وتاريخ ابن الكردبوس ، وتاريخ العليمي ، والقانون لابن سينا ، وتاريخ الملطي ، ومقالات اقليدس ، ومنطق السنوسي وغيرها .

كما نقل كثيرا من فهرس البناني المغربي ، ومن آسانيد الصباغ الاسكندري (إذا صحت نسبتها إلى الرحلة) ، ومن عقود النكاح التي كتبها علماء الجزائر .

* * *

وبالإضافة إلى الأضواء التي تلقيها الرحلة على حياة المؤلف فإن الجزائر والمغرب تحتلان فيها مكاناً بارزاً . وقد سبق لنا أن ذكرنا شيئاً منها بخصوص النقطة الأولى (حياة المؤلف) ، وبقي علينا أن نفصل الحديث قليلاً عن النقطة الثانية . ولنبدأ بالجزائر .

أورد ابن حمادوش مجموعة من الأخبار الهامة عنها ، تساعد الباحثين في في أوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية خلال القرن الثامن عشر . من ذلك ما أورده من أن النصارى (دون تحديد ، ولعله يقصد الاسبان) رفضوا قبول فدية المسلمين الذين كانوا أسرى عندهم ، ولا سيما مشاهير الرياس مثل ابن الحاج موسى ، وأدّى هذا الموقف إلى غضب الباشا الذي قرّر غلق كنيستهم وهدّد بهدمها إن لم يقبلوا بالصلح . ولم يخبر ابن حمادوش بما وقع بعد ذلك ، واكتفى بالقول : « وهانحن منتظرون مايقع » . ومما رواه بشأن علاقة باشوات الجزائر بالسلطان العثماني أنّ الأخير قد أرسل مندوباً عنه إلى الجزائر ، فلم يرحب به المسؤولون ولم يستقبلوه فبات ليلته في المرسى ثم دخل المدينة وحده . ورغم أن الباشوات قد استبدوا بالحكم ، كما ذكر ابن حمادوش ، فإنهم ظلوا يهادون السلطان ويسترضونه . وآخر من فعل ذلك هو إبراهيم باشا المعاصر للمؤلف ، فهو الذي أرسل سنة ١١٥٨ هـ (١٧٤٥) إلى السلطان أربعين نصرانياً وثمانية مكا وأشياء حل أخرى ثمينة انتظاراً أن يرسل له السلطان بالفرمان .

وإبراهيم باشا هو آخر سبعين باشا من الولاة العثمانيين بالجزائر الذين أورد ابن حمادوش قائمة بأسمائهم ، مبتدئاً بإسحاق باشا سنة ٩١٥ ه

١٥٠٩ م ومروراً بعبد الله بيلك باش الذي قال عنه إنه أول من استبد بالملك سنة ١٠٦٤ ﻫ (١٦٥٣) . ومن أخبار هؤلاء الباشوات في الرحلة : رفع الأعلام الخضر على الصوامع عند تولية أحدهم ، وحمل جثمان الميت منهم إلى الجامع الكبير للصلاة عليه وقراءة القرآن ، وشيوع الفساد بينهم حتى إن إبراهيم باشا المذكور كان مع أهله على سفاح قبل التولية ، وبعده نصحه مستشاروه بافشائه مخافة إشاعة الفسوق بين الناس ، واتباعهم قاعدة الحجر الصحي على الحجاج ، وتوقيعهم الصلح مع الدانمارك سنة ١١٥٩(١٧٤٦) ووقوع ثورة ضدهم في بلاد زواوة سنة ١١٥٨ (١٧٤٥) ، وفرار باي معسكر إلى الإسبان بوهران سنة ١١٥٩ (١٧٤٦) بتوريط من أحد أثرياء اليهود بمدينة الجزائر ، ولجوء ابن الثائر أحمد الريفي ومحمد باي ومحمود باي التونسيين إلى الداي إبراهيم باشا .

ويمكن للباحث الاجتماعي أن يجد في الرحلة مادة ثرية أيضاً . فقد ذكر المؤلف صيغة صلوات وأدعية معهودة عند أهل الجزائر عند ختم صحيح البخارى ، يرش أثناءها الخدم ماء الورد على الحاضرين بالجامع الكبير ، كما ذكر عاداتهم ليلة القدر وليلة المولد النبوي . فقد كان متولي الجامع الكبير يفوغ ليلة القدر قنطاراً أو أكثر من الشمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضراء ، ثم يطاف بهذه الشموع في اتجاه دار المفتي أو الوكيل ، ومنها إلى دار الإمارة عبر الشوارع المزينة ، وهم يرفعون أصواتهم بالأناشيد الدينية ، ثم يعودون إلى الجامع من طريق أخرى . وكان يقام مثل ذلك في ضريح عبد الرحمن الثعالبي أيضاً . وعقد المؤلف مقارنة بين عادات المولد النبوي في الجزائر والمغرب . ومن العقود التي أوردها نعرف نوع العملة السائدة عندئذ ، ونوع الصداق ، وإمكانيات كل طبقة في ذلك . ويجد دارسو الحياة النسوية والمنزلية ضالتهم في القفاطين الملفية أو الأطلسية وأنواع الجواهر ، وإماء السودان ، وقناطر الصوف ، وغيرها مما كان

يقدم صداقاً للزوج حسب حالها الاجتماعي ، وحسب سنها أيضاً بكراً أو ثيّباً. وهذه الجوانب من الحياة الاجتماعية هي التي ما يزال يفتقدها الباحثون في تاريخ الجزائر .

وقد تكون أخبار ابن حمادوش الثقافية أكثر أهميـــة من أخباره السياسية والاجتماعية . ومن حسن الحظ أن المؤلف قد أورد طائفة منها حول هذا الموضوع تعتبر نادرة في بابها لأنه المصدر الوحيد الذي يكشف عنها . ومن العلماء الذين أطال ابن حمادوش الجلوس إليهم وأكثر من القراءة عليهم محمد بن ميمون قاضي المواريث في وقته ، وهو الذي كان ، حسب راي تلميذه ، يتقرب إلى السلطة الحاكمة ، ويجعل من داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء [1] .

وقد أشرنا إلى الخصومـــة التي وقعت بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي . ولم نذكر أن الأول قد يكون افتخر بشرفه عليه لأن ابن علي كان من أصل كرغلي . وسبب الخصومـــة على ما يذكر ابن حمادوش غضب ابن علي من عدم قيام ابن حمادوش احتراماً له .

وبينما كانت علاقة ابن حمادوش بابن علي غير حسنة كانت علاقته بالأديب الشاعر أحمد بن عمار جيدة . فهذا هو الذي كتب له تقريظاً ، نثراً وشعراً ، لكتابه (الدرر على المختصر) ؛ كما كانت علاقـــة ابن حمادوش حسنـــة مع العالم عبد الرحمن الشارف الذي كتب له (لابن حمادوش) شهادة على تصحيحه الكتاب المذكور على الشيخ أحمد الورززي

(١) ابن ميمون هو الذي أشهر زواج الباشا إبراهيم بعد أن كان سرياً ، وكان عندئذ قاضي المواريث ، فكان الأمر لا يعنيه لأنه ليس من اختصاصه بل من اختصاص قاضي القضاة . وقد أعلن ابن حمادوش بعد هذه القصة بأن شيخه ابن ميمون أراد بذلك التقرب من الباشا . وكانت دار ابن ميمون هي التي وقعت فيها الخصومة بين ابن حمادوش والمفتي ابن علي .

المغربي (١) . ولا نريد هنا أن نطيل في أخبار علماء عصره الذين وردت أسماؤهم في الرحلة ، وحسبنا ذكر بعضهم سريعاً ، فمنهم : المفتي محمد ابن حسين (٢) ، وقاضى قسنطينة محمد الحنفي (٣) ، والمفتي عبد الرحمن المرتضى (٤) ، والمفتي الحـــاج محيي الدين الزروق (٥) ، (وهو آخر المفتين المالكية الذين يرد اسمهم في الرحلة) ، والقاضي ابن المسيسني ، وهناك بالإضافة إلى ذلك عدد آخر من القراء والأدباء الذين لم يكونوا عندئذ أصحاب مناصب ، ولكن كانوا من رجـــال العلم ، نذكر منهم : أحمد العمالي ، ومحمد بن سيدي الهادي ، وأحمـد البوني ، وابنه أحمد الزروق ، ومحمد بن المسيسني (أخو القاضي المذكور) وأبو القاسم بن يوسف الحـني ، وعبد الملك بن إبراهيم ، والحاج أحمد بن مسعود . وكان ابن حمادوش يقرأ مع بعض هؤلاء ، ويتراسل مع آخرين منهم ، وكانوا جميعاً يكونون في الواقع نوعاً من الطبقة المثقفة التي تتعايش وتتصاهر وتتنافس طموحاً إلى السلطة والجاه .

* * *

واحتل المغرب كذلك مكاناً بارزاً في رحلة ابن حمادوش . فقـد

---

(١) صححه عليه أثناء زيارة الورززي الأولى لمدينة الجزائر سنة ١١٥٩ انظر التعليق في هامش ١ ص ٣٢٩ .

(٢) هو الذي كتب لابن حمادوش رسالة تعزية في ولده ، وقد أوردهـا ابن حمادوش حرفياً في الرحلة ، وهي من جيد الرسائل في بابها .

(٣) جـاء مدينة الجزائر وقـرأ على ابن حمادوش شرح المبـــارك في الاسطرلاب للسنوسي .

(٤) كان صهراً للمفتي سعيد قدورة ، وقد أورد ابن حمادوش نص عقد زواجه كنموذج لما كتب الشيخ العالم الأديب محمد بن عبد المؤمن سنة ١٠٨٧هـ ١٦٧٦ م

(٥) من الذين سمعوا (بتشديد الميم) ابن حمادوش صحيـــح البخـاري بالجامع الكبير .

سجل فيها بعض نواحيه السياسية والاجتماعية والثقافية . والظاهر أن المؤلف كان يتردد على المغرب للتجارة وطلب العلم . فقد أشار في رحلته الحالية التي بدأها سنة ١١٥٦ هـ-١٧٤٣ م إلى أنه كان في المغرب سنة ١١٤٥ هـ(١) - ١٧٣٢ م . ونحن هنا تهمنا الرحـلة الثانية لأنها هي التي ترك لنا فيها وصفاً حياً لأحوال المغرب . والظاهر أن إقامته هناك لم تكن رغدة هنية ، فقد سجل بعد عودته إلى الجزائر مايلي : « وكنت تعبت ... في المغرب من مرض وخسارة وضيق ، ولم أر قط ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة ، والعياذ بالله ، حتى أيقنت الهلاك »(٢) . ولعل من أسباب ضيقه وخسران تجارته انتظاره أكثر من أربعة أشهر لإحدى السفن التي تقله إلى الجزائر (٣) .

وأهم حادث سياسي طغى على قلم ابن حمادوش في المغرب هو ثورة أحمد الريفي ، باشا تطوان ، على مولاي عبد الله سنة ١١٥٦ هـ ١٧٤٣م . ويعود اهتمامه بهذه الثورة إلى سوء معاملة رجال الريفي له عنـد نزوله بمرسى تطوان . فقـد اشتطوا ، في نظره ، في طلب المكوس منه على سلعته التي جاء بها من الجزائر . كما يعود اهتمامه بها إلى أنـه عانى من آثارها أثناء مروره في الطريق من تطوان إلى مكناس ، ثم من هذه إلى فاس والعودة . وهناك سبب آخر يعود إلى أن الريفي قد ادعى الشرف ،

---

(١) أشار إلى ذلك أثناء حديثه عن سوء معاملة حرس السلطان مولاي عبد الله له (في ولايته الأولى) عندما أراد أن يتقدم بين يديه بقصيدة مدح ، فعدل عن ذلك .

(٢) الرحلة ٧٦

(٣) في كل مرة تصل السفينة التي ستقلهم تتحطم . وقد ذكر أن ميناء تطوان عندئذ مشهور بحوادث تحطم السفن . ومما يذكر أن ابن حمادوش قد ذهب إلى المغرب وعاد منه في سفينة فرنسية كان قد اكتراها التجار الجزائريون.

وثار على شريف أصيل ، في نظر ابن حمادوش ، وهو السلطان الشرعي ، بينما هو (ابن حمادوش) كان يتمسك كثيراً بالشرف ، كما مرّ بنا .
ولما كان ابن حمادوش شاهد عيان لأحداث ثورة الريفي (أسبابها ، ومراحلها ، ونتائجها ، وآثارها) فقد وصفها وصفاً دقيقاً مفصلاً ، وكانت عواطفه في أحكامه ضد أحمد الريفي . فقد وصفه « بالنطفة الفاجرة المفسدة في الأرض » ، واعتبر هزيمتـــه ومقتله من الألطاف (التى حلّت) بهـذه البلاد . وقـد تضمن وصفه أيضاً الحديث عن جيش مولاي عبـــد الله وأنصار الفريقين ، والغنائم التي حصل عليها السلطان بعد مقتل الثائر الريفي .

وتحـــدث ابن حمادوش عن بعض العادات والتقاليد التي شاهدها بالمغرب . من ذلك عادة المكس بميناء تطوان التي اعتبرها عادة قبيحة ، وتحدث عن زيارته لقبر سيدي علي الريفي وأخذه العهد من خادم الضريح ، ووصف الطريق من تطوان إلى فاس عبر مكناس ، وشاهد هناك الطيور التي لا تلد إلا فوق الماء ، وحصاد الشعير في شهر ابريل ، واستعمال قوارب البردي للنقل النهري ، وسجّل إعجابه بنظـام توزيع مياه مدينة فاس وجمال بساتينها ودورهـــا ، وقارن بين عادات الفاسيين وعادات الجزائريين في الاحتفال بالمولد النبوي كاستعمال قباب الشمع ، وتحدث عن عادة أهل فاس يوم العنصرة بأكلهم ألية الضأن بالقرفة والكسكي ، وعن لباس النساء والرجال هناك أثناء الاحتفال ، كما وصف لباس السلطان الذي قال إنه كلباس أهل مكة . ولم يخل حديثه من نقد لاذع لبعض العادات التي كانت في نظره غير مستحسنة .

وتضم الرحلة أسماء وأعمال مجموعة من علماء المغرب ، بعضهم التقى بهم وقرأ عليهم وأجازوه ، وبعضهم سمع بهم أو أخـــذ عنهم بطريق غير مباشر . وفي طليعة هؤلاء محمد بن عبد السلام البناني . فقد حمل إليـه

ابن حمادوش أمانة (لم يكشف عنها) من الجزائر وحضر دروسه وخاطبه بقصيدة ، وحصل منه على إجازة . ودرس كذلك على الشيخ أحمد الورززي في تطوان والجزائر وأجازه هذا في المدينة الأولى . والظاهر أن الشيخ الورززي كان يتردد على الجزائر ، كما كان ابن حمادوش يتردد على المغرب ، وقد أثبت ابن حمادوش أن الورززي كان معتزلياً ، تقليداً لرأي البناني في مواطنه . وقد تدخل الشيخ الورززي لصالح ابن حمادوش لدى سلطات الميناء عند مغادرته تطوان (١) .

وممن أجازوه أيضاً أحمد السرائري (٢) الذي نزل ابن حمادوش بفندقه . وأقرأ ابن حمادوش في تطوان الشيخ عبد الله جنان . أما في مكناس فقد التقى بالشيخ عبد السلام القباب والشيخ عبد القادر الفاسي ، لكن خاب ظنه في علم الاثنين فلم يحصل منهما ، حسب رأيه ، على طائل ، غير أنه قد أعجب ببعض علماء فاس ومن هؤلاء الحكيم عبد الوهاب أدراق (٣) ، طبيب مولاي إسماعيل وأولاده . وأثنى على الشيخ أحمد المبارك واستجازه ففعل . وعندما توفي ابن المبارك رثاه ابن حمادوش بقصيدة ضعيفة لكن صادقة ، وقد اعتبر نفسه أول من رثاه . وشهد له على إجازة ابن المبارك له الشيخ القاضي عبد القادر بن العربي بوخريص . ولا نشك في أن ابن حمادوش قد التقى بعلماء آخرين من المغرب واستفاد منهم سواء في رحلته التي نحن بصدد الحديث عنها أو رحلاته الأخرى .

* * *

---

(١) بفضل تدخل الورززي أعفيت سلعة ابن حمادوش من الضرائب .

(٢) وجده ابن حمادوش قد توفي إثر عودته من فاس إلى تطوان .

(٣) حضر ابن حمادوش مجلسه الذي قال عنه إنه يشبه مجالس الملوك ، وقدم له قصيدتين من سخيف الشعر .

وإذا كانت أخبار الرحلة تكاد تقتصر على الجزائر والمغرب وشخص المؤلف فإنها لا تخلو من معلومات أخرى عامة. ومن ذلك نقولـــه عن المتقدمين في تاريخ الإسلام وتاريـخ القدس وتاريخ الأطبـــاء والقصص الطريفة التي جاء بها عرضاً. ومنه أيضاً ماجاء في الرحلة عن فرار محمد باي من ابن عمه صاحب تونس، وحديثه عن إمام أحد مساجد سوسة وهو يشرح لصاحبه أصل اختراع العود والنغمات الموسيقية (١). واستطرد أثناء الحديث عن ولاة الجزائر فذكر أيضاً «ملوك آل عثمان» مبتدئاً بعثمان خان سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م، ومنتهياً بمحمود خان عام ١١٤٣ هـ - ١٧٣٠م مشيراً إلى أنه «باق إلى الآن»، وهو يعني بذلك سنة ١١٥٨ هـ- ١٧٤٥م.

* * *

إن أهمية رحلة ابن حمادوش لا تحتاج إلى طول نظر. فهي أولاً جزء هام من تراث الجزائر العربي الإسلامي الذي طالما نفاه الدارسون الأجانب أو شككوا في قيمته. وهناك علماء جزائريون آخرون عاصروا ابن حمادوش قد تركوا رحلات، مثل ابن عمار صاحب (نحلة اللبيب) (٢) والورثلاني صاحب (نزهة الأنظار) (٣)، ولكن رحلة ابن حمادوش تمتاز بأنها رحلة مغربية لامشرقية، وهي خالية من الصنعة الأدبية التي لجأ إليها ابن عمار والخرافة والكرامات التي امتلأت بها رحلة الورثلاني. كما أن ابن حمادوش كتب بأسلوب سهل بسيط يكاد يقترب من أسلوبنا اليوم، وقلما

(١) بناء عليه أن أصله يعود إلى أن ساقاً لشخص آدمي قد توفي وظـل بالعراء، فيبست الساق وتلاشى اللحم منها لكن بقيت العروق فهبت نسمـة فحركت العروق فأحدثت نغمات موسيقية.

(٢) طبع في الجـزائر، سنة ١٩٠٤

(٣) حققها ونشرها محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٠٨

التجأ إلى التصنع ، ومع ذلك فهو لم يسف إسفــاف ابن المفتي في (تقييداته) [١] ، ولم يبالغ مبالغة ابن سحنون في الثغر الجماني [٢] ولم يتأنق تأنق ابن ميمون في (تحفته) . وكل هؤلاء كانوا معاصرين له .

ورغم ضعف المنهج الذي اتبعه ابن حمادوش وكثرة الحشو والاستطراد في الرحلة ، فإن عمله سيظل مصدراً لاغنى عنه لدراسة الحياة الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية في مجتمع الجزائر والمغرب خلال القرن الثامن عشر . وقد تعرضنا إلى نماذج من هذه النواحي في الرحلة . وتزداد قيمة الرحلة عند الباحثين باعتبارها أيضاً مصدراً من مصادر حياة المؤلف ، بل لعلها المصدر الوحيد المعروف عنه إلى الآن وقد ظلت حياته مجهولة قبل اكتشاف هذه الرحلة . ولو أمكن الاطلاع على الأجزاء المفقودة منهـا لعرفنا ، لا الجوانب المجهولة من حياة المؤلف فقط ، ولكن تفاصيل إضافية عن تطورات المغرب العربي والمشرق أيضاً خـلال القرن الثامن عشر . وتضم الرحلة بالإضافة إلى ذلك مادة كبيرة من أسماء الأماكن وبعض

---

(١) صاحب هـذه التقييدات مجهول الاسم ، ويعرف فقط بابن المفتي (وكان والده مفتياً وهو حسين بن رجب شاوش) . وهي مكتوبة بلغة هي إلى الدارجة أقرب منها إلى الفصحى حسب الذين اطلعوا على نصها . انظر نور الدين عبد القادر (صفحات) ، ص ٢٧٤ - ٢٨٦ وقد ترجمها إلى الفرنسية السيد ج . ديلفان ونشرها في (المجلة الآسيوية) المجلد ١٩ (أبريل - جوان ١٩٢٢) ، ص ١١٦ - ٢٣٣ . انظر أيضاً السيد ديفوكس (المجلة الأفريقية) (١٨٦٩) ص ٤٥٩ - ٤٦٠

(٢) نشرها الشيخ المهدي البوعبدلي بإشراف وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، ١٩٧٣

التراكيب العامية ، كما تحفل بأخبار العلماء الذين لانجد عنهم في غيرها سوى النزر اليسير مثل ابن عمار وابن ميمون ، ولعل منهم بعض علماء المغرب أيضاً . وستظل النقول والإجازات والعقود والأسانيد التي أوردها ابن حمادوش في الرحلة مصدراً كبير الأهمية لدراسة الأدب والتاريخ وتراجم الرجال ، كما ستظل مادة المقارنة والدرس .

وهذه الأهمية لرحلة ابن حمادوش هي التي جعلتنا نقدم على دراستها وتحقيقها ، كما جعلتنا نسهم بهذا المختصر عنها وعن حياة صاحبها في هذا المؤتمر .

أبو القاسم سعد الله
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

غرة ذي القعدة ١٣٩٤
الجزائر في ١٥ نوفمبر ١٩٧٤

وثائق جديدة

عن محيي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية

د · يحيى بوعزيز
استاذ بالمعهد التكنولوجي للتربية
وهران ـ الجزائر



كان محي الدين يعيش مع أبيه الامير عبد القادر فى منفاه بدمشق ، واشتهر بثقافته الواسعة وحظى بالتقدير فى أوساط الدولة العثمانية بالشام تبعا لمركز أبيه · وأنعم عليه السلطان عبد العزيز « بالنيشان » العثمانى من الدرجة الثالثة ، وأسند اليه وظيفة « أزمير » القضائية عام 1865 بتزكية واشارة من السيد عمر حسام الدين أفندى حفيد شيخ الاسلام جلال الدين عاطف زاده · (1)

وبقى يمارس نشاطه بصورة عادية حتى عام 1870 ، غير أنه كان يكثر من التبرم والشكوى ، وحسب رواية عادل الصلح عن والده ، فان محيى الدين كان يتوق للعودة الى النضال من أجل تحرير الجزائر (2) · وقد يكون هذا التبرم هو الذى أثر فى

(1) عبد الرزاق البيطار : حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر (1253 ـ 1335) (مطبوعات المجمع العربى بدمشق 1963) ج · 3 ص 1425 ·
(2) عادل الصلح : سطور من رسالة (بيروت دار العلم للملايين 1966) ص 23 ·

صحته ، أو أنه تمارض حتى يجد الفرصة للابتعاد عن أبيه الذى أذن له فى الذهاب الى الاسكندرية للاستشفاء وتغيير الجو بعد أن أشار عليه بعض الاطباء فى ذلك . وكانت الحرب قد قامت بين فرنسا وبروسيا وظن أنها تطول بينهما فخطر بباله أن « ينتهز الفرصة لتخليص وطنه الجزائر من يد فرنسا ويزيل عنه الكدر والغبن فتوجه بقصد الزيارة فى الديار المقدسة فحينما وصل الى الاسكندرية توجه منها الى تونس ولم يعلم أحد بنيته الخفية » (3) . وذلك فى آخر شهر أكتوبر 1870 . واستقبلته الدوائر الرسمية التونسية بحفاوة ، ومنحه الباى محمد الصادق « نيشان الافتخار » التونسى يوم 18 نوفمبر (4) واعتكف على دراسة المخطوطات العربية والتعرف على الخطوط العربية ، وتجنب الاتصال بالناس حتى لا يعرفوا وجهته ، وكان يريد الذهاب الى الجزائر غير أن الشهرة التى نالها من السلطة التونسية حالت دون ذلك خوفا من أن ينكشف أمره ، فاكتفى كما ذكر صديقه الشيخ عبد الرزاق البيطار بتحرير نحو المائتى رسالة لزعماء الجزائر لكى « يتهيأوا لمحاربة فرنسا عند قدومه المستطاب وأرسلها من تونس مع الرسل الخفية » . (5)

وحسب معلومات القنصل الفرنسى فى تونس الى وزير خارجية بلاده يوم 5 نوفمبر ، فان محيى الدين كان على خلاف مع أبيه حول مشاكل مالية ، وأنه طلب من الوزير التونسى خزندار أن يتوسط له لدى أبيه لحل تلك المشاكل . ولم يكن يظهر أى عداء لفرنسا (6) . وهى نفس النغمة التى رددها تقرير آخر حول اقامته بتونس . (7)

ان قدوم محيى الدين الى تونس يشعر بوجود خلاف بينه وبين أبيه ، ولكن هذا الخلاف قد يكون لمشاكل مادية ، وقد يكون لمشاكل سياسية . ألا يكون قدومه الى

(3) البيطار : ص 1426 ـ 1427 .
(4) أ . ح . ت . ملف 929 ، رزمة 78 وثيقة رقم 79 وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمى نصه فى كتابه : بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى 1816 ـ 1871 (الدار التونسية للنشر ـ مارس 1972) ص 116 .
(5) البيطار ، ص 1426 ـ 1427 .
(6) A.O.M. CARTON 25 H 18.
(7) *Séjour à Tunis du fils d'Abdelkader*. ANP CARTON F 80 - 1681.

تونس من أجل البحث على انصار جدد لتجديد حركة التحرير التى تخلى عنها أبوه منذ عدة سنوات ، ألا يكون اتصاله بروهلف البروسى ، ان صح ذلك ، وسيلة لتنفيذ خطته هذه بعد ذلك ؟ ان عودته الى تونس متخفيا بعد مغادرته لها يمكن أن تكون جوابا على السؤالين • وما انقطاعه عن الناس فى المرة الاولى الا محاولة للتعمية ضد مصالح الاستخبارات التى تلاحظه ، خاصة العملاء الفرنسيين المنبثين فى البلاد • وكان من ضمن أهدافه فى المرة الاولى على ما يظهر هو سبرغور التونسيين ، كما يقول التميمى فى مدى ما يقدمونه له من عون وتأييد عندما يشرع فى العمل الجاد • (8)

فبعد اقامة قصيرة بتونس غادرها محيى الدين بحرا الى الشام فى الظاهر يوم 21 نوفمبر ، بعد أن لاحظ أن الدوائر التونسية مشغولة عنه بمشاكلها الداخلية • وعندما وصل الى مالطة حول اتجاهه الى طرابلس الغرب ، ومن هناك الى توزر ، ونفطة، ونفزاوة ، مختفيا فى زى مغربى مع عدد من الرفاق (9) • حتى لا تتفطن اليه أعين المخابرات التونسية التى أخذت تتتبع أخباره وتتعقبه بعد أن غيرت السلطات الرسمية نظرتها نحوه وأعطت تعليمات للشرطة والولاة فى الاقاليم لاعتقاله حيثما وجد ، وقد يكون الاعوان الفرنسيون بتونس هم الذين أثاروا شكوكها ودفعوها الى تغيير موقفها منه بعد التكريم الذى أحاطته به فى المرة الاولى •

وقد يكون من الاسباب التى دفعتها الى ذلك ، الازمة المالية الحادة التى كانت تعانيها داخليا والتنافس الاستعمارى عليها من الخارج ، وتخوفها من أن يتسبب محيى الدين لها فى مشاكل مع فرنسا لا تقوى على مواجهتها • وهو ما عبرت عنه لعاملها بالجريد ، وآخذت عليه عاملها على نفزاوة الذى قصر فى نظرها فى اعتقاله لان :

---

(8) التميمى ، ص 116 •

(9) ادعى رين فى تاريخه أنه كان بانتظاره جيرارد روهلف • بينما نعرف أن روهلف أبعد من تونس الى صقلية فى شهر سبتمبر ، والاقرب أن يكون حضر معه من طرابلس انظر ص 87 ـ 90 •

« ما قصده ابن السيد الحاج عبد القادر وهو تحيير بعض أعمال الجزائر يقضى الى وقوع تحييره بالملكة والغفلة عن ملاحظة ذلك تعود بالضرورة على سكان المملكة » . (10)

وبعد تحريات كثيرة تعرفت الشرطة التونسية عن خبر وصوله الى نفـــزاوة صحبة أربعة أشخاص قادما من طرابلس واتصاله بابن ناصر بن شهرة وابراهيـــم ابن عبد الله ، واتجاهه معهم الى ناحية سوف ، كما علمت من بعض المسافرين القادمين من طرابلس بحرا بنسائهم وأمتعتهم ، بأن كل المغاربة القاطنين بطرابلس سيلتحقون بوطنهم الجزائر الذى سمعوا أنه متحير ، وأن محيى الدين متجه الى هناك . واكتشفت لدى قافلة من أهل سوف المتجهين الى الجزائر كمية من البارود وزنها ثلاثة وستون رطلا صادرتها منهم وأودعتها لدى أحد الاشخاص بتوزر . (11)

وعندما وصل محيى الدين الى منطقة الحدود التف حوله عدد من الجزائريين اللاجئين والمنفيين الى تونس منهم ابن ناصر بن شهرة المذكور الذى كان متمردا ضد السلطات الفرنسية منذ عام 1851 واستقر بنفطة ، وأخذ يقوم بنشاط معاد للفرنسيين مـن هناك وفى نفزاوة والجريد . والشيخ سليمان بن جلاب السلطان السابق لتقرب الذى أبعد الى هناك منذ عام 1854 ، والشيخ ابراهيم بن عبد الله مقدم اخوان عبد القادر الجيلانى بورقلة . والشيخ مصطفى بن عزوز مقدم زاوية نفطة الرحمانية الذى فتح زاويته لكل الجزائريين المنفيين والفارين الى هناك ، ومحمد بن العشابى البسكرى الذى التجأ الى نفزاوة منذ مدة طويلة ، والشيخ الميزونى مقدم زاوية الكاف الـذى وضع تحت تصرف محيى الدين كاتبا يساعده فى تحرير الرسائل والنداآت ، ومحمد ابن أحمد الصغير ابن الخليفة السابق للامير عبد القادر فى الزيبان وسيدى عقبة ، ومحمد بن علاق رئيس أولاد يعقوب . وزيادة على هؤلاء حضر مع محيى الدين مـــن

(10) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 11 شوال 1287 (6 جانفى 1871) وهو عبارة عن تقرير الامير آلاى محمد ناصف خليفة الاعراض الى وزير الحرب التونسى رستم .

(11) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 بتاريخ 11 شوال 1287 (6 جانفى 1871) وهـو عبارة عن رسالة للامير لواء حسن آغا الجريد وعامل الهمامة الى الوزير التونسى خير الدين، وهناك وثيقة أخرى لنفس الشخص تحمل نفس التاريخ ورقم 27 وجهها الى الوزيـــر الاكبر مصطفى خزندار يحيطه فيها علما بنفس الاخبار .

طرابلس الجاسوس البروسي جيرارد روهلف (12) وابن هلال كاتب أبيه ، والشيخ محمد رزوق بن سيدى صالح البسكرى الذى كان قد لعب دورا فى أحداث واحة الزعاطشة عام 1849 والتجأ الى طرابلس • وكل هؤلاء على ما يلاحظ أصحاب ماض تاريخي فى الكفاح ضد الفرنسيين • وتجمهرهم على هذا الشكل حول محيى الدين أواخر عام 1870 يدل على أنه قد أجرى معهم اتصلات سابقة قبل أن يحضر الى هناك • كما يدل على أنه كان عازما على استغلال ظروف حروب فرنسا بأوروبا ليضرب ضربته هو ورفاقه •

وقد كتب محيى الدين عددا كبيرا من الرسائل خلال شهر ديسمبر الى زعماء جزائريين يدعوهم الى الجهاد وتدبير المؤن والذخائر وتجنيد الناس للكفاح • وبعض هذه الرسائل كان بامضائه هو ، والبعض بامضاء ابن ناصر بن شهرة ، والبعض بامضاء آخرين • وكان المقرانى من ضمن الذين راسلهم محيى الدين ، ورغم أننا لم نعثر على هذه الرسائل اليه ، الا ان بومرزاق أشار الى ذلك فى رسالته الى سكان قرية الشرفة التى اخبرهم فيها بوفاة أخيه الباشاغا ، ومما قاله : « وبلغنا جواب من عند ولد الحاج عبد القادر أنه فى تبسة قادم بجنوده الى أقسنطينة ، وولد حمزة فى جبل عمور ، وجميع المغرب والمشرق تزعزع ، والله ينصر عباده » • (13)

وليس لدينا ما يثبت استجابة المقرانى له أو رفضه ، ولكن رين نفى ذلك مدعيا ان المقرانى كان كثير الاعتداد بنفسه ، ولم يكن على استعداد لان يكون تابعا لشخصية ثانوية مثل محيى الدين • (14)

---

(12) ادعى رين فى تاريخه (ص 90) أنه لوحظ فى بسكرة خلال نوفمبر وديسمبر 1870 قيام يهودى اشقر اللون بتقديم المزيد من النقود الى ناصر بن شهرة ، وتساءل : « ألا يكون هذا هو جيرارد روهلف » ؟ وأجاب بانه « ألمانى تظاهر فى زى يهودى لان الاوروبى لا يقدر أن يتجول معزولا فى وسط اسلامى دون مضايقة على عكس اليهودى الذى لا يتنازل المسلمون لقتله لكونه يرضى بالحقارة » . وكل هذا محل نظر لان بن ناصر ابن شهرة لا يدخل هكذا الى بسكرة ، وروهلف لا يستطيع التوغل حتى بسكرة ، وموقف الجزائريين من اليهود مخالف لتفسيره • لانهم لا يحتقرون اليهود الى هذه الدرجة ، بل أن حسن الضيافة هو الذى جعلهم يتجنبون اذايتهم ، ويأوونهم فى بلادهم قرونا عديدة •

(13) A.M.G. CARTON H 191

(14) RINN : *Histoire* pp. 105-108.

وقد عثرنا على رسالة للمسمى صالح بن محمد وجهها الى الوزير التونسى مصطفى خزندار يثبت فيها وجود رسائل من محيى الدين ، وقال له : « يكون فى شريف علمكم هو خير ان شاء الله كانت طاحت (كذا) بيدى أجوبة من محيى الدين كما تطلع عليها » وشرح كيفية حصوله عليها أثناء اتجاهه الى ناحية أولاد بوغانم النازلين بين أولاد يحيى ، وقلعة سنان ، حينما عثر على رجلين سائرين فى أواخر شهر شعبان وسألهم عن جهة قدومهم : «فقالوا أتينا من جهة الشريف بن محيى الدين قاصدين على بن سالم البوغانمى وابنه الاخضر » • ثم سألهم عن سبب سلوكهم هذا الطريق وحدهم فأجابوه : « أتينا مع قافلة أولاد سيدى عبيد من سوف وعندنا عندهم حاجة أكيدة » • وعندما علم منهم أنهم لا يعرفونه أصلا قال لهم : «أنا هو على بن سالم» فصدقوه « ودفعوا الى الجوابات ••• فقالوا نخبرك على سيدى محيى الدين راه (كذا) قاصد بلاد افريقيا فى حشود كثيرة ويتصنت (كذا) على الشرق ما يظهر منه » وعندما سألهم عما اذا هناك اجوبة أخرى قالوا له : « ثم أجوبة غير هاذا ••• الى قائد الفرشيشى ومثلهم الى بعض اناس من الهمامه لم تعرف رسم (كذا) وكذلك غرس الله قائد شارق ، وعمارة الهميسى ، وغيرهم فى افريقيا » •

وذكر على لسانهم أن جماعة أخرى مثلهم توجد عند محمد الصغير فى سوف تحمل أيضا رسائل الى اناس آخرين فى افريقيا • واستدرك فى آخر رسالته بأنه اتصل آيضا برسائل أخرى من رجل تونسى يبعثها له ، وان عددا من الناس اتصلوا فعلا برسائلهم من محيى الدين • (15)

ومحتوى هذه الرسائل هو دعوة الناس الى الجهاد ، والتبشير بقدوم جيش تركى بقيادة نائب ملك مصر عباس باشا للسيطرة على تونس وتحرير الجزائر •

وقد أورد رين ثلاثة نماذج من هذه الرسائل : واحدة لمحيى الدين والثانية لابن ناصر بن شهرة ، والثالثة لبوحفص بن منصور بالجريد ، وجهها الى سى الموهوب

(15) أ. ح. ت. صندوق 28 ملف 929 وثيقة رقم 44 ورقم 43 بتاريخ 17 رمضان 1287 (11 ديسمبر 1870) •

ابن شنوف بالزاب الشرقي الذى حولها مع عدد من الرسائل الاخرى التى وقعت بيده الى السلطات الفرنسية · (16)

وقد استعمل محيى الدين خاتم أبيه فى رسائل أخرى للتاثير على الناس مما دفع الامير عبد القادر الى استنكار ذلك وتكذيبه (17) · وفعل مثل ذلك ابن ناصر ابن شهرة أيضا ·

وبينما كان محيى الدين يقوم بهذا النشاط فى منطقة الحدود اتصلت الحكومة الفرنسية بالقائم بأعمال قنصليتها فى دمشق ليطلب من الامير عبد القادر أن يعلن استنكاره لنشاط ابنه ، فحصل لديه رد فعل شديد يثير الدهشة والاستغراب · وقد عزت اليه المصادر الفرنسية تحرير عدد من الرسائل الى جهات مختلفة قبح فيها عمل ابنه ووصمه بالجنون واعتبره عاصيا · ومن هذه الرسائل :

ـ واحدة الى أعضاء حكومة تور ببوردو ، استنكر فيها استغلال اسمه لاثارة سكان الصحراء · (18)

ـ والثانية الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب طلب منه العمل على اعادة ابنه ، واحاطه علما بأنه كاتب الوزير التونسى مصطفى خزندار ، والقنصل الفرنسى فلم يردا عليه · (19)

ـ والثالثة الى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق جاء فيها : « بان عدو الله وعدوى ، وعدو نفسه ، المجنون محيى الدين ، وصل الى الحدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر » ، وطلب منه الحصول على اذن لتوجيه نداء الى سكان الجزائر « ليتحقق الناس اننى برىء منه ومن فعله » · (20)

---

(16) RINN : *Histoire* pp. 105 - 108.

(17) المبشر : عدد 736 (2 فيفرى 1871) .

(18) بتاريخ 20 شوال 1287 (3 جانفى 1871) انظر : المبشر عدد 736 (2 فيفرى 1871) .

(19) بتاريخ 18 ذو القعدة 1287 (9 فيفرى 1871) أنظر: A.O.M. Carton × 2 ونشرها التميمى فى ص 130 .

(20) بتاريخ منتصف محرم 1288 (9 افريل 1871) . انظر: المبشر عدد 754 (8 جوان 1871) .

ـ والرابعة الى ابن عمه قاضي معسكر الطيب بن المختار طلب منه ان يحذر الناس من اتباعه « فانه محض عبث » • (21)

ـ والخامسة فى شكل نداء وجهه لسكان الجزائر حذرهم من مغبة ابنه الذى عبر عنه « بالشقى » هو ومن انضم اليه ، وأعلن انه سيتبرأ منه اذا رفض الانصياع الى أوامره ، وطلب منهم أن يطردوه من بينهم • (22)

هكذا أثار عبد القادر ضجة كبيرة بهذه الرسائل ، كانت أكثر انتشارا من عمل ابنه فى منطقة الحدود • وقد يكون لهذه الضجة تأثير فى اضعاف حركة ابنه ومعنوياته، واخفاقه فيما كان يطمح اليه • وقد يكون من اسباب هذه الضجة الموقف السلبى لسكان شرق الجزائر تجاه ثورته فى بداية الاحتلال وبخاصة عائلة المقرانى التى ساعدت الفرنسيين على اختراق مضيق البيبان الذى أدى الى نقض معاهدة تافنة بينه وبين الفرنسيين عام 1839 • وقد يكون خوفه من فشله سببا فى ذلك ، كما ان عاطفة الابوة لها دخل فى ذلك ، غير أن ضغط الفرنسيين سيبقى السبب البارز على ما نعتقد•

وكما اهتم الامير عبد القادر بأمر محيى الدين ، اهتمت الحكومة التونسية به أيضا، وأخذت تسعى جهدها لايقاف نشاطه والقاء القبض عليه • فأصدرت تعليماتها الى كل ولاتها فى منطقة الحدود بتتبع اخباره والعمل على اعتقاله ، كما طلبت من ولاتها فى الناحية الشرقية ان يراقبوا الموانى ويلقوا القبض على كل « الغرباء » الذين يفدون بحرا فى اتجاه الجزائر •

وقد عثرنا على تقرير سجلت فيه عشرة تقارير خلال شهر شوال 1287 وجهت الى ولاة وعمال أقاليم : الاعراض ، والجريد ، والكاف ، وصفاقس ، وجربة ، تلح فيها الحكومة على الجد فى البحث عن محيى الدين واعتقاله ، وعلى ايقاف « الاغراب » القادمين من طرابلس الى الجزائر برا وبحرا ، وتوجيههم الى العاصمة تونس • (23)

---

(21) بتاريخ 20 محرم 1288 (4 افريل 1871) نفس المصدر عدد 753 (1 جوان 1871)

(22) بتاريخ أواخر المحرم 1288 (20 افريل 1871) نفس المصدر عدد 754 (8 جوان 1871) .

(23) أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 29 .

وهناك عدد من الرسائل وجهت من عدة اشخاص الى الحكومة التونسية يحيطونها علما بأخبار محيى الدين ·

فرسالة رقم 30 أفادت بانه قدم من طرابلس الى جهة نفزاوة بقصد الدخول الى الجزائر بصحبة ابن ناصر بن شهرة · (24)

ورسالة رقم 31 من طرف أحمد بن صميدة أفادت بانه : « كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال (كذا) الى أن أتاه على باى متاع سوف ففر من منزله ونزل بنفزاوة والآن بها » · (25)

ورسالة رقم 32 من الامير الاى محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين يفيد بانه اجتهد فى البحث عنه ولم يعثر عليه · (26)

ورغم هذه الضجة التى اثارها الامير عبد القادر والحكومة التونسية ، فان محيى الدين حاول أن يواصل نشاطه أوائل عام 1871 ، فتقدم بمن انضم اليه من الرفاق والانصار الى قرية نقرين أواخر شهر فيفرى ، وسيطر على قرية فركان ، وراسله سكان الصحراء ليتجه اليهم جنوبا ولكنه فضل أن يتجه نحو الشريعة وتبسة · (27)

وفى يوم 9 مارس دخل الى نقرين ، ووفد عليه هناك وفد من أولاد خليفة الثائرين بالشريعة ، فاتجه معهم الى سكرانة ثم الى الشريعة وجبل الدكان · وشعر المعمرون الاوروبيون بالخطر فتحصنوا بمدينة تبسة وأغلقوا أبوابها · والتجأ معمرو حلوفة الاوروبيون الى مسكيانة · (28)

وفى يوم 26 مارس اصطدم محيى الدين بقوات الجنرال بوجى فى واد الحميمة وحصلت بين الطرفين معركة كبيرة تفوق فيها الفرنسيون واضطر محيى الدين ان

(24) نفس المصدر بتاريخ 14 شوال 1287 (7 جانفى 1871) .
(25) نفس المصدر بتاريخ ذو الحجة 1287 (مارس 1871) .
(26) نفس المصدر بتاريخ 23 ربيع الانور 1288 (12 ماى 1871) .
(27) ادعى رين فى تاريخه (ص 138 ــ 139) بأن محيى الدين لم يتجه نحو الشريعة بمحض ارادته وانما بأمر من العملاء البروسيين الذين يمولونه بالمال ·
(28) نفس المصدر ، ص 90 و 105 ــ 108 .

ينسحب الى داخل الحدود التونسية كما أشار الى ذلك محمد قعيد بن سالم فى رسالته الى الوزير التونسى خير الدين • وذكر بأن : « ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه لفيف كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء ••• فلما حل بقرب بلد تبسة التفا (كذا) هو والمحلة المذكورة وصار بينهم حرب يوم الاحد وماتت بينهم الرقاب ووقع العكس على ولد سى الحاج عبد القادر ورجع فارا الى طرف بلاد النمامشة » • (29)

ومن تونس انسحب محيى الدين الى الشام واستقر بمدينة صيدا قرابة عام ، ورفض أبوه أن يستقبله ، وطرد عائلته من منزله ، وكان مصمما على الا يعيش معه فى مدينة واحدة لولا تدخل عدد من اصدقائه مثل والد عادل الصلح ، والحاج محيى الدين الجوهرى (30) • والقائم بالاعمال الفرنسى بدمشق ، الذى تسلم أمرا من حكومته بطلب العفو عليه من أبيه ، فعفا عنه فى رسالة وجهها الى القائم بالاعمال يوم 15 شعبان 1288 (نوفمبر 1871) كما كتب الى والى الجزائر العام الفرنسى يخبره بوصول ابنه الى دمشق • (31)

وقد أشار فيتال الى بعض احداث محيى الدين فى رسالة 23 مارس الى أوريان(32)، ولكن قارو ادعى ان محيى الدين قدم الى الجزائر بأمر من السنوسيين بسوريا ، الذين لهم ألف من الاتباع فى الجزائر يجوسون البلاد كمخبرين « يدعون الى الجهاد ضد المسيحيين » كما ذكر بأن الشريف محمد بن عبد الله الذى كان يكافح مع بوشوشة يعتبر ممثلا ومقدما للرحمانيين فى نفطة ، والسنوسيين فى البلاد (33) • مع العلم

(29) أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 بتاريخ 8 محرم الحرام سنة 1288 (30 مارس 1871) .

(30) الصلح . ص 24 .

(31) انظر نصهما فى المبشر عدد 764 (17 أوت 1871) وعدد 784 (4 جانفى 1827). أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 43 و 44 بتاريخ 17 رمضان 1287 الموافق 11 ديسمبر 1870 .

(32) NOUSCHI, pp. 324 - 325.

(33) GARROT ; *Histoire*, pp. 946, 983 - 984.

أنه من غير المعهود أن يكون شخص واحد مقدما لطريقتين دينيتـــين • واكتفى رين بالاشارة الى أخطار السنوسيين ضد الوجود الفرنسي دون أن يشير الى صلتها بأحداث محيي الدين أو غيره من ثوار 1871 • (34)

ان محيي الدين له دور في احداث عام 1871 ، ولكن من بعيد وبصورة غير مباشرة بالنسبة لثورة المقراني والحداد ماعدا محاولة الاتصال بالمقراني كما ذكرنا سابقا • غير أن عمله مع رفاقه في منطقة الحدود الشرقية له صداه وتأثيره في أوساط الجزائريين الذين لم يترددوا في حمل السلاح عندما نادهم الى ذلك المقراني والحداد • كما أن بومرزاق لم يتردد في استغلال نشاط محيي الدين بمنطقة الحدود لحشـــد الناس ودفعهم الى الثورة كما اتضح من رسالته السابقة الى سكان قرية الشرفة • (35)

المـــدخـــل الى الـــوثائـــق

وثائقنا في هذه الدراسة مجموعة من الرسائل والتقارير عددها تسعة تدور كلها حول نشاط محيي الدين وتحركاته ، ونشاط السلطات التونسية في البحث عنه وعن اتباعه ، والتعرف على مكانهم من أجل ايقافهم ، وتنشر هنا لاول مرة يضاف اليها خمسة رسائل للامير عبد القادر حول معارضته لابنه ، ونشرت سابقا في المبشر •

الوثيقة الاولى : رسالة المسمى صالح بن محمد الى الوزير التونسي مصطفى خزندار• اخبره فيها بأنه استولى على عدة رسائل من رجلين قرب قلعة سنان موجهة من محي الدين ابن الامير عبد القادر الى أصحابها وعلى رأسهم على بن سالم البوغانمي مـــن أولاد بوغانم • وأن الرجلين قالاله : « نخبروك (كذا) على سيدى محيي الدين راه قاصد بلاد افريقية في حشود كبيرة ويتصنت على الشرق وما يظهر منه » (35) • وقد أرسل سي صالح هذه الرسائل ، حسبما جاء في رسالته ، الى الوزير ، ولكن لم نعثر عليها ضمن هذه الرسائل في الملف الخاص بها • وهناك نسخة أخرى من هذه الرسالة تحمل رقم 43 ، بنفس التاريخ موجهة الى نفس الشخص •

(34) RINN : « Nos Frontières Sahariennes » *Revue Africaine* (mai 1886) pp. 196-170.
(35) A.M.G. CARTON H 191.

الوثيقة الثانية : تقرير الامير آلاى محمد ناصف خليفة الاعراض الى وزير الحربية التونسية رستم حول تنقلات محيى الدين ، وقد أخبره فيه بأن الاخبار التى وصلته تفيد : « أنه ورد خبر بأن فى يوم عيد الفرط (كذا) قـدم ابن السيد عبد القادر ابن محيى الدين الى وطن نفزاوة متنكرا بالباس (كذا) غرابة ومعه أربعة انفار قصدوا محمد بن الناصر الغربى القاطن بوطن نفزاوة أقام عنده يومين ثم توجهوا معا الى ناحية سوف وركب معهم جميع الغرابة القاطنين بالمكان المذكور وأخبـر أنـه أتى مـن طرابلس • (37)

وفى هذا التقرير أفاده بخبرين اثنين آخرين الاول : قدوم خمسة رجال غـرابة وعشر نساء مع أولادهم وامتعتهم وبعض خيامهم مع المسمى : الريس مصلح الاجيمى واخبارهم اياه بان محيى الدين قدم من مالطة الى طرابلس فى طريقه الى الجزائر عبر نفزاوة وأخذ معه ثلاثة رجال ليدلوه على الطريق ، وأن معظم الغرابة الذين يقطنون بطرابلس سيرحلون الى الجزائر التى هى فى حالة مضطربة حسب أقوال محيى الدين الثانى : قدوم شخص جزائرى يدعى محمد بن بلقاسم الجبارى الزيرى بحرا مع تابع له فى شقف من طرابلس الى صفاقس فقبض عليهما الحراس وعلموا أنه كان يعلـم القرآن فى الجبل الاخضر بليبيا ، وطولب منه أن يلتحق بالجزائر عبر صفاقس وقابس كما علموا منه أن معظم الجزائريين القاطنين بطرابلس هم فى طريقهم الى الجزائر التى سمعوا أنها مضطربة ومشوشة •

الوثيقة الثالثة : تقرير آغا الجريد اللواء حسن الى الوزير مصطفى خزندار حول قدوم محيى الدين الى غرب تونس ، أخبره فيها بأن محيى الدين ابن الامير عبد القادر وابراهيم بن عبد الله قدما من الشرق الى ابن ناصر بن شهرة القاطن بنفزاوة ، فاتحة بهم الى النواحى الغربية • وأخبره أن محصل الضرائب بنفطة عثر لدى قافلة من أهالى سوف المتوجهين الى الناحية الغربية على كمية من البارود وزنها بظرفها ثلاثة وستين رطلا ، فصادرها منها ووضعها لدى رجل سماه البينباشى بتوز بعد أن قيـد ذلك بالعدالة ، وسلم أولئك الناس الى كبيرهم المسمى محمد بن رابـح ، واستدرك فى

(37) نفس المصدر . وثيقة رقم 26 بتاريخ 9 شوال 1287 الموافق حوالى 2 جانفى 1871.

الاخير بأن ابن ناصر بن شهرة انتقل الى الغرب وانضم اليه ستة أنفار آخرين غرابه « ومراد الجميع الفساد بنواحى الغرب » (38) • وقد علق الوزير على التقرير طالبا من ولاة الاقاليم وخلفائهم المزيد من اليقظة والتنبه لمثل هذه الحوادث والعمل على ايقاف المذكورين أواحدهما ، وعاتب خليفة نفزاوة على عدم تنبهه لهما وايقافهما منذ البداية •

الوثيقة الرابعة : نفس التقرير من نفس الشخص الى الوزير التونسى المباشر خير الدين • (39)

الوثيقة الخامسة : رسالة من المسمى العربى الى الجناب العالى المحروس أخبره فيها بأنه اتصل بخبر من عامل الكاف يفيد : « أن أحد أبناء سى الحاج عبد القادر قدم من ناحية طرابلس الى جهة نفزاوة قصد الدخول لناحية الجزائر ومعه بن نصر ابن شهرة » (40) • وأخبره بعد ذلك بانه كاتب آغا الجريد ، وعامل الاعراض ، وعامل الكاف ، ليبحثوا فى الامر ، ويعملوا على اعتقال أولئك الاشخاص •

الوثيقة السادسة : تقرير ملخص لحوالى تسعة رسائل وأوامر من الحكومة التونسية الى عمالها وولاتها بالاقاليم ، تحثهم فيها على البحث عن محيى الدين ورفاقه وايقافهم ، وعلى البحث عن الغرابة الجزائريين القادمين من طرابلس • ومن ضمن الذين وجهت اليهم هذه الرسائل والاوامر : عامل الاعراض ، وعامل الجريد ، وعامل الكاف ، وعامل صفاقس ، وعامل جربة • (41)

ـ فبالنسبة لعامل الاعراض كتبت له الحكومة التونسية ثلاثة رسائل :

الاولى : بتاريخ 13 شوال 1287 أخبرته فيها بعلمها عن وصول محيى الدين الى تونس وانضمامه الى ناصرين شهرة ، وطلبت منه أن يجتهد فى البحث عنهما وايقافهما وارسالهما الى الحاضرة تونس ، وأن يوافيها بكل ما يثبت فى أمرهما •

---

(38) نفس المصدر، وثيقة رقم 27 (30) بتاريخ 11 شوال 1287 الموافق 4 جانفى 1871.
(39) نفس المصدر ، وثيقة رقم 28 (31) بتاريخ 11 شوال 1287 الموافق 4 جانفى 1871
(40) نفس المصدر ، وثيقة رقم 30 بتاريخ 14 شوال 1287 الموافق 7 جانفى 1871 .
(41) نفس المصدر ، وثيقة رقم 29 بتاريخ 13 ـ 25 شوال 1287 الموافق 6 ـ 18 جانفى 1871 .

من يقدم من الناحية المذكورة « فان ذلك من الواجبات التى تترتب عليها المسؤولية فيها فبادر للتمكن على المذكور والبحث عن تحقيق سبب قدومه » ٠

الوثيقة السابعة : رسالة أحمد بن صميدة حول مكان محيى الدين وفيها أخبر أنه « كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال الى أن أتاه على باى متاع سوف ففر من منزله ونزل بنفزاوة والآن بها » ٠ (42)

الوثيقة الثامنة : رسالة محمد قعيد الى الوزير خير الدين حول حروب محيى الدين بتبسة ٠ أخبره فيها عن وجود اضطرابات وتشويش بالناحية الغربية ويعنى بها شرق الجزائر ، كما أخبره بانه : « أتت محلة من ناحية قسنطينة لنصرة بلد تبسة لما حل بها من قلق من ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء خارج بلد مولانا » ، وأوضح له بانه لما التقى محيى الدين بالمحلة الفرنسية قرب تبسة فى يوم أحد أنهزم وفر الى اطراف بـــلاد النمامشة فى حين دخلت القوات الفرنسية الى تبسة ٠ ثم ذكر له بأن الكبلوتى الحناشى قد رحل بمن معه من الرفاق الى تراب أولاد أبى غانم قرب حدود تونس ، وأردف ذلك بخبر جديد يفيد أن الكبلوتى نزل بناحية الكاف داخل حدود تونس ٠ (43)

الوثيقة التاسعة : رسالة محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين حول البحث عـــن محيى الدين وذكر له فيها بأنه لم يعثر له على أثر ٠ (44)

الوثيقة العاشرة وما بعدها الى الرابعة عشرة : عبارة عن خمسة رسائل الى الامـير عبد القادر حول ابنه محيى الدين استنكر فيها مشاركته فى احداث الثورة بالجزائر ٠

الاولى : وجهها الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب طلب منه فيها أن يخبره عنه ، وأن يعمل على اعادته الى المشرق، تاريخ الرسالة 18 ذو القعدة 1287 (9 فيفرى 1817)٠

---

(42) نفس المصدر ، وثيقة رقم 31 بتاريخ ذى الحجة 1287 الموافق مارس 1871 .

(43) نفس المصدر ، صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 بتاريخ 8 محـــرم 1288 (30 مارس 1871) .

(44) نفس المصدر ، صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 32 بتاريخ 23 ربيع الانور 1288 (12 مارس 1871) .

الثانية : وجهها الى القائم باعمال القنصل الفرنسى بدمشق طلب منه فيها أن يحصل له على اذن من حكومته ليقوم بمكاتبه سكان الجزائر وحثهم على معارضة ابنه وطرده من بينهم ، تاريخ الرسالة منتصف محرم 1288 (9 أبريل 1871) ٠

الثالثة : وجهها الى ابن عمه قاضى معسكر طلب منه فيها أن يحذر الناس من عمل ابنه الذى لا يؤدى الا الى ما لا تحمد عقباه ، تاريخ الرسالة 20 محرم 1288 (11 أبريل 1871) ٠

الرابعة : عبارة عن نداء وجهه الى سكان الجزائر يحذرهم فيها من اتباع ابنه محيى الدين ، ويطلب منهم أن يطيعوا أوامر الحكومة الفرنسية التى تحترم حسب قوله دينهم وتعمل لراحتهم واطمئنانهم ، تاريخ النداء أواخر محرم 1288 (20 أبريل 1871) ٠

الخامسة : وجهها الى القائم باعمال القنصلية الفرنسية بدمشق وأخبره فيها بقبوله العفو على ابنه محيى الدين استنادا لرجاء الحكومة الفرنسية ٠ تاريخ الرسالة 15 شعبان 1288 (نوفمبر 1871) ٠

الوثيقة الاولى :

رسالة صالح بن محمد الى الوزير مصطفى خزندار
حول اتصاله برسالة محيى الدين

الحمد لله (52) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم وعلى مولانا وآله وصحبه ٠

أسعد الله مقام من علا قدره وضاء بدره وعمر المغارب والمشارق جوده وبره الوزير الافخم والخاقان الاكرم أمير الامراء ووزير الوزراء والمملكة سيدى مصطفى خزندار أيده الله ومن شر الدارين حماه ووقاه آمين أما بعد السلام التام والتحية والاكرام ورحمة الله تعلى (كذا) وبركاته وأزكى تحياته ورضوانه يليه يكون فى شريف علمكم هو خير ان شاء الله كانت طاحت (كذا) بيدنا أجوبة من محيى الدين كما

(45) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقا رقم 44 ، ورقم 43 .

تطلع عليها وتعرف سيادتكم بوقيعتها (كــذا) كنت توجهت الى ناحية أولا بوغانم بقصد كيل الطعام وبلادنا حارة (كذا) من الطعام وهما نازلين بين دير (كذا) أولاد يحيى وقلعة سنان نحن سائرين مع الطريق فتعرض لنا الزوج رجال من القبل (كذا) ماشيين مع الطريق فى أواخر سيدى شعبان فوقفت معهم ومشا (كذا) بيننا الكلام فقلت لهم من أى جهة أتيت من بلاد (كذا) فقالوا أتينا من جهة الشريف بن محيــى الدين قاصدين على بن سالم البوغانمى وابنه الاخضر فقلت لهم ما سلككم الطــريق وحدكم قالوا لى أتينا مع قافلة أولاد سيدى عبيد من سوف وعندنا عندهم حاجــة أكيدة فقلت لهم ألم تعرفوه أم لا فقالوا لنا فلا فقلت أنا هو على بن ســالم وقعدتهم طايعنا (كذا) فسمعوا كلامى وراضوا (كذا) لى وحدثونى مشافات (كذا) ودفعوا لى الجوابات فتمكنت عليهم وقمت نبحث فيهم بالكلام فقالوا لى نخبروك (كذا) عـلى سيدى محيى الدين راه قاصد بلاد افريقية فى حشود كبيرة ويتصنت على الشــرق وما يظهر منه ثم سألتهم عن غيرها ذا فى الجوابات فقالوا لى ثم أجوبة غير هاذا قلـت وما اربابهم قالوا لى جواب الى قعيد الفرشى ومثلهم الى بعض أناس من الهامة لــم نعرف لهم رسم وكذلك غرس الله قايد شارف وعمارة الهميسى وغيرهم فى افريقية فلما سمعت منهم هذا وأخذت ثمرتهم قمت وجهتهم بحيلة راه محلنا فى الموضع الفلانى اقدموا له حتى نأتيكم وبهذلتهم (كذا) وكيف اطلعت على الجوابات فبلغاهم نــدم فسألتهم عنهم ما سببهم فقالوا لى ماكثين عند سيدى محمد الصغير فى سوف ونرجوا فى رفيق القافلة فلما وجدنا الرفيق توجهنا نحن هناك ومعنا أناس آخرين (كــذا) بأجوبتهم مثل هذا وقاصدين بها أربابها فى نوحى (كذا) بلادكم افريقية عمــالة تونس فقلت لهم روح (كذا) فى حالكم الى محلنا وانه فى الموضع الفلانى حتى نأتيكم ونعتهم موضع (كذا) غير موضعنا فساروا فى حالهم فلما بعدوا منى فرجعت أنا عن كيل الطعام دون الموضع فاطلعت على الجوابات فتخبل عقلى لاننا نحن خدام أولاد حسن ابن على من الآباء والاجداد والذى يموت يوصى ابنه يا بنى لا تخالف عـلى أسيادتكم (كذا) لاننا ليس عندنا غيرهم هاكذا متسلسل الكلام الى الآن وحتى الآن ونجــروا عليهم بالنصيحة وربنا سبحانه وتعالى يعطفهم علينا ويحننهم ويجعل يومنا قــدام



الشكل رقم 1 ـ رسالة صادق بن محمد الى الوزير مصطفى خزندار حول رسائل محيى الدين
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ٠ ملف 929 ٠ وثيقة رقم 44

يومهم وربنا يدوم لنا ايامكم بالخير والهناء والسلام من خديمكم ومقبل يدكم صالح ابن محمد بن بنيان (؟) عفا الله عنه آمين فى 17 رمضان 1287 . (46)

ملحق خير لسيادتكم كنت خبرت سيادتكم قبل هذا فى صورة الاجوبة فى آخر شعبان مع رجل تونسى حبيبنا ولما ان يظهر لنا منه شيء فها نحن وجهناهم لسيادتكم كما تطلع عليهم لاجل لم نطيق (كذا) نخليهم عندنا وربنا يبقى لنا جودكم مع وجود سيدنا ومولانا أمير الحضرة العلية أيدها الله آمين .

وان الجوابات كنت خبرت سيادتكم عليهم قبل هذا راه تمكنوا عليهم بعض أناس من التى عاله السر هو من لاجل فى يدان (كذا) نقدم لسيادتكم وتقروا بسورتهم واما هو الذى تمكنت عليهم والسلام . وان السيارة التى حاملين الجوابات لما ثبت معهم الجبر قالوا جئنا مع قافلة ونحن سبقنا قدامها فقمت بهذلتهم عن خيمتنا كما ما ذكرت سيادتكم والسلام .

الوثيقة الثانية :

تقرير الامير الاى محمد ناصف خليفة (الاعراض) الى وزير الحرب رستم حول نشاط محيى الدين

الحمد لله (47) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم .

جناب الهمام المفخم أمير الامراء ووزير الحرب سيدى رستم عامل الاعراض أدام الله اجلاله وحرس كماله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فالواجب به اعلام مجدكم انه ورد خبر بأن فى يوم عيد الفرط (كذا) قدم ابن السيد عبد القادر ابن محيي الدين الى وطن نفزاوة متنكرا بالباس (كذا) غرابة ومعه أربعة انفار قصدوا محمد بن الناصر الغربى القاطن بوطن نفزاوة أقام عنده يومين ثم توجهوا معا الى ناحية سوف وركب معهم جميع الغرابة القاطنين بالمكان المذكور وأخبر أنه أتى من

(46) الموافق 11 ديسمبر 1870 .
(47) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 26 .

طرابلس ثم ان فى التاريخ قدم لطرفنا خمسة أنفار غرابة من طرابلس على طريق البحر وصحبتهم عشرة نساء وبعض أثاث وبيوت الشعر وغير ذلك من أثاث العرب صحبة الريس مصلح الاجيمى الجربى فعند ذاك جلبناهم الينا بسياسة لنستفسر أحوالهم فذكروا انهم كانوا قاطنين بنواحى طرابلس وبلغهم ان وطنهم وطن الجزائر متحير وان السيد ابن عبد القادر المذكور قدم من مالطة الى طرابلس فاخبرهم أنه متوجه الى عمالة الجزائر على طريق نفزاوة وأخذ منهم ثلاثة أنفار ليخبروا به الطريق وتوجهوا معه وأبقوا عيالاتهم (كذا) مع المذكورين وأوصوهم بالحقهم (كذا) لهم بجميع اعيالهم (كذا) وهذا سبب مجيئهم من نواحى طرابلس ثم انه فى ساعة الكتب قدم شخص غربى من وطن الجزائر يقال له محمد بن بلقاسم الجبارى الزيرى ومعه تابعه فى شقف من صفاقس فاتوا بهما الينا عساسة العسكر بالمرسى فلما حضر لدينا أجدنا (كذا) عليه أثـر الرفاهية فأسلناه (كذا) من أين قدم وأين متوجه فاخبر انه كان يقرىء القرآن فى الجبل الخضر بعمالة طرابلس وامراء (كذا) بالرجوع الى وطنه فسفر من المحل المذكور الى طرابلس ثم الى صفاقس ثم الى قابس ويريد التوجه الى وطنه على طريق الجريـد فها نحن مسكنا الجميع تحت أيدينا الى ما يأتى لنا من الاذن من السيادة فى شأنهـم ودمتم كما رمتم والسلام من الفقير الى ربه أمير ألاى محمد ناصف خليفة الاعراضى عفى (كذا) الله عنه فى 9 شوال سنة 1287 . صح من أمير الاى محمد ناصف .

وبلغنا أيضا منهم أن أناس (كذا) كثيرة غرابة من عملة (كذا) الجزائر القاطنين بنواحى طرابلس قادمين فى اثرهم طالبين الرجوع الى وطنهم ليكن فى شريف علمكم فنطلب من السيادة هل نمسكوهم أو نسرحوهم (كذا) يذهبوا (كذا) الى حال سبيلهم والسـلام .

وليكن معلوم سيدى أن الخمسة أنفار المذكورين أولا هم وعيالاتهم (كذا) فى حالة رثة (كذا) من العرى والجوع ولكم النظر الاعم، صح أمير الاى محمد ناصف .

---

(48) الموافق حوالى 2 جانفى 1871 .


الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الاعراض

خليفة الاعراض

الشكل رقم 2 ـ تقرير خليفة اقليم الاعراض الى وزير الحرب رستم حول نشاط محيى الدين

أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ٠ ملف 929 ٠ وثيقة رقم 26

الوثيقة الثالثة :

تقرير آغا الجريد اللواء حسن حول قدوم محيي الدين الى ابن ناصر بن شهرة

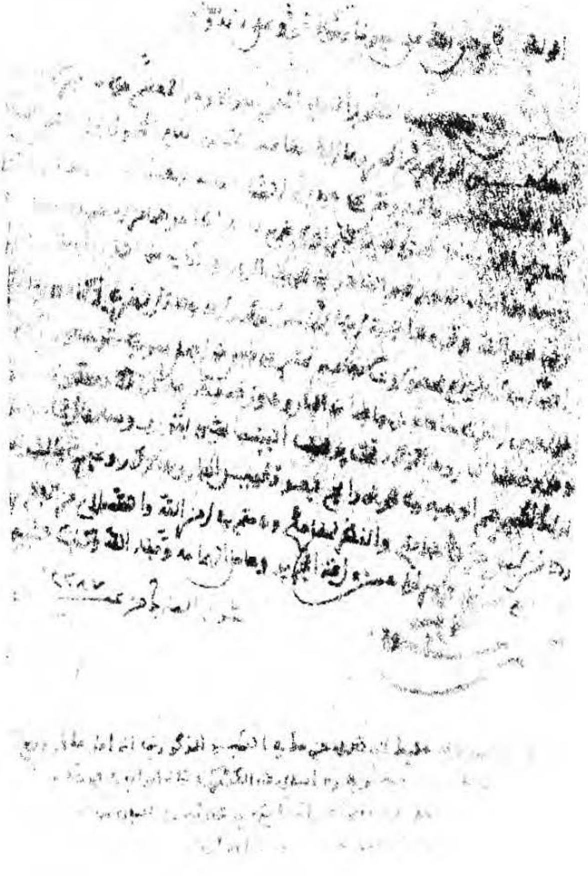
الحمد لله (49) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم ٠

حرس الله مقام جناب الصدر الهمام المفخم الفذ الاوحد المعظم مولانا أمير الامراء سيدى مصطفى الاكبر رعا (كذا) الله مقامه السامى المقام المحمول على كاهل المبرة والاعظام وبعد فالمعروض على جنابكم السامى فانه بلغنا أن ابن الناصر بن شهرة المغربى القاطن بقرب نفزاوة قدم له نفران أحدهما من الشرق سما (كذا) نفسه من أبناء السيد عبد القادر بن محيى الدين والثانى من الغرب يسمى ابراهيم ابن عبد الله وتوجها صحبة بن الناصر المذكور الى جهة الغرب وكما نعلم جنابكم السامى أن لزام محصولات نفطة عثر على قفل (كذا) من أهل سوف متوجهين الى نواحى الغرب حاملين جانبا من البارود وزنه بضرفه (كذا) ثلاثة وستون رطلا وقد وضعنا البارود المذكور تحت يد محبنا البينباشى بتوزر وسلمنا الحاملين لذلك لكبيرهم الوجيه سى محمد بن رابح بعد تقييد البارود المذكور وغيره بالعدالة وها نحن سيدى عرفنا جنابكم والنظر لمقامكم ودمتم فى أمن الله والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده الامير لواء حسن آغه الجريد وعامل الهمامة وفقه الله وكتب فى 11 شوال المبارك من عام 1287 (50) ، صح من كاتبه حسن ٠

استدراك مبارك وقد اخبرنا الوجيه سى محمد بن رابح ان ابن الناصر المذكور انتقل بأهله وخيامه من نواحى نفزاوة ونزل الآن بعمالة الغرب وقد تزايد معه ستة أنفار غرابة ومراد الجميع الفساد بنواحى الغرب ليكن معلوم مقامكم ذلك والسلام صح من كاتبه حسن ٠

ملاحظة المسؤول : وعلمناه والمؤكد به عليك ان تعمل حزمك فى التنبه للمذكورين اذا قدما أو قدم احدهما تتمكن عليه وتوجهه وفى رد البال من الكثرة وكان الواجب

(49) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 27 (30) .
(50) الموافق حوالى 4 جانفى 1871 .



الشكل رقم 3 ـ تقرير آغا الجريد حول قدوم محيي الدين
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 30 (27)

على خليفة نفزاوة ان يتمكن عليهما اذ من الواجبات التى فى عهدته رد البال من أمثال هذه النوازل والمبادرة بفعل ما يلزم فيها قبل فواتها ٠

الوثيقـة الـرابعة :

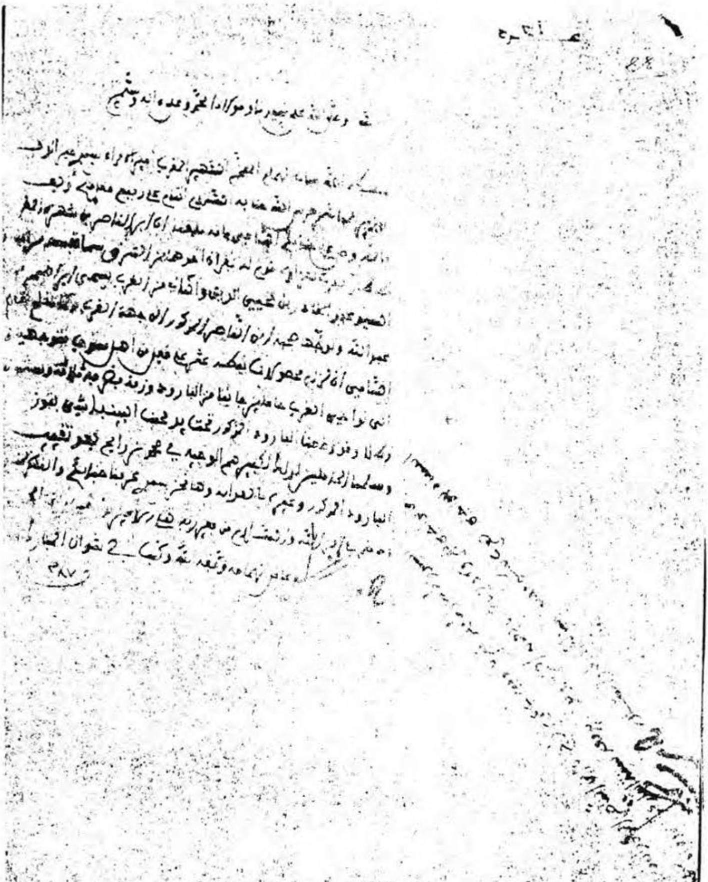
تقرير آغا الجريد الامير لواء حسن الى الوزير خير الدين حول محيى الدين ابن الامير عبد القادر

الحمد لله (51) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وسلم ٠

حفظ الله جناب الهمام المفخم الشهير المقرب أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر حرس الله جنابه السلام التام على رفيع مقامكم وبعد فالمعروض على جنابكم السامى بانه بلغنا أن ابن الناصر بن شهرة المغربى القاطن بقرب نفزاوة قـــدم لـه نفران أحدهما من الشرق سما (كذا) نفسه من أبناء السيد عبد القادر بن محيى الدين والثانى من الغرب يسمى ابراهيم بن عبد الله وتوجها صحبة ابن الناصر المذكور الى جهة الغرب وكما نعلم جنابكم السامى أن لزام محصولات نفطة عثر على قفل (كـذا) من أهل سوف متوجهين الى نواحى الغرب حاملين جانبا من البارود وزنه بضرفه (كذا) ثلاثة وستون رطلا وقد وضعنا البارود المذكور تحت يد محبنا البينباشى بتوزر وسلمنا الحاملين لذلك لكبيرهم الوجيه سى محمد ابن رابح بعد تقييد البارود المذكور وغـيره بالعدالة ٠ وها نحن سيدى عرفنا جنابكم والنظر لمقامكم ودمتم فى أمن الله والسلام من فقير ربه تعالى الامير لواء حسن آغه الجريد ٠ صح من كتابه حسن عامل الهمامة وفقه الله وكتب فى 11 شوال المبارك من سنة 1287 (52) ٠

استدراك مبارك وقد أخبرنا الوجيه سى محمد بن رابح ان ابن الناصر المذكور انتقل بأهله وخيامه من نواحى نفزاوة ونزل الآن بسالة الغرب وقد تزايد معه ستـة انفار غرابه ومراد الجميع الفساد بنواحى الغرب ليكن معلوم جنابكم ذلك والســلام صح من كتابه حسن ٠

(51) أ. د. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 28 (31) .
(52) الموافق حوالى 4 جانفى 1871 .



الشكل رقم 4 ـ تقرير آغا الجريد الى الوزير خير الدين حول محيى الدين
أ٠ ح٠ ت٠ صندوق 78 ٠ ملف 929 ٠ وثيقة رقم 31 (28)

الوثيقـــة الخامسة :

رسالة حول قدوم محيى الدين بن الامير عبد القادر الى نفزاوة

الحمــد للـــه (53)

المعروف على الجناب العلى المحروس أدام الله تعلى (كذا) عزه انه ورد خبر مــــن عامل الكاف يخبر بانه بلغه خبرا (كذا) أحد أبناء سى الحاج عبد القادر قدم من ناحية طرابلس الى جهة نفزاوة بقصد الدخول لناحية الجزائر ومعه بن نصر بن شهرة فكاتبنا فى الحين ءاغة الجريد وعامل الاعراض وعامل الكاف بالبحث عن تحقيق الواقع وبالتمكن عليهما اذا كان الامر كما ذكر وعرضنا ذلك على الجناب العلى ليكن بشريف علم مولانا دام عزه والسلام فى 14 شوال سنة 1287 (54) • صح من العربى (•) •

الوثيقـــة السادسة :

مجموعة تقارير للحكومة التونسية فى أمر البحث عن محيى الدين

نسخة مكتوب (55) لعامل الاعراض عدد 18 المكتوب وتاريخه فى 13 شــــوال 1287 (56) وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن واحدا من أولاد السيد الحــاج عبد القادر قدم من جهة طرابلس وقدومه على طريق قابس وانضم اليه بن ناصر بن شهرة بقصد اثارة أهل الناحية الغربية وقد اذنكم مولانا دام عزه وعلاه بالبحث والتمكن عليهــما مهما وقع الظفر بهما فالمراد ان تجتهدوا فى ذلك بجميع الطرق التى يمكن الوصول بها الى تحقيق الواقع والى التمكن بهما عند الظفر بهما وتوجيههما مع من تقع الثقــة به وتبادروا بالتعريف بما يثبت عندكم فى ذلك ولا نزيدكم توكيدا فى المبادرة وانتهاز الفرصة لذلك والسلام •

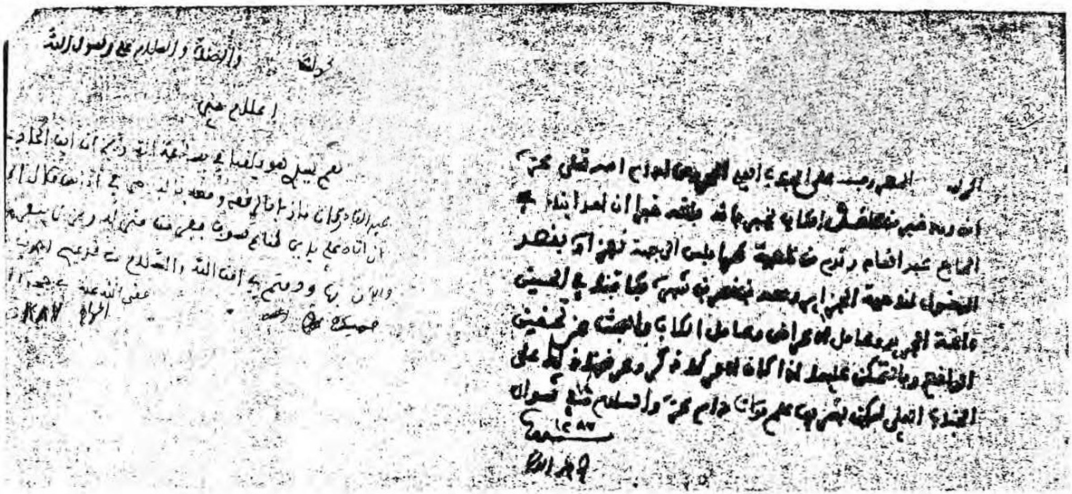
---

(53) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 30 .

(54) الموافق حوالى 7 جانفى 1871 .

(55) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 29 .

(56) الموافق حوالى 6 جانفى 1871 .



الشكل رقم 5 — رسالتان حول قدوم محيي الدين الى تونس
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقتا رقم 30 و 31

ـ مثله لعامل الجريد فى التاريخ المذكور ·

ـ مثله لعامل الكاف فى التاريخ المذكور ·

ـ نسخة مكتوب لعامل الاعراض عدد 21 :

وبعد فقد عرض على الحضرة العلية المكتوب الذى ورد من خليفتكم المخبر بقدوم انفاز غرابة من طرابلس للمقصد الذى ذكرتموه وهو التوجه الى الجزائر والانضمام لابن السيد الحاج عبد القادر بقصد اثارة الهرج هناك وأن غيرهم لاحق بهم وأنك تمكنت على من قدم وصدر الاذن العلى بأن الانفار الذين تمكنت عليهم فى البحر من قابس ترسلهم لصفاقس مع من تثق به ليسلمهم لعاملها وهو يوجههم للحضرة وتجتهد فى رد البال من قدوم من اخبرتم عنه بانه قادم ولما يقدم توجهوه الينا بصفاقس ولا نزيدكم توكيدا فى التنبه لمثل ذلك والفحص عمن يقدم من المذكورين للغرض المذكور وتوصى من يتوجه بالمذكورين لصفاقس وبمن يتمكن عليه ممن يأتى بعد ذلك بأن لا يمدوا أيديهم لشىء من مكاسبهم أو يضروهم والسلام فى 15 شوال (57) ·

ـ صدر أمر بى تعيين أضه باشى حانبه وصبا يحيى باسم عامل صفاقس للقدوم بالانفار غرابة الذين يوجههم له عامل الاعراض الى الحضرة العلية وأن يكون فى اعانتهم على ذلك فى 15 شوال · (58)

ـ صدر مكتوب لعامل صفاقس فى التعريف بالتعيين الصادر للقدوم بالانفار غرابة الذين يوجههم له عامل الاعراض للحضرة العلية وعدده 23 وتاريخه فى 15 شوال · (59)

صدر مكتوب لعامل جربة تاريخه فى 24 شوال (60) وعدده 23 نصه :

وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن نفرا يسمى محمد كويش ومعه جماعة قدموا من طرابلس بقصد الدخول الى الناحية الغربية واثارة الفساد فيها ونزلوا قريبا من

---

(57) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(58) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(59) الموافق حوالى 8 جانفى 1871 .
(60) الموافق حوالى 17 جانفى 1871 .

جرجيس وصدر الاذن العلى بأن تبادر بالتمكن على المذكور ومن معه وتفحص عـــن تحقيق السبب الذى قدموا له وتجتهد فى الوصاية برد البال ممن عسى أن يقدم من الناحية المذكورة للغرض المذكور فان ذلك من الواجبات التى تترتب عليها المسؤولية فيها فبادر للتمكن على المذكور والبحث عن تحقيق سبب قدومه ٠

ـ صدر مكتوب لعامل الاعراض : وبعد فقد بلغ للحضرة العلية أن بعض خيالـة من طرابلس قدموا الى ناحية جرجيس وحفروا أبيار بقصد محلة ذكر أنها قادمة مـن طرابلس وصدر الاذن العلى بأن تبادر للتمكن على الخيالة المذكورين وتفحص عن تحقيق قدومهم وسبب حفرهم الابيار وتعرف بما يثبت عندكم فى ذلك والســـلام عدده 24 وتاريخه فى 24 شوال ٠ (69)

ـ نسخة مكتوب لعامل الكاف تاريخه فى 25 شوال (62) وعدده 25 :

وبعد فقد بلغنا مكتوبهم المؤرخ فى التاريخ فى التعريف بما بلغكم عن ابن السيد الحاج عبد القادر وعلمناه ونوكد عليكم برد البال من ذلك ومتى بلغكم حضوره للملكة وامكنكم أن تتمكنوا عليه فان مولانا يأذنكم بذلك والسلام ٠

ـ نسخة مكتوب لعامل الجريد تاريخه فى 25 شوال (63) وعدد 2151 :

وبعد فقد بلغنا مكتوبكم المؤرخ فى 11 شوال فى التعريف بما بلغكم من قـــدوم ابن السيد الحاج عبد القادر ومعه الناصر بن شهرة ودخولهما للناحية الغربية مـن جهة نفزاوة وعلمناه والمؤكد به عليك أن تعمل حزمك فى التمكن على المذكورين أو أحدهما وتسجنهما وقد كان الواجب على خليفة نفزاوة أن يتمكن عليهما حـين قدما لنفزاوة اذ من الواجبات التى فى عهدته رد البال من امثال هاته النوازل والمبادرة بفعل ما يلزم فيها قبل فواتها لان ما قصده ابن السيد الحاج عبد القادر وهو تحيير بعض أعمال الجزائر يقضى الى وقوع تحيير بالملكة والغفلة عن ملاحظة ذلك تعود بالضرر على

---

(61) الموافق حوالى 17 جانفى 1871 .
(62) الموافق حوالى 18 جانفى 1871 .
(63) الموافق حوالى 18 جانفى 1871 .

[illegible]

الشكل رقم 6 ـ الصفحة الاولى من تقرير للحكومة التونسية
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 29



الشكل رقم 7 ــ الصفحة الثانية من تقرير الحكومة التونسية
أ· ح· ت· صندوق 78 · ملف 929 · وثيقة رقم 29



الحمد لله   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

حفظك الله تعالى ذات سيدي المخزن الأرفع لا نفع قدرة الأقدام وسلالة الكرام وأعزه بيده أيام الأزمان

المروبي المبارك سيدي خيي الترقي أدام الله حفظه أما بعد فسلام عليك سلاما أترجوا أنما أتم

بعد تقبيل يدك أنهي بما نعم بعلم سيدي ومولاي كنا عرفنا جنابك العالي بما وقع من التشويش

بناحية الغرب التي بجوار بلاد مولانا نصره الله التي نحن بها ونحن بالجبر والجهد

من هو التشكر لنا وبه الحقيقة أن من كان لتكون لبيرك عجب داخل العمالة وخارجها

ثم انه لما أتت جلة من ناحية قسنطينة لتعرت بلد تبسة وتحتحل حاجة

محلة خلف من ولد سي الحاج عبد القادر د لانه أتات من ناحية الصحراء ومعه ليجيب كثير من الهلاكة

وغيرهم من أهل الصحراء خارج عمالة مولانا نصره الله فحل حل يقرب بلد تبسة الشعل

هو والجلة المذكورة وصار بينهم حرب يوم الأحد ومات بينهم الى قلاب ووقع العكس

على ولد سي الحاج عبد القادر ورجع هاربا الى قرب بلاد الكماصة والحلة المذكورة

حلت ببلد تبسة وبعد ذلك من أعراش الغرب على ما سمعنا ومطلب ابطال الكيلونة

الخنا فلما رحل بما معه من الخلاط ونزل قرب احد بني أولاد أبي غانم متوجه

لتلك الناحية والواجب علينا اعلام السيادة بما وقع هنا وشكر لأن الأعلا أصل

وقد كان زاد به يكن عليه الحال من غير خلاف ونطلب الله الحكيم رب العرش الكريم

أن يديم لنا وجود ذاتك الهناء والعافية على الجانبين مع وجود

سداد أمنا ومواليها هنالك الله نعم آمين والسلام من عبدكم خديم

محمد فعيد بن صالح عفا الله عنه السيادة ...

... ١٢٨٨ ...

محرم الحرام

... احوكم من الانزا خلة ... الحرب بياخ ...

الشكل رقم 8 ــ رسالة محمد فعيد حول حروب محيي الدين
أ · ح · ت · صندوق 212 · ملف 240 · وثيقة رقم 17

شأن المملكة فالتغافل عن أعماله يعد من القاء النفس للتهلكة فتنبه لمثـــل ذلك فان الواجب التنبه فى كل حال والسلام ٠

الوثيقـة السـابعة :

رسالة أحمد بن صميدة حـول مكان محيى الـدين

الحمد لله (64) والصلاة والسلام على رسول الله ٠

اعـــلام منـــى ٠

نعم سيدى هو بلغنا فى ساعة التاريخ أن ابن الحاج عبد القادر كان نازلا بالرقعة ومعه بالناصر فى أناس قلال الى أن أتاه على باى مناع سوف ففر من منزله ونـــزل بنفزاوة والآن بها ودمتم فى أمن الله والسلام من خديمكم أحمد بن صميدة عفى (كذا) الله عنه فى حجة الحرام 1287 ٠ (65)

الوثيقـة الثـامنة :

رسالة محمد قعيد الى الوزير خير الدين حول حروب محيى الدين بتبسة

الحمد لله (66) صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم ٠

حفظ الله تعالى ذات العمدة الهمام الارفع قدوة الانام وخلاصة الخاص والعـــام سيدى أمير الامراء الوزير المباشر سيدى خير الدين أدام الله حفظه آمين السلام عليكم سلاما أتم ورضوانا أعم أما بعد تقبيل يدك الكريمة نعم تعلم سيدى وهو الخير كنـــا عرفنا جنابك العلى بما وقع من التشويش بناحية الغرب التى بجوار بلاد مولانا نصره الله التى نحن بها ونحن بالجد والجهد فى نهى من هو لنظرنا وفى الحقيقة ان من كان لنظرنا ليس له عيب داخل العمالة أو خارجها ثم انه الآن أتت محلة من ناحية قسنطينة

---

(64) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 31 .
(65) الموافق مارس 1781 .
(66) أ. د. ت صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 17 .

لنصرة بلد تبسة ولحميتها (كذا) لماحل بها من قلق من ولد سى الحاج عبد القادر لانه أتا (كذا) من ناحية الصحراء ومعه لفيف كثير من النمامشة وغيرهم من أهل الصحراء خارج عمالة مولانا نصره الله فلما حل بقرب بلد تبسه التقا (كذا) هو والمحلة المذكورة وصار بينهم حرب يوم الاحد وماتت بينهم الرقاب ووقع العكس على ولد سى الحاج عبد القادر ورجع فارا الى طرف بلاد النمامشة والمحلة المذكورة حلت ببلد تبسة وبهاجم غفير من أعراش الغرب على ما سمعناه وبلغنى أيضا أن الكبلوتى الحناشى قد رحل بما معه من الخاطر ونزل قرب الحد بتراب أولاد أبى غانم متوجه لتلك الناحية والواجب علينا اعلام السيادة بما وقع هنا ونظرك الاعلا (كذا) أصح وبما تأمر نابه يكن عليه العمل من غير خلاف ونطلب الله العظيم رب العرش الكريم ان يديم لنا وجودك فى الهناء والعافية بحق عالم الخافية آمين مع وجود ساداتنا ومواليناا هنأهم الله تعالى آمين والسلام من عبدك فقير ربه محمد قعيد بن سالم عفا الله عن أسياده آمين فى 8 محرم الحرام سنة 1288 ٠ (64)

الحاق خير هو ان الكبلوتى المذكور التى كان أتا (كذا) فارا من الغرب ونزل بناحية الكاف ليكون (كذا) ذلك معلوم السيادة ٠

تعليق من الذى اتصل بالرسالة :

« وعلمناه ومجتهد فى تحذير اخوته من التداخل فى ذلك ويعرف بما يزداد » ٠

الوثيقة التاسعة :

رسالة محمد الشاذلى الى الوزير خير الدين حول البحث عن محيى الدين

الحمد لله (68) وصلى الله على سيدنا محمد وسلم ٠

جناب الهمام الثقة المقرب الخلاصة الهمام المفخم أمير الامراء سيدى خير الدين الوزير المباشر ادام الله اجلاله وحرس بمنه كماله أما بعد اهداء السلام التام ورحمة

(67) الموافق 30 مارس 1871 .
(68) أ. ح. ت صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 32 .

الله وبركاته فانه اتصل بنا كتابكم الاعز المؤرخ فى 21 من شهر التاريخ المتضمن صدور الاذن العلى بالاجتهاد فى البحث عن ابن سى الحاج عبد القادر ابن محيى الدين حيث بلغ للحضرة العلية أنه قدم للحاضرة ومعه انفار خفية والتعريف لما يثبت عندى فى شأن ذلك وعلمناه والجواب عن ذلك أنى اجتهدت كل الاجتهاد فى البحث بغاية جهدى ولما يثبت عندى فيما ذكر أدنى خبر نعلم به جنابكم ودمتم فى أمن الله وحفظه والسلام من فقير ربه محمد الشاذلى الدلامى شيخ المدينة فى 23 ربيع الانور سنة 1288 · (69)

الشاذلى الدلامى ·

الوثيقة العاشرة

رسالة الامير عبد القادر الى قنصل فرنسا بطرابلس الغرب حول ابنه محيى الدين

الحمد لله (70) ذو المزايا الباهرة والسجايا الزاهرة قنصل جنرال الدولة الفرنسوية الفخيمة بطرابلس الغرب بعد السؤال عن أحوالكم السنية نخبر حضرتكم العلية أنه لنا ولد اسمه محيى الدين كان قد اعتراه مرض فى هذه البلاد الشامية قد أعجز الاطباء ثم ان بعضهم أشار عليه أن يغير الهواء فى البلاد المجاورة فاذنت له أن يتوجه الى الاسكندرية ومصر ثم انه بلغنى فى تشرين الثانى أنه توجه الى تونس ولما كان ذلك بغير اذنى ولا أرضى به كتبت الى قنصل جنرال بتونس والى الوزير السيد مصطفى ، واخبرتهم بعدم رضائى لتوجهه الى ذلك القطر وظننت أنهم يردونه حالا الى هذه البلاد فاذا بهم تغافلوا عنه وقد بلغنى الآن أنه جاء الى مالطة ومنها الى طرابلس وأنه توجه منها الى نواحى الصحراء ·

فالمرجو من جنابكم والمؤكد به عليكم أن تخبرونى عنه وان طالت يدكم الى رده فلا تقصروا وبذلك تصير لكم مزية عظيمة علينا ودمتم كما رمتم ·

المخلص عبد القادر الجزائرى · 18 ذو القعدة 1287 · (71)

---

(69) الموافق 12 ماى 1871 .

(70) A.O.M. CARTON 10 X 2.

(71) الموافق 9 فيفرى 1871 .

الوثيقة الحادية عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية بدمشق حول ابنه محيى الدين

الحمد للـــه • (72)

سعادة الاخ السيد برتان (73) الاكرم أدام بقاءكم فى النعم ءامين •

أما بعد فانه وصل البارحة رجل جاء من الجزائر كان سافر اليها من مدة لستة أشهر فاخبر أن عدو الله وعدوى وعدو نفسه المجنون ، محيى الدين وصل الى الحدود بين حكومة تونس وحكومة الجزائر فحصل عندى من الغم والهم من هذا الخبر السوء ما لا أقدر أصفه لكم وتحيرت وما عرفت ما اصنع ولو جاءنى خبر موته كان أحـــب وأشهى الى من أن أسمع أنه يسعى فى الفساد • وحيث أعرف أن كثيرا من الناس البعيدين عنا يتوهمون أن هذا الفعل القبيح بارادتى واذنى وجهت الطريق الـــتى تحصل به براءتى من هذا الولد المجنون ومن فعله القبيح • فاذا استحسنتم جنابكم تتخابرون مع الوزير فاذا أحسن عنك مساعدته أكتب مكاتيب خصوصية لكل قبيلة من القبائل الذين مع المفسد بعد أن يعرفونى أين هو وأسماء القبائل الذين هم عندهم ليتحقق الناس أننى برىء منه ومن عمله •

منتصف محرم 1288 • (74) المخلص عبد القادر

(الختم)

الوثيقة الثانية عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى الطيب بن المختـــار قاضى معسكـــر حول ابنه محيى الدين

الحمد لله وحده (75) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم •

ابن عمنا العلامة سيدى الطيب ابن المختار قاضى معسكر حفظكم الله ورعاكم ومن كل مكروه حماكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد وصلنا مكتوبكم

(72) المبشر ، عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .
(73) يعنى به السيد برتراند : BERTRAND
(74) الموافق حوالى 9 أبريل 1871 .
(75) المبشر ، عدد 573 بتاريخ 1 جوان 1871 .

المؤرخ بأواخر ذى الحجة وحمدنا الله على عافيتكم وكمال الخصب فى مواطنكم · ثم اعلم انه بلغنى ان محيى الدين ظهر فى نواحى الصحراء الشرقية مع أنى لم آذن له الا فى الاسكندرية ونواحيها بقصد تغيير الهواء لماكان لازمه من أنــواع الامراض فأحذروا متابعته وحذروا الاحباب منه فانه محض عبث والعاقل من اتعظ بغيره وتثبت فى جميع أموره ، فقد ألقى بنفسه فيما يؤول به الى ما لا خير له فيه · انا لله وانا اليه راجعــون ·

يغمى على المرء فى أيــام محنته حتى يـرى حســنا ما ليس بالحسـن

والسلام · اخوكم عبد القادر فى 20 محرم الحرام سنة 1288 (76) · بيد المكرم السيد الطيب بن المختار قاضى معسكر · عمالة وهران ·

الوثيقـة الثالثة عشرة :

نداء الامير عبد القادر الى سكان الجزائر حول ابنه محيى الدين

ان ولدنا (77) التعيس محيى الدين قد تجاسر من مدة وذهب ضـــد ارادتنا الى نواحى المغرب وبمقتضى ما بلغنا أنه أتحد مع بعض الاشقياء وشرعوا فى زرع الفساد وعمل الحركات فى جهات حكومية (كذا) قسنطينة التى من شأنها سلب راحة الاهالى · وبما أن هذا التصرف هو مخالف لرضاء الله تعالى ولارادتنا أيضا فنحكم على ولدنـا المذكور ونأمره بحال اطلاعه على اعلاننا أن يترك البغى وسبل العدوان ويرجع عاجلا واذا ابطأ عن الرجوع لا يستحق أن ندعيه (كذا) ولدنا ويستحق غضب الله وغضبنا وعليكم يا معشر العقلاء أن تطردوه من بينكم لانه يجلب عليكم وعلى عيالكم وأولادكم البلاء العظيم ويكون سبب الخراب فى بلادكم وعليكم أيضا أن ترد عواجها لكم مـن موافقته وعدم المداخلة فى عمل أو فى هيجان وأن تحرضوهم على الخضوع لاوامــر الحكومة الفرنساوية التى تحسب سيادتها قد وطدت الراحة التامة فى بلادكم وكثرت ثروتكم ورفعتكم الى أعلى درجة من المجد والترقى محترمة شرائعكم الدينية · وعظمة نبيكم وكتابكم · والذين يتجاسرون على المساعدة فى سلب الراحة والقاء البـلاء بـل

(76) الموافق حوالى 11 أبريل 1871 .
(77) المبشر عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

المؤرخ بأواخر ذى الحجة وحمدنا الله على عافيتكم وكمال الخصب فى مواطنكم . ثم اعلم انه بلغنى ان محيى الدين ظهر فى نواحى الصحراء الشرقية مع أنى لم آذن له الا فى الاسكندرية ونواحيها بقصد تغيير الهواء لماكان لازمه من أنـواع الامراض فأحذروا متابعته وحذروا الاحباب منه فانه محض عبث والعاقل من اتعظ بغيره وتثبت فى جميع أموره ، فقد ألقى بنفسه فيما يؤول به الى ما لا خير له فيه . انا لله وانا اليه راجعـون .

يغمى على المرء فى أيـام محنته حتى يـرى حسـنا ما ليس بالحسـن

والسلام . اخوكم عبد القادر فى 20 محرم الحرام سنة 1288 (76) . بيد المكرم السيد الطيب بن المختار قاضى معسكر . عمالة وهران .

الوثيقـة الثالثة عشرة :

نداء الامير عبد القادر الى سكان الجزائر حول ابنه محيى الدين

ان ولدنا (77) التعيس محيى الدين قد تجاسر من مدة وذهب ضـد ارادتنا الى نواحى المغرب وبمقتضى ما بلغنا أنه أتحد مع بعض الاشقياء وشرعوا فى زرع الفساد وعمل الحركات فى جهات حكومية (كذا) قسنطينة التى من شأنها سلب راحة الاهالى . وبما أن هذا التصرف هو مخالف لرضاء الله تعالى ولارادتنا أيضا فنحكم على ولدنـا المذكور ونأمره بحال اطلاعه على اعلاننا أن يترك البغى وسبل العدوان ويرجع عاجلا واذا ابطأ عن الرجوع لا يستحق أن ندعيه (كذا) ولدنا ويستحق غضب الله وغضبنا وعليكم يا معشر العقلاء أن تطردوه من بينكم لانه يجلب عليكم وعلى عيالكم وأولادكم البلاء العظيم ويكون سبب الخراب فى بلادكم وعليكم أيضا أن ترد عواجها لكم مـن موافقته وعدم المداخلة فى عمل أو فى هيجان وأن تحرضوهم على الخضوع لاوامـر الحكومة الفرنساوية التى تحسب سيادتها قد وطدت الراحة التامة فى بلادكم وكثرت ثروتكم ورفعتكم الى أعلى درجة من المجد والترقى محترمة شرائعكم الدينية . وعظمة نبيكم وكتابكم . والذين يتجاسرون على المساعدة فى سلب الراحة والقاء البـلاء بـل

(76) الموافق حوالى 11 أبريل 1871 .
(77) المبشر عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

يستحقون غضب الله لانه يكره الشر ويحب الخير · هـذه نصحيتي وهـذا أمـرى ومن خالف يندم فلا يلوم الا نفسه ·

أواخر المحرم 1288 (78) · عبد القادر بن محيي الدين ·

الوثيقـة الرابعـة عشرة :

رسالة الامير عبد القادر الى وكيل قنصـــل فرنسا بدمشق حول العفو عن ابنه محيى الدين

الحمـد للـه وحـده (79) ·

حضرة سنى الهمم موسيو يوسف برتران وكيل قنصل فرنسا الفخيمة بدمشق الشام انه بناء على المذاكرة الشفاهية التى جرت فيما بيننا منذكم يوم وشرحكم مآل التحرير الوارد لجنابكم من جانب الوزارة بشأن ولدنا محيى الدين التعس فنجيب اتماما لطلبكم خطا عما هنالك · قلتم ان دولة الوزير المعظم أظهر بتحريره لجنـــابكم الاستعداد للصفح عن المذكور اذا كنا نثبت أن توبته حقيقية ونكفاه فأرجوكم أن تبلغوا وفور احتراماتى لعنايته وأن ترخص لنا أن نعلن استعدادنا الباطن لجهة محيى الدين الشقى فنقول اننا مصممين (كذا) ألا نراه مدة حياتنا قط وذلك ليس فقط فى بيـت واحد بل كنا معتمدين على أننا لا نوجد معه فى مدينة واحدة ولذلك أطردنا من دارنا حريمه وأولاده · أما الآن بحيث ان دولة الوزير المعظم مظهرا ارادته فى التـــوسط لنوال الصفح عنه من جانب حكومته الفخيمة التى هى صاحبة الحق الاول بهذا فالامر راجع لرأيها واستحسانها ولاشك بأن تعاسة النتيجة شاهدها محيى الدين الجاهل من سوء تصرفه الصادر عن حماقته الذاتية والحالة المزعجة الموجود هو بها الآن عرفوه جرم الجنون الذى ارتكبه ونتأمل أن يكون ذلك كفالة له فى المستقبل ، ولا حراعة (كذا) لنا لاطالة الشرح اذ أننا مخجولين (كذا) من تصرف محيي الدين الخبيث الذى صدق به قول القائل الحكيم يفعل الجاهل بنفسه مالا يفعله العاقل بعدوه ولنختم تحريرنا هذا بتكرار الاحترام لدولة الوزير المفخم مؤملين من جنابكم قبول وفور اعتبارنا الـودى ودمتم · فى 15 شعبان سنة 1288 (80) · المخلص عبد القادر · (الختم) ·

---

(78) الموافق حوالى 20 أبريل 1871 .
(79) المبشر عدد 784 بتاريخ 4 جانفى 1872 .
(80) الموافق نوفمبر 1871 .

تطور مفهوم الثقافة
في العالم العربي

د . فولف ديتريش فيشر
أستاذ اللغات السامية والعلوم الاسلامية فى جامعة ارلنجن بجمهورية ألمانيا الاتحادية



كثيرا ما أكد العلماء أن الانسان لا يكون مكتملا عند ولادته ، على عكس الكائنات الحية الاخرى ، وأن قابليته للتطور تحتاج الى أضعاف الوقت الذى تحتاجه الكائنات الحية الاخرى، بل هناك رأى سائد، هو أن الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان كامن فى عدم اكتمال الانسان وفى قابليته غير المحدودة على التطور ·

ان مما لا شك فيه ، أن التربية والثقافة يلعبان دورا كبيرا جدا بالنسبة للفرد وللمجتمع ·

(1) محاضرة القيت فى المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم الثلاثاء 1 ربيع الاول 1396 هـ ، الموافق 2 مارس 1976 .

لذلك تعتبر كل الشعوب مبادىء التربية والتثقيف من أهم العوامل الحضارية وتمنحها أرفع مكانة بين ظواهر الحضارة ٠

عندما نلقى نظرة على مبادىء التربية عند شعوب ودول الحضارات العليا فى آسيا وأوروبا التى نعرفها منذ اختراع الكتابة ، نجد أن تنمية المواهب الفنية والفكرية عندها تزداد أهميتها تدريجيا الى جانب التربية البدنية ٠

لقد بدأت الشعوب فى وقت مبكر تنظر الى الكفاءات مثل القراءة والكتابة ونظم الشعر والرواية نظرة مساوية لنظرتها الى كفاءات المحارب ومهارته القتالية، بل وأولتها احتراما أكبر فى ما بعد ٠ يضاف الى ذلك ان تدريب الكفاءات الفنية والفكرية الذى كان فى العصور القديمة مقصورا على عدد قليل من افراد المجتمع ، أخذ يزداد انتشارا ، حتى اصبحت فى وقتنا الحاضر المطالبة بالتدريب الفكرى لكل أفراد المجتمع هدفا عاما للتربية والتعليم ٠

عند الاطلاع على تاريخ الشعوب والحضارات القديمة نلاحظ انها كانت تعتنى ببعض الكفاءات والمعارف التى كان توفرها عند الشخص شرطا لكسب احترام الناس ولاحتلال منصب عال فى المجتمع ٠

ومع أن نوعية هذه الكفاءات قد تغيرت وتطورت مع مرور الزمن ، ومع انها تختلف من شعب الى شعب ، فانها تتشابه فى كل زمان ومكان بكونها تتعلق بالشعر والتاريخ والادب والفلسفة وما أشبه ، أى بمعلومات وكفاءات لا تخدم الحاجات العضوية ولا ترفع مستوى المعيشة المادى، وليست كفاءات يمكن ان يقال عنها انها «عملية» بالمعنى العام للكلمة ٠

لقد تعدت المبادىء التربوية الكفاءات العملية واتجهت الى العلوم الفكرية التى كانت الغاية منها تدريب المرء على فن الخطابة والشعر والفلسفة وحسن التصرف ٠

لم يصل الامر فى كل مكان الى الحد الذى وصل اليه فى الصين ، حيث كان يتوجب على كل من يريد ان يشغل منصبا عاليا أو يلعب دورا فى المجال الحضارى أن يتقدم الى امتحان يظهر خلاله انه يعى محتوى المبادىء الثقافية الكنفوشيوسية ويتقبلها ، وفى الحضارات الاخرى أيضا كانت مجموعة فروع الثقافة التى كانت تميز المثقف عن غير المثقف محددة تماما ٠

ومن المعروف ان القيم الفكرية كانت تحتل المكانة الاولى فى مبدا الثقافة فى المجتمع الاسلامى ليس فقط فى القرون الاولى من انتشار الاسلام فى بلدان الشرق الادنى وشمال افريقيا وغرب آسيا كان طلب العلم والمعرفة يعد من الاعمال الراقية المبجلة ، بل احتفظ مبدأ التثقيف الذى كان يحمل صبغة دينية بمكانته فى القرون التالية أيضا . الفارس أو الجندى لم يكن يحظى أبدا بالاحترام الذى كان يحظى به أهل العلم والفقه ، وان كان هو صاحب السلطة السياسية . ان تاريخ كلمة ثقافة التى تعنى اليوم الدراسة العليا بشكل عام يلقى ضوءا ساطعا على هذه الحقيقة ، أى مدى أهمية العلوم الفكرية فى المجتمع الاسلامى .

وتستعمل كلمة ثقافة بالمعنى الدارج اليوم منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

وكانت تحمل معنى مختلفا جدا عند العرب قبل الاسلام ، وفى بداية العصر الاسلامى أيضا . لم يكن المثقف فى ذلك الزمان هو المتعلم ، وانما « المسوى » ، أو « المقوم » ، وكان تقصد بذلك قناة الرمح . فيقول مثلا شاعر ما قبل الاسلام المعروف عنترة :

فظلنا نكن المشرفية فيهم وخرصان لدن السمهرى المثقف

اذن كان معنى الثقافة فى ذلك الوقت هو « الاستقامة » ، ولكننا نجد بعد وقت قصير ، فى القرن الثالث الهجرى ان كلمة الثقافة عند ابى عثمان الجاحظ مثلا اكتسبت معنى قريبا جدا من المعنى المصطلح عليه اليوم ، أى الفطنة والذكاء . فتبدل المعنى هذا يعكس تبدل الظروف الاجتماعية الذى جلبه انتصار الاسلام . كانت ثقافة قبل الاسلام مصطلحا يستعمل لاداة المحارب ، أى لرمحه ، اما فى الاسلام فقد اصبحت تستعمل لاداة المفكر ، أى لفطنته وذكائه واخيرا اعتبرت الفطنة كقدرة للعقل أهم قدرة يجب ان تنمى عند الانسان . وهكذا اصبحت الكلمة تعنى التربية الفكرية بشكل عام فى الوقت الحاضر . ولو قدر لعربى من عصور ما قبل الاسلام ان يعود الى الحياة اليوم ويسمع عبارة « وزارة الثقافة » لظن انها تعنى « وزارة الحربية » .

وهناك كلمة أخرى تضىء تاريخ الثقافة فى العالم العربى منذ القرن الثانى للهجرة كانت تستعمل كلمة أخرى تعنى ما تعنيه كلمة « ثقافة » اليوم : الادب · اما فى وقتنا الحاضر فتعنى « أدب » فرعا من فروع الثقافة ، فرعا مهما جدا هو la littérature اما معناه السابق « الثقافة » ، أى كل ما هو لازم من المعرفة لحياة رفيعة مهذبة ، فقد فقده اليوم ·

ولكن كلمة أدب هذه أيضا لم تكن تستعمل عند العرب قبل الاسلام بالمعنى الذى كانت تحمله فى عصوره الوسطى . فى كتاب الفهرست لابن النديم ، الذى يعتبر بحق أهم مرجع لتاريخ الادب العربى فى عصوره الاولى ، نجد موضعا يحدثنا المؤلف فيه عن شخص اسمه ابو بعرة ، كان يحب الكتب ويجمعها · عاش هذا الشخص فى نهاية القرن الثانى للهجرة · ويروى عن مكتبته · تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والادب ·

هنا تحمل كلمة أدب معنى مختلفا تماما : كان يقصد بها معرفة عادات العرب وتقاليدهم · لقد جمعت فى كتب الادب التى ألفت فى القرن الثانى الهجرى حكايات عن شيوخ القبائل واعمالهم ، وكذلك ما كان يروى عن حروب قبائل العرب المسماة بأيام العرب وأقوالهم وتقاليدهم · اما كلمة أدب بهذا المعنى ، أى العرف والعادة ، فقد كان يقصد بها كل ما كان يعتبره العرب جديرا بان يروى عند السمر ، وهو ما كان كل جيل ياخذه عن الجيل السابق من الاساطير . ومنها حكايات عن خيولهم وجمالهم الشهيرة ، والامثال وغير ذلك · وعندما امتد نفوذ العرب الى مصر وسوريا فى عهد الخلفاء الراشدين كانت بيئتهم قد تبدلت تبدلا تاما فى ظرف بضعة عشر سنة ·/كان سكان الخيام فى الصحراء القاحلة قد تحضروا وتعودوا على رخاء ورغد العيش فى ذلك العصر · ولكنهم اعتنوا بتراثهم الثقافى فى البيئة الجديدة أيضا بنفس القدر من الاعجاب بأسرار اللغة العربية وسحرها ، وهكذا كان فى أدبهم العربى ما يقابلون به الثروات الثقافية للشعوب التى أخضعوها ، لكى لا يصحب تلاؤمهم مع البيئة الجديدة تلاؤما فكريا مع الثقافة التى كانوا يعتبرونها زائلة الاوان بنزول القرآن ·

اللغة والشعر والادب مجتمعة كانت الاداة التى بها استطاع العرب المسلمون ان يحفظوا هويتهم خلال المائة وعشرين سنة الاولى من العهد الاسلامى كطبقة حاكمة بين أكثرية غالبة من شعوب غريبة ذات حضارات عالية وأديان غير دينهم · فى أواخر القرن الاول الهجرى بدأ خبراء مطلعون بجمع كل ما كان يسمى أدبا · نذكر بالدرجة الاولى شخصين ، لهما فضل كبير فى هذا المجال وهما محمد الكلبى وابنه هشام · وكان الادب فى ذلك الوقت لا يعنى فقط التراث الحضارى ، وانما كانت تناط به مهمة الحفاظ على الكيان القومى للعرب ، فاقترب الادب مما نعنيه اليوم بالثقافة من حيث المهمة ، أى كان يقصد به حزمة من المعلومات التى كان امتلاكها يعتبر دليلا على انتماء الشخص الى جماعة هى صاحبة السلطة فى دولة الخلفاء أو هى تريد ان تحافظ عليها · عندما عزل الخلفاء الامويون فى دمشق[1] واستولى بنو العباس على الخلافة طرأ تغير جذرى على السلطة السياسية صحبه تغير فى الاهداف الثقافية فى العالم العربى الاسلامى أيضا ·

كان العرب يمثلون الطبقة الحاكمة فى عصر الامويين ، وكان كل من يتمتع بنسب عربى أصيل وينحدر من سلالة عربية خالصة له الحق فى شغل مكانة عالية بين الاوساط العربية الحاكمة · ولكن الثورة العباسية أزالت هذه الامتيازات العربية واصبح المسلمون من غير العرب ، خاصة منهم الموالى الايرانيون يطالبون بالمساواة ؛ بل هم نالوها · والآن اصبحت التابعية للدين الاسلامى والاخلاص له وللخليفة الذى يمثله شروطا للوصول الى منصب قيادى فى المجتمع ·

يتضح لنا ذلك التغير الجذرى فى المجال الثقافى الذى صحب انتقال السلطة السياسية عندما نركز انظارنا على شخصيتين كانت لهما اليد الطولى فى تغيير وجهة الثقافة فى عهد الخلفاء العباسيين ·

لعله لا توجد شخصيتان أجدر بالذكر من ابن المقفع الايرانى وأبى دلامة الآرامى الاصل لتبيان ذلك التغير ·

كان كل منهما ذا صلة وثيقة بالبيت الحاكم الجديد رغم اختلاف منشأ كل منهما عن الآخر · فقد كان ابو دلامة المعتوق ، الناشىء فى ابسط الظروف الاجتماعية شاعر

البلاط الذى لا غنى عنه للخلفاء العباسيين . فعلى الرغم من وضاعة اصله وكونه غير عربى ، كانت له صلة وثيقة بالعائلة الحاكمة . كانت بلاغته الشعرية الفائقة التى وضعها فى خدمة العائلة الحاكمة الجديدة وبها رفع من شأنها ، قد جعلته شخصا لا يستغنى عنه لدرجة ان الخلفاء غضوا النظر عن الحياة الخليعة المتنافية مع تعاليم الاسلام التى كان يحياها .

لقد كان من أوائل الرجال الذين وصلوا الى المجد والشهرة عن طريق الشعر العربى ، مع انه لم يكن ينتمى الى العائلات العربية الرفيعة . لقد حطم احتكار العرب للشعر بل وساهم مساهمة كبيرة فى خلق الاسلوب الجديد المسمى « البديع » الذى أصبح من اساليب الشعر العباسى السائدة ، اذ ان ما جاء فى « قصيدة البغلة » لم يكن ليسمع أو يتصور من قبل .

ابعد الخيل أركبها كراما — وبعد الفره من خضر البغال
رزقت بغيلة فيها وكال — وليته لم يكن غير الوكال
رأيت عيوبها كثرت وليست — وان أكثرت ثم من المقال
ليحصى منطقى وكلام غيرى — عشير خصالها شر الخصال
فأهون عيبها أنى اذا ما — نزلت وقلت امشى لا تبالى

يقف هذا الرجل فى بداية مفهوم جديد للثقافة فى العالم الاسلامى العربى ، فقد كانت العربية مقصورة على طبقة العرب العليا وكانت تعتبر لغة حضارة قومية فى ظل الامويين ؛ اما فى العهد العباسى فقد اصبحت لغة ثقافة عامة لكل المسلمين ، سواء كان أصلهم عربيا أو أعجميا . ان أهمية ابى دلامة فى مجال الشعر تعادلها أهمية روزبه الايرانى ، أو ابن المقفع كما يسميه العرب فى مجال النثر .

ان ترجماته لتاريخ الدولة الساسانية ولكتاب كليلة ودمنه الى العربية مهدت الطريق امام نثر عربى يتعدى حدود القومية . وفى مؤلفين من مؤلفاته تظهر كلمة أدب فى العنوان « الادب الصغير والادب الكبير » ، ولكنها مؤلفات فى الخلق السياسى كتبت بروح التراث الثقافى الايرانى .

وكلمة أدب هنا لا علاقة لها بالتراث العربى مطلقا ، اذ يستعملها ابن المقفع فى معنى جديد هو التثقيف الفكرى والخلقى • وهو يخاطب فى مؤلفه النخبة السائدة فى المجتمع الاسلامى اللاقومى • فنحن نقرأ فى هذين المؤلفين عن الفضائل التى يجب ان يتحلى بها الانسان مثل الصدق والصبر وعن العواقب السيئة للغضب ، وعن الاستعمال الصحيح للعقل وعن فائدة العلم • وهنا يقترب معنى الادب من المروءة التى يجب ان تتوفر فى الانسان ، ليكون عضوا سائدا فى المجتمع الاسلامى اللاقومى • كانت هذه المؤلفات بادرة من ابن المقفع ساهم بها مساهمة فعالة فى وضع سياسة ثقافية جديدة دعمها العباسيون بالجهد والمال • كان هدفهم صهر الثروات الفكرية للشعوب التى دخلت الاسلام فى بوتقة الحضارة الاسلامية • لكن هذا لم يكن ليتم لولا وجود أداة تحول دون تغريب الاسلام أو ابعاده عن قواعده الاساسية • هذه الاداة هى اللغة العربية ، لغة القرآن ولغة العرب الذين بنوا دولة الخلفاء وأدخلوا تراثهم فى الثروة الثقافية للمجتمع الاسلامى •

وفى تطبيق سياستهم الثقافية الجديدة شجع خلفاء العباسيين على ترجمة مخطوطات علوم اليونان والاغريق الى العربية ، كما ترجمت الكتابات الايرانية الى العربية ، وفى خلال القرن التاسع الميلادى ، الموافق للقرن الثالث الهجرى اصبحت اللغة العربية لغة الثقافة فى جميع انحاء العالم الاسلامى •

وبلغت أهميتها حدا كبيرا جدا ، لم يقتصر استعمالها عنده على المسلمين العرب والاعاجم مثل الفرس والاسبان وغيرهم ، بل تعداه الى المسيحيين واليهود الذين كانوا يعيشون فى دار الاسلام . هذه الاهمية الثقافية التى نالتها اللغة العربية كلغة حضارة وثقافة فى العالم الاسلامى فى عصر الخلفاء ازدادت بسبب ابتعاد اللغة اليومية عن لغة القرآن والشعر والنثر ، فقد كان الناس فى الاسواق والحقول وغيرها يتحدثون بلهجات عربية تبعد بقليل أو كثير عن اللغة الفصحى كما هو الحال اليوم • ولم يكن تعلم اللغة العربية الفصحى ممكنا الا بتعلم الكتابة ، ومن لم يتعلم الكتابة التى كانت المفتاح الى اللغة الفصحى لم يجد طريقا الى الثروات الثقافية لذلك العصر •

النحو وعلم اللغة كانا العلمين السائدين ، وهما حددا نوعية لغة الثقافة والحضـــارة فى كل العالم الاسلامى ٠

كانت المعرفة الجيدة للغة جوهر المبدأ الثقافى فى العصور الوسطى ٠ كما كان الالمام بالنحو والمعاجم والشعر والعروض والبلاغة شرطا للوصول الى رتبة اجتماعية عالية ٠ كانت معرفة اللغة العربية الفصحى بمثابة حجر الزاوية لكل العلوم الاخرى ، خاصة منها العلوم الدينية ٠

كان الحديث يدور حول هذه النقاط فى المجالس الادبية ، حيث كان ينتظر مـن المثقفين أن يجيبوا على الاسئلة المتعلقة بهذه المسائل بأجوبة سلسلة بليغة ٠

وعند مناقشة مسألة فى مجلس ثقافى ، وان كانت هذه المسألة متعلقة بالطبيعة ، كانت تناقش بالدرجة الاولى من ناحية لغوية وفقهية ٠ وتحوى بيوت الشعر العربى القديم الحجج التى بمعرفتها يحاول المتناقش ان يفحم مناظره لغويا ٠

والحديث النبوى يحوى الحجج الدينية التى بها يثبت الشخص انه متضلع فى هذا المجال الثقافى ٠

أهمية النحو وعلم اللغة جعلت هذين العلمين يزدهران ، كما جعلت التعليم ينتشر بشكل لم تعرفه حضارات ذلك العصر الاخرى ٠

المعرفة الجيدة للغة والقدرة على التعبير الصحيح الجيد باللغة العربية وسرعـــة البديهة لاستعمال العبارة فى الموضع المناسب ، وامتلاك القافية حاضرة فى كل وقت ، هذه الاشياء كانت تعين مكانة الشخص فى الحضارة الفكرية الاسلامية ٠

واذا اطلعنا على تراجم حياة المثقفين ، التى جمعها ياقوت الرومى فى كتابه معجم الادباء ، نجد أن تعلم النحو وعلم اللغة كانا القاعدة الاساسية عند ثقافة كل منهم ٠

وأكبر مدح لثقافة الرجل كان ان يقال عنه انه تعلم النحو عند عالم نحوى كبـير أو أخذ اللغة العربية عن فم عربى أصيل ٠

وعندما نذكر فى هذا المجال مؤلفا كبيرا مثل الجاحظ مثلا نجد انه طبق هذا المبدأ الثقافى بشكل تام • نشأ فى البصرة حيث أتيحت له الفرصة ليسمع العرب يتكلمون اللغة العربية الفصحى القديمة ، تعلم النحو والفقه • كما ان مؤلفاته تتفق مع هـذا المبدأ الثقافى : ولنأخذ مؤلفه « كتاب الحيوان » فنجد ان المسائل اللغوية ومعاملـة الحيوان فى الشعر والبلاغة ، وذكرها فى الحديث وأهميتها لعلم الفقه ، هى المواضيع الحقيقية التى يعالجها ، اما علم الطبيعة فأهميته ثانوية •

ما نحاول ان نظهره هنا هو أن المبدأ الثقافى لعصور الاسلام الوسطى كان فى الدرجة الاولى يتعلق بعلم اللغة ، وبعبارة ادق ، اللغة العربية الفصحى القديمـــة ، التى كانت معرفتها المفتاح لباب العالم المثقف •

ولم يكن العالم الاسلامى وحده يعتنى بمبدأ الثقافة اللغوية • اذ نشأ فى نفس الوقت فى دولة الروم البيزنطية المجاورة وفى الغرب الاوروبى مبدأ ثقافى كان يهتم باللغة بالدرجة الاولى أيضا •

ولا نعرف ، هل هذا التشابه بين الشرق والغرب سببه ظروف التطور المتشابهة والتراث الحضارى القديم المشترك بينهما ، ام كان التقارب بين الشرق الاســـلامى والغرب المسيحى فى ذلك العصر كبيرا الى حد يمكن عنده الظن بأنهما اثرا بعضهما على البعـض •

الحقيقة هى على أى حال انه فى القرن التاسع الميلادى ، الذى فيه تكون مبدأ الثقافة اللغوية فى الشرق ، بدأ فى الدولة الرومانية البيزنطية عصر احياء اللغة القديمة ، أى اللغة اليونانية الكلاسيكية • وكانت معرفة اليونانية الكلاسيكية كمبدأ ثقافى تلعب دورا فى ذلك العصر شبيها بمعرفة اللغة العربية الفصحى عند المسلمين • وقد ظهرت فى الغرب اللاتينى فى ذلك الوقت البوادر الاولى لنشأة اللغات الشعبيـــــة القومية • فيبدأ الفرنسيون والايرلنديون بالكتابة بلغاتهم القومية • اما فى المجال الثقافى ، المرتبط هناك بالدين ، كما هو الحال فى العالم الاسلامى فتحتفظ اللاتينية باهميتها كمدخل الى الثروات الثقافية الكبرى فى الدين وعلم الحقوق وغيره مـــن

العلوم · لقد تقلبت الظروف الاجتماعية ومشاكل الثقافة منذ العصور الوسطى التى أصبحت فيها اللغة العربية قاعدة المبدأ الثقافى فى العالم الاسلامى · وكما كانت أوروبا ، كذلك عند الشعوب الاسلامية أخذت اللغات القومية تزداد أهمية · ومنذ العصر السلجوقى ظهرت اللغات الفارسية والتركية ، وفيما بعد الهندية كلغات أدب·

وبقيت العربية مقصورة على العرب ولم يستعملها خارج بلاد العرب الا علماء الدين · وفى العصور التالية لفتح المغول أصاب الثقافة العربية بعض جمود بسبب انتقال مراكز الحكم الى خارج البلاد العربية ففقدت كلمة أدب معنى الثقافة بشكل عام ، وأصبح يفهم منها مجرد قصص تربوية وحكايات ، واكتسبت معنى يمكننا ان نقيسه بمعني الكلمة فى الوقت الحاضر « أى الادب الجميل »

ولا شك ان العلوم الطبيعية فى عصرنا الحاضر اصبحت عاملا مؤثرا فى كل مجالات الحياة ولذلك لها مكانة مهمة فى اطار المفهوم الثقافى ، وتشكل قسما كبيرا من التدريس فى المدارس وفى الجامعات ، ولكن كل المطلعين على أمور التربية والتعليم متفقون على ان اللغة لا تزال الاداة الوحيدة التى لا تعوض للفكر البشرى ، ولذلك لابد أن تكون اللغة دائما نواة التربية والتعليم · هذه الحقيقة تحدونا الى ان نقدر الجهود والاعمال الناجحة للمؤلفين العرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين تقديرا وافيا · فقد خلقوا باللغة العربية الحديثة أداة كاملة لكل مجالات الحضارة الحديثة، يستطيع بها المتكلم العربى ان يعبر عن أفكاره فى مستوى عصره · ويجوز أن نقول أن تطور هذه الاداة اللغوية كان عاملا فعالا فى التحرر من الاستعمار للامة العربية ·

ملاحظات على تحقيق الرسالة المنسوبة لابن سينا في

ترتيب الأدويّة

د · المنجى الكعبى
استاذ بالجامعة التونسية
ونائب بمجلس الامة ـ تونس

1 ـ داء الزيتونيـــة



هذا مخطوط آخر من التراث يجد طريقه الى النشر فى سلسلة المطبوعات التي يصدرها تباعا مركز البحوث والدراسات بالجامعة التونسية · وهو من تحقيق وتعليق الدكتور محمد سويسى · وهـــو أستاذ بكلية الآداب انصبت عنايته منذ سنوات على تدريس تاريخ العلـــوم عند العرب بحكم تخصصه القديم فى تدريس مـــادة الرياضيات بالثانوى قبل أن يصبح مجازا ومبرزا ثم دكتورا فى الآداب العربية · وهو من صنف المتخرجين بالدكتوراه من جامعة باريس فى أواخر الستينات وبداية السبعينات ، فى تلـــك السنوات التى كثر اللهث فيها للحصول على دكتوراه الدولة بالنسبـــة لجماعة مـــن

المبرزين فى الآداب العربية • وهم جماعة وقع الحاقهم بالجامعة فى أول تاسيسها ، ثم وقعوا أغلبهم فى ضرورة التحصيل على هذه الشهادة لتامين استقرارهم بالعالى ، فى وقت بشرت فيه طلائع الشبان الجدد المترشحين لهذه الشهادة وأمثالها من الدرجات العلمية العالية بجامعات المشرق العربى وبباريس نفسها ، وبدت كأنها ستزحمهم وتسد الجو الذى كان خاليا لهم •

والاستاذ محمد سويسى من هذه الجماعة وليس منها ••• منها فى احساسها المفرط بامتيازاتها العلمية على حملة الدكتوراه من الزيتونيين المتأخرين أو أشباه الزيتونيين الذين لم ينتظم تعليمهم كله أو بعضه بانتظام سلك التعليم الاستعمارى السابق بتونس • وليس منهم فى أنه أقلهم ابتلاء لهؤلاء الزيتونيين الذين شرقوا وغربوا فى سبيل تعلم اللغات الاجنبية والتحصيل على الدكتوراه ثم ضربت المتاريس أمام كلية الآداب التونسية فى وجه دخولهم •

وربما الحق أنه ممن يميلون الى ترك القول والموقف فى مشاكل الزيتونيين مع غير الزيتونيين ، لانه هو نفسه منى بمعارضة هذه الجماعة حين استظهر بشهاداته للتدريس بقسم العربية بكلية الآداب ، وهو الاستاذ نصف عمره فى الجبر واللوغارتمات ! أما وقد من الله عليه بالانسلاك فى سلكهم ، فقد يكون ممن وضع عن نفسه التعرض بـ « ايه » أو بـ « لا » فى مسائل الانتداب ، خاصة اذا تعلق الامر بواحد من هؤلاء الزيتونيين الدكاترة الذين لم يعمدوا بماء الاستشراق الفرنسى وبالذات بماء التعليم الفرنسى بتونس أيام الحماية •

وهذا كلام جئت به فى أول هذه المقالة النقدية لاشير الى أمرين ، الى أن قسم اللغة العربية وآدابها عندنا لم يقبل به الى حد الآن ـ والرقباء العتيدون على بابه يحمدون ربهم على ذلك ـ لم يقبل به أستاذ واحد من أصل أو من فرع زيتونى علا ما علا شأنه فى العلم والشهادات • والى أن وجود الاستاذ محمد السويسى فى هذا القسم هو أمر فى حد ذاته غريب ونادر ، لانه على رأى سدنة هذا الحرم الجامعى لم يتبع المجرى الطبيعى للحصول على التبريز فى العربية ، وانما أتبع طريق العصامية ، وهو منكور فى مذهب حفظة التراث الاستشراقى بكلية الآداب عندنا • وقد يكون شفع له كونه سليما من داء الزيتونية •

وداء الزيتونية هذا ، وهو من عجائب الامور ، هو في الحقيقة مصل واق ضد كل ضروب الاستيلاب ، انتفعت به البقية الباقية من نقلة هذه الجرثومة عبر مسيرتها العلمية شرقا وغربا • وأبرز مسالك الاستلاب الثقافي والحضاري مسلك الاستشراق ، وقد أختطه نفر من الاوروبيين ممن نذروا أنفسهم لتكريس استعمار بلدانهم على الشعوب المغلبة أكثر من تكريسها للعلم مجردا •

وقد بقيت آثار من هذه النزعة الاستشراقية في الدراسة والبحث في ميدان الحضارة الاسلامية والآداب العربية متغلغلة في أذهان عديد من الاساتذة والباحثين في تونس وغير تونس من الجامعات العربية حتى لتحق الدعوة الى حملة عامة لاعادة تدوين تاريخنا الادبي ونقده وكذلك تاريخنا الحضاري عامة على أساس من المفاهيم الاصيلة والمناهج الاصيلة كذلك • وأنا لا أدعي أنني أحد من سلم ذهنه ولسانه من مساوىء الاستشراق غير أنني أعتقد أني أحد من أخذ بقوة بمحاسن ما أدخله الاستشراق على الدراسات العربية والاسلامية لمعالجة شيء من الاختلاف كانت عليه قواعد العربية وملامح الادب العربي في ذهني • وأعتقد انني فيما آخذ به في نقدي لبعض الاعمال الجادة لزملائي الباحثين والدارسين في اللغة العربية وآدابها انما أسعى بالبحث العلمي عندنا الى المرتبة التي وصل اليها على أيدي كبار الاساتذة المستشرقين ، لكن مع توجيهه الوجهة التي لا ينبغي أن تلتبس فيها أعمالنا بأعمال المستشرقين لغة وتعبيرا وانطباعا واختيارا ونقدا • لان لكل أمة خصائصها من جهة هذه المقومات الحضارية ، ونحن في المرحلة الحاسمة للشعور بأنفسنا بعزة ، وتأكيد شخصيتنا الانسانية من جهتها النوعية •

2 ـ في عنوان الرسالة

ولما طالعني صدور كتاب الدكتور سويسي على رسالة ابن سينا تملكني ذلك الشعور الجميل الذي يملأ نفس الانسان بازدياد مخلوق جديد • وهذه عاطفتي نحو المخطوطات المنشورة •

الاخراج بديع خاصة من جهة تلك الصورة الملونة على غلافه مع شدة سواد الحروف المطبعية ووضوحها على شدة بياض الورق ... الى جانب التنسيق بين أجزاء الكتاب من مقدمة المحقق ونص المخطوط والتعليق عليه بأسفله والمعجم الملحق بآخره . كل ذلك فى حجم متوسط به 245 صفحة .

وليس من ملاحظة على اخراج الغلاف الا من جهة تلك الصورة ، فانه لم يقع مع الاسف التعريف بها وبمصدرها وعلاقتها بالمخطوط . هل هى منه أم جيء بها لمناسبتها لموضوعه ؟ وهذا السؤال بالخصوص كان من حق القراء على المحقق أن يجيبهم عنه ويفصل لهم مع ذلك الشكل الذى تمثله الصورة .

وبدون شك فان العارفين بالفنون الاسلامية وبالاخص فن التصوير عند الفرس والشعوب الشرقية يستطيعون أن يتبينوا فيها لوحة فارسية قد تعود الى القرن الثامن أو التاسع . وهى لوحة من جنس تلك المنمنمات التى تحفل بها عادة النسخ الخطية الممتازة من كتب المقامات والمجالس والمصنفات العلمية فى الحيوان والفلك والطب ونحو ذلك . وهى لوحات فنية لطيفة التشكيل والتزويق ، ميزتها ، مثلما هى الحال فى هذه الصورة ، التعبير بالحركة والنظرة عن الغاية من وجود العناصر المتكون منها المشهد .

وفى هذه الصورة ـ ومن هنا مناسبتها لرسالة فى الادوية ـ رسوم أعشاب طبية (ربما كان بامكان الباحث المحقق التعريف باسمائها) وبها ثلاثة رجال ، أحدهم عليه مظهر الطبيب العالم المسن (كأنه تصوير شخصى للشيخ الرئيس ابن سينا) وهو مشرف فى جلسته على الرجلين الآخرين ، وهما وقوف بين يديه ناظرين اليه كالمسائلين له عن دواء ، وهو كالمتدبر فى الامر ينظر الى لا شيء وتحت أقدامه ومن حوله تلك الاعشاب النابتة .

وليس من ملاحظة أخرى على اخراج الغلاف الا من ناحية التوزيع الفنى لعناصر العنوان عليه ، فان جو الاتساق الشرقى الذى تضفيه عليه الصورة الفارسية والخط العربى يقطعه ذلك التقديم المعكوس لاسم المؤلف على العنوان . وهذا فيما يبدو من

تأثير الاسلوب الغربى وغلبته علينا • لاننا لا نقول فى عناوين كتبنا ، وخاصة اذا كان الامر يتعلق باحياء التراث ، لانقول « الشيخ الرئيس ابن سينا الرسالة الالواحية » ، وانما يقول ذلك الغربيون على عادتهم ومألوف عبقرية لغتهم ، أما نحن فنقول ونكتب : « الرسالة الالواحية للشيخ الرئيس ابن سينا » •

وقد يقول قائل وهل هذه ملاحظات جوهرية يعتنى بها فى مثل هذه المقامات النقدية، فأقول له ان هذه بسائط لا محالة ولكنها احدى نواحى الاخراج الاصيل والجميل الذى عليه مخطوطاتنا وليس من الرأى ولا من التجديد أن نفرط فيه عند طبعها •

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات فقد بقيت ملاحظة أخرى جديرة بالذكر هنا قبل أن ننتقل الى الكلام عن مقدمة المحقق وعن طريقة تحقيقه للنص والتعليق عليه وتذييله • وهذه الملاحظة تخص تصرف المحقق فى تسمية مؤلف الرسالة بأزيد مما وجده على ظهر النسخة التى بين يديه • وظنى أن كلمة « الشيخ الرئيس » ـ وهى الشهرة المعروف بها ابن سينا ـ لم ترد لا فى غلاف الرسالة ولا فى مقدمتها ولا فى موضع آخر منها • وسآتى الى تحقيق هذا الظن بعد قليل ، أما الآن فما هذا العنوان الذى اختاره ـ ان صح ـ ابن سينا لرسالته ؟

هذا العنوان لم يختره ابن سينا على الصحيح لرسالته ، والرسالة نفسها ينبغى أن تكون منسوبة على الظن لا على التحقيق للشيخ الرئيس ابن سينا • وليس الذى اختار العنوان ناسخ المخطوط أيضا انما المحقق • وكدت أعرف ذلك قبل التقدم فى قراءة الكتاب ، لان الثقل واضح فى العنوان المعروض • وعندما تدرك أن غرض المؤلف من رسالته هو ذكر الادوية فيها مرتبة ألواحا ، كل دواء فى لوح مفرد ، تقول لو كان سماها « الرسالة اللوحية » لكان أحسن • وبكل غرابة تجد المحقق فيما بعد بالصفحة 15 وبالصفحة 17 من مقدمته يبين أنه وجد النسبة فى العنوان الى المفرد لا الى الجمع ، أى « اللوحية » • وهنا يأخذنى العجب من هذا التصرف ، غير المبرر مع ذلك ، الذى يعمد اليه « غفلة » أو قصدا بعض المحققين •

وليس فى العربية ـ على حد علمى ـ اسم مفرد منسوب الى اسم مجموع على هذا النحو من التركيب • ولا ندرى اذا كان العنوان « الرسالة اللوحية » هو ـ كما يقول

المحقق فى الصفحة 17 من مقدمته ـ : « العنوان الذى جعله الناسخ لهذه الرسالة » . لا ندرى اذا كان هذا القول من المحقق هو قول على سبيل الظن أم على سبيل التحقيق ؟ فهل أدرانا مثلا أن الخط يختلف بين الغلاف وبين النص . أم تبينت له قرائن أخرى أكدت له أن الناسخ جاهل أو لم ينتبه الى أن الكتاب كان ينبغى أن يسمى « الرسالة الالواحية » لانها متكونة من عدة ألواح لا « الرسالة اللوحية » لانها متكونة من لوح واحد ، حتى جاء هو ـ أى المحقق ـ فصحح غلطته ؟ ولا حاجة لنا بالجواب عن هذا السؤال ، لان قواعد التحقيق العلمى للمخطوطات لا تسمح برمى نساخ المخطوطات بمثل هذا القدر من الجهل بما يفعلون بالكتب ، حتى يتحقق جهلهم فعلا .

وهناك غير هذه من قواعد تحقيق المخطوطات غير مرعية فى هذا العمل من ذلك ما يكون عادة من ادراج مصورة بالكتاب من الصفحة الاولى على الاقل من المخطوط للتعريف بحالته من ناحية الخط ودرجة الحفظ . ولو كان فعل ذلك لامكننا التحقق من فهم تلك الكلمة التى يقول (فى ص 17 من مقدمته) انه وجدها فى بداية النص وهى « رسالة فيضية » وأكتفى بالاشارة اليها دون تعليق فى حين أن الباحث العلمى والمحقق لا يقتنع منه بالتسجيل والملاحظة فقط ، فالتساؤل والتعليل هى بعض أدوات البحث العلمى الضرورية .

ونقول له أولا ان هذه الكلمة ليست فى بداية النص لانه جاء بعدها « الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه ، فهذه رسالة فى ترتيب الادوية المفردة ألواحا بحسب قواها ...» والعرب أو والمسلمون لا يبدأون بما قبل « الحمد لله » ، ولذلك فهى ليست من النص ، ويمكن أن نقول فقط انها توجد قبل النص . ولذلك فقد لا تكون سوى تنصيص من الناسخ على أمر من الامور يتعلق بهذه الرسالة ، ويظهر انه يشير الى مصدرها فى ملك بعض المشهورين بجمع المخطوطات واقتنائها وأعتقد ان كثيرا من العارفين بالمخطوطات فى بلادنا يعلمون ما تزخر به خزائن المكتبات فى العالم وخاصة بالآستانة من مخطوطات طبية وغير طبية متأتية من تركة الجماعة الكبير لكتب المرحوم « فيضى » ومن هنا النسبة اليها فى ركن بأولها .

3 ـ فى نسبتها الى صاحبها

ولكن نسبة هذه الرسالة لابن سينا هى التى أزعجتنا قليلا • لا لاننا نضن بها على هذا الطبيب العالم ، ولا لاننا نريد أن نقلل من أهميتها فى ذاتها ••• ولكن لامرين آخرين : أولا لان نسبتها لابن سينا المعروف جدا والمعروفة آثاره جدا (حتى المفقود منها عناوينها معروفة) تحتاج الى دليل قاطع خارجا عنها ، كأن نصادف اشارة عند كبار المتخصصين فى دراسة ابن سينا الى أن له كتابا أو مصنفا موضوعه يمكن ـ على الاقل ـ أن نطابقه بموضوع هذه الرسالة • وليس من الحكمة أن نجازف بنسبة هذا التأليف لابن سينا وقائمة أسماء مؤلفاته البالغ عددها كما يقول المحقق « زهاء 276 » تخلو منه • والامر الثانى يتعلق بالناسخ • ليس من ناحية الشك بما يصل الينا من الناسخين ولكن من ناحية قلة الثقة بشأن من يتحفظ منهم عن ذكر اسمه فى آخر المخطوط أو من يخل بتعريفنا بالاصل الذى نقل منه (كان فى ملك من ؟ وبخط من ؟) • وليس موجودا بآخر هذا المخطوط غير « تم الكتاب بعون الملك الوهاب فى سلخ شوال المكرم سنة 650» • مع أن أهل العلم بالتراث يعرفون ان فى أبسط آداب الكتابة أو التأليف ذكر أدنى قدر ممكن من المعلومات لتوثيق أعمالهم وحفظها من النحل والانتحال •

وعلى ذلك فكل مخطوط غفل من اسم ناسخه معروض للشك فى نسبته لمؤلفه اللهم أن تكون نسبته مشهورة أو موثقا بها بخط بعض العلماء فى شكل تعليق بحاشية النص •

وكل هذا لا يمنعنا أن نغلب الظن فى مثل هذه الحالة بنسبة الرسالة لابن سينا كما وجد مكتوبا عليها • لكن من الواجب أن نشير الى هذا التوقف الذى عرض لنا فى نسبة الرسالة بعبارة « منسوبة لابى على بن سينا » • أما أن نلاحظ كما لاحظ المحقق بأنه « لم يعثر من بين ما ذكر لنا الجوزانى من كتب أستاذه ابن سينا ولا من بين ما أثبته له ابن أبى أصيبعية وبروكلمان وغيره على أثر لكتاب تعرض فيه ابن سينا الى ذكر هذه الامور » القائم عليها موضوع الرسالة ، ونستنتج مثله ، فيما بعد ، أن ابن سينا لابد أن يكون ألف الى جانب كتبه العامة فى الطب رسائل جزئية من بينها هذه الرسالة

(ص 16 من المقدمة) • فهذا استنتاج لا يسمح به البحث العلمى لانه استنتاج قائم أساسا على قياس غير علمى وان كان قياسا منطقيا • وصفة ذلك أن المحقق وجد القدامى يقولون ان كتاب القانون لابن سينا هو كتاب جامع فى الطب • ثم وجد أنهم يقولون ان ابن رشد تابعه فى تاليف كتاب جامع سماه « الكليات » • ثم وجد ان ابن رشد نفسه تقدم الى معاصره ابن زهر ليؤلف كتاب « التيسير » فى «الامور الجزئية» فى الطب فى شكل كناش لكتابه « الكليات » للتيسير على بعض المداوين من جهة تفسير العلاج وتركيبه ، لان كتاب « الكليات » جاء بالقول فى معالجة جميع أصناف الامراض بايجاز • فاستنتج المحقق من كل ذلك النتيجة التالية : ان « العادة جرت وتواترت بين علماء الطب الى القرون المتأخرة بتلخيص أمهات مصنفاتهم النظرية وتخصيص رسائل للعمل التطبيقى قاصدين بذلك تعميم الفائدة » وأصبحت هذه النتيجة مقدمة أولى فأضاف اليها المقدمة الاخرى وهى أن ابن سينا ألف مثله مثل ابن رشد مصنفا جامعا واستخرج منها نتيجة معناها ان لابن سينا رسالة فى « الامور الجزئية على حد تعبير ابن رشد » • ثم وهم أو هو يوهمنا كأنه كان يبحث طويلا للعثور على هذه الرسالة، ورغم أنه لم يعثر على تسميتها بين ما ذكر من مؤلفات ابن سينا الـ 276 عنوانا الا أنه على حد قوله « لم ييأس من الوقوف على مثل هذا الاثر ••• » •

وهذا وهم أو ايهام لانه يحدثنا بعد قليل ، بدون ربط معقول مع ما ذكره لنا سابقا من مقدمات واستنتاجات ، يحدثنا عن وقوع هذه المخطوطة بين يديه صدفة ، يقول : « فعرض علينا منذ سنتين الصديق الاستاذ المحامى الطيب العنابى نسخة مخطوطة قادته اليها يد الصدفة اذ أمكنه اقتناؤها يوما من أيام سنة 1954 من صناديق باعة الكتب القديمة على ضفاف نهر السين بباريس » •

وقد أكون مخطئا فى تقدير الوهم والايهام ولكنى لا أعرف هذه البلهوانيات فى تحقيق المخطوطات لدى أساتذتنا المستشرقين ، وخاصة فى طريقة نسبتها الى أصحابها بمثل هذا الاحتجاج الضعيف •

4 ـ أمير باريس !

وفى آخر المقدمة يبين المحقق أنه اعتمد فى تحقيق نص الرسالة على كتاب القانون فى الطب للمؤلف نفسه ـ ابن سينا ـ وكتابين آخرين أحدهما : كتاب مفيد العلوم

لابن الحشاء فى تفسير ألفاظ المنصورى فى الطب للرازى ، والآخر تذكرة داود الانطاكى فى الطب أيضا ·

وماذا فى نص الرسالة حتى يحققه على هذه الكتب ؟ الامراض والادوية وطريقة الحديث عنها · فانك تقرأ الرسالة كلها (100 صفحة تقريبا) فلا تجد ولو فى هامش صفحة واحدة منها أدنى تعليق أو اشارة الى وجود اسم هذا المرض أو هذه الصيغة فى التعبير عن اسم هذا المرض ولا اسم هذا الدواء أو وصف لجانب من جوانبه ولا مقارنة واحدة بما فى هذه الرسالة من كل ذلك وبما هو موجود مثله أو خلافه فى واحد من هذه الكتب ·

كل ما هنالك من تعليقات بهامش النص لا تعدو كونها تصحيحات لغوية أو نحوية بسيطة · وحتى هذه التعليقات ـ ان صح ان تسمى كذلك ـ تترى فى النص على غير نسق موحد · فقد تتوالى التصحيحات أحيانا مسبوقة بالحرف « خ » اشارة الى المخطوط وأحيانا بدونه · حتى أن القارىء يمكن أن يميز ثلاث فترات منقطعة فى العمل بهذا الكتاب · فنرى الملحق يغفل تدوين الحرف « خ » فى تعليقاته بعد الصفحة 33 ، ولا يستدرك على نفسه ذلك الا بعد الصفحة 59 · وهذا لا يقع للمستشرقين وهو من عجيب انتباههم ودقة تنظيمهم فى العمل ·

ولم يكن هناك داع بالمرة الى تكرار ذكر الـ « خ » فى كل تعليق ما دام الامر يتعلق بتحقيق نسخة واحدة · ومجرد الاشارة الى ذلك فى المقدمة كاف · وانما الادعى الى ذكره فى التعليق هى التصحيحات التى يبدو ـ وهى قليلة ـ انه رجع فيها الى الكتب الثلاث المذكورة وليست اجتهادات ·

وذلك ما كنا فهمناه للوهلة الاولى من قوله : « أما تحقيق نصها فرجعنا الى كتاب القانون فى الطب والى ··· والى ··· » · فهلا بين لنا مثلا من أى هذه الكتب صحح عبارة الاصل التى تقول : « أصل الرازبانخ يفتح سدد الكبد » فأبدل « الطحال » بـ « الكبد » فى النص (ص 67 ، التعليق رقم 2) ؟ وان كان ذلك اجتهادا منه أو للسياق ، فلماذا لم يبينه أمانة للتحقيق ؟ وهذا مثال أتينا به لندل على أن تحقيق النص يجرى على منهج واضح ومقرر بدقة فى المقدمة ·

وقوله فى المقدمة (ص 17) انه اعتمد هذه الكتب ، أى القانون فى الطب وتفسير ابن الحشاء وتذكرة الانطاكى « لضبط المفردات ورسمها ومدلولها » ، فلم نر فى حاشية النص ولو اشارة واحدة الى ضبط أو رسم أو مدلول اعتمده لمفردة فى هذه الرسالة من تلك الكتب • وذلك فضلا عن مفردات من الادوية ، رغم تكرر الكثير منها فى العديد من لوحات الرسالة ، نجدها تتخذ من لوحة الى أخرى رسما مختلفا • ومن غريب ما يستوقفك من ذلك هذا الدواء المسمى « أمير باريس » فى ص 23 (اللوح الثانى) • فتستظرف التسمية ويكاد يذهب بك الخيال مذهبه لولا أنك تكتشف فى اللوحات الاخرى التى يجىء فيها ذكر هذا الدواء أنه « الانبر باريس » (مثلا فى ص 56) و « الانبارباريس » (مثلا فى ص 62) وأخيرا « أميراليس » (ص 237 فى فهرس الالفاظ الدخيلة) ولا تعرف فى الآخر ما يكون رسمه على الصحيح •

وقوله فى المقدمة كذلك (ص 17) انه « حرز » تعاريف مفردات الادوية بالاستفادة من « معجم كازمرسكى العربى الفرنسى ومن ملحق دوزى للمعاجم العربية ومما أعده المكتب الدائم للتعريف بالرباط من المشاريع المعجمية المتخصصة ••• » فلا أثر لاشارة واحدة عبر التعليقات الى واحد من هذه المراجع أو المعاجم المتخصصة التى رجع اليها المحقق بل يبقى القارىء على طول الرسالة محتارا حتى فى نطق كثير من مفردات الادوية •

صحيح حرر المحقق تعاريف هذه المفردات فى معجمه بآخر الرسالة ، ولكنه لم يحرر كيفية النطق بها ، وهذا مهم جدا • وهو من المآخذ الهامة على محققى التراث الذين لا يعنون بتحريك حروف الكلمات المستصعبة لفظا أو نحوا •

وليس فى تعليقاته على النص كذلك شرحا لتلك الامراض الكثيرة التى يصعب فهمها على قارىء اليوم ولو من أهل الاختصاص ، واذا لاحظنا أن أسماء هذه الامراض المذكورة بالمعجم الذى وضعه المحقق للمفردات الاصطلاحية أدركنا النقص فى هذا المعجم من هذه الناحية •

وعن هذا المعجم نفسه الذى وضعه المحقق فى آخر الرسالة يقول فى المقدمة موضحا كيفية بنائه وترتيبه : « ووضعنا مقابل كل لفظ فى معجمنا نظيره فى الفرنسية

والانقليزية وأحيانا اللاتينية ••• ورتبنا معجمنا حسب الترتيب الهجائي وخصصنا العمود الثاني لمقابل اللفظ باللغات الغربية والعمود الثالث لتعريف اللفظ حسبما جاء في القانون في الطب ذاكرين الصفحة التي وجد فيها اللفظ وفي العمود الرابع ما جاء في شأنه في مفيد العلوم لابن الحشاء طبعة الدكتور رينو ذاكرين رقم الفقـــرة المخصصة له في العمود الخامس والاخير جمعنا الارشادات التي وجدناها في تذكـرة أولي الالباب لداود الانطاكي » •

وفي الحق ان أكبر الجهد في عمل المحقق على هذه الرسالة يتمثل في وضع هـــذا المعجم ولكن ليته كان معجما مفهرسا أو ليته وضع بجانبه فهرسا مستقلا يبين فيه الصفحات أو اللوحات الواردة فيها تلك الالفاظ الاصطلاحية ، ويعتبر فقـــدان هذا الفهرس نقصا فادحا في عملية تحقيق هذه الرسالة وستظل بدونه بتراء •

5 ـ مآخـــذ متعـــددة

وليس من مأخذ على الطريقة التي اتبعها المحقق في عرض مادة المعجم الا أنهـــا طريقة سببت تشتيت الغرض منه • وهذا الغرض هو أساسا تعريف المفردة الطبية من خلال شروحها في كل من قانون ابن سينا ومفيد ابن الحشاء وتذكرة الانطاكي ثـــم الاتيان بمقابل لها في اللغات الاجنبية • فقد وضع المحقق المفردة وساق أمامها أفقيا على مدى أربعة أعمدة موزعة على صفحتين الترجمة ثم الشروح • فيقع في بعض الاعمدة احيانا بياض وأحيانا ازدحام بالشروح ؛ وفضلا عن مجافاة ذلك للاخراج الفني فان الاعمدة لا تحمل عناوينها كما في الصفحة الاولى من المعجم ، مما يجعلها عرضة للالتباس بعضها ببعض فضلا عن وجود رقم بين قوسين في أول كل شرح لا يعلم سره الا من تنبه في أول المعجم الى أن ذلك الرقم يشير به المحقق الى موضع الشرح من الكتاب المعتمد عليه • وفي ظني أن هذا ليس هو التنسيق الافضل للمعاجم من هذا النوع • فالانسب وهو المعتاد في كتب المحققين أن تذكر المفردة بحرف غليظ أو مسطرا تحتها وتردف بالشروح المخصصة لها مع الاشارة الى رمز كل كتاب استخرج منه ذلك الشرح وبعد الرمز رقم الصفحة منه • ويجعل كل من الرمز والرقم بين قوسين بعد الشرح •

ومما يلاحظ على هذا المعجم ان المحقق قدم المقابل الاجنبى للمفردة على ذكر شروحها ولو عكس لكان أنسب منه وأنسب كذلك للقارىء العربى • فضلا عن كون المحقق اضطر فى بعض المفردات الى ايراد شروح لها باللغات الاجنبية قبل الشروح العربية •

وصنع المحقق بعد هذا المعجم جدولا عنونه بـ « احصاء الدخيل من الفارسية واليونانية والهندية » • وفى الحقيقة ففى هذا الجدول دخيل من تلك اللغات التى ذكرها ومن غيرها كالسريانية ولذلك فقد كان بامكانه الاستغناء عن تعداد ذلك فى العنوان لهذا الامر ولامر آخر هو أنه ذكر به مفردات لم يبين الاصل الذى انحدرت منه • كما أنه من غريب ما يلاحظ على هذا الجدول وجود مفردات غير دخيلة به كالقطران والعجيب أن المحقق ينقل أمامها من القواميس التى رجع اليها أن العبارة الاجنبية goudron هى أصلا من العربية qatran ، وكذلك كلمة « كرويا » ••• اللهم ان نرجع باللغات كلها الى أصل واحد ، أو تكون كلها أصول بعضها الى بعض •••

وكان من المستحسن من المحقق أن يتبع منهجا موحدا فى الاشارة الى اللغة الاصلية للمفردة الدخيلة ، وذلك بذكر اسم اللغة كاملا أو بالاقتصار على حروفها الاولى رمزا اليها ، وأن يذكر ذلك قبل أو بعد المفردة • لا أن يتداخل ذلك على نحو لا يسمح للباحث أن يستقرىء فى الجدول الالفاظ الدخيلة من الفارسية أو اليونانية أو الهندية أو غيرها من اللغات •

وكان الاهم من ذلك ، أن يعتنى بوضع فهرس لهذه المفردات حسب وجودها فى صفحات الرسالة أو ألواحها ، لا أن يهتم بوضع هذا الجدول فى المفردات الدخيلة ، لان بيانها بالمعجم كاف فى حد ذاته • فضلا عن كون هذا الجدول لم يستقم بالمرة تنظيمه المطبعى ، وأدخل بذلك على هذه الالفاظ الدخيلة ارتباكا كبيرا • انظر مثلا لفظة «اسفنج»، تجد أمامها رقم 13 ولا تدرى عما يدل (وهو فى الحقيقة ترتيبه العددى المجرد فى قائمة المعجم) وأمامه ثلاثة أسطر يقطع ثانيهما عن الثالث قوس مغلقة وبياض فى بقية السطر ، وكل ذلك كان بالامكان استدراكه عند تصحيحات بروفات المطبعة حتى لا تسقط الكلمة الاخيرة وتكون بالسطر الموالى •

ويمكن ابداء عدة مآخذ على بناء وتركيب كل من المعجم والجدول ، كما يمكن ملاحظة نقص واضطراب غير قليلين فى المعلومات الموجودة بهما من ذلك :

ـ أدوية غير مذكورة بالمعجم (رومانين ، الزبيب ، سرخس ، البد ٠٠).

ـ أدوية ليس لها أرقام فى جدول احصاء الدخيل ، فهى ضائعـــة لانه ليس هناك

ـ أدوية غير مذكور مقابلها باللغة الاجنبية مع وجود هذا المقابل بالجدول الـذى عنونه بـ « احصاء الدخيل » وذكر فيه الاسماء الاجنبية للادوية العربية (بنطفلن٠٠).

ـ تضارب أرقام الادوية ، فبعضها يتخذ رقما غير الذى يعطى له فيما بعد بجدول احصاء الدخيل (قلقديقون ، قلقطار ٠٠) .

ـ أدوية ليس لها أرقام فى جدول احصاء الدخيل ، فهى ضائعة لانه ليس هنـاك فهرس يرشد الباحث الى موضع وجودها فى النص (دوسنطاريا ، سرخس ، بندق ، حى عالم ، حصف ، اسقلوفندريون ٠٠) .

ـ أدوية مذكورة بجدول احصاء الدخيل وغير مذكورة بالمعجم (حى عالم ، حصف، دوسنطاريا ، نيلوفر ٠٠) .

ـ أدوية رسمها فى المعجم غير رسمها فى جدول احصاء الدخيل (انبرباريس ، اميراليس ، أمير باريس ، رتة ، رثة ، حندقوقى ٠٠) .

ـ أدوية موجودة بجدول الدخيل دون أن يذكر أصلها باللغة الاجنبية (بليلج 63، جوراش 105 ، اسفيداج 14 قلقديون 394 ، موميا 492 ٠٠) .

ـ أدوية تذهب شروحها الى غيرها وتقع لها شروح خطأ : اسطوخدوس واسفيداج (قارن بينهما فى المعجم وبينهما فى جدول احصاء الدخيل) ، قراصيا (موجودة فى غير موضعها من المعجم) وضيعت شرحها مع ذلك وهو موجود فى مكان آخر . (أنظر بعد 381 وفى الحقيقة أخذت رقم 369) .

6 ـ مآخـــذ أخـــرى

ولم يشر المحقق الى عدة أمور مهمة منها : ـ اسماء أدوية لم يقف على ذكر أو شرح لها فى الكتب التى اعتمدها مصادر له (بنطفلن ، برسيا ، حشيشـــة الكلـــب 125 خشخاش برى 158 ، داحس 173 ، دهن الكافج 190 ٠٠) ٠

ـ مفردات سجل شرحها فى معجمه دون أن يذكرها هى نفسها (انظر الرقم 111 ص 140 من المعجم ، الشرح : « انها شجرة قفرية على قدر الذراع أبيض الورق ثمرته كالفلفل دهنى لبنى » ٠٠) ٠

ـ مفردات لم يحرر تعاريفها ويقدم لها شروحا متناقضة ، فلا يدرى المقصود منها بدقة فى الرسالة ٠

(خز soie 153 ، قدم لها المحقق شرحان ، أحدهما « صنف من الحرير » والآخر « ليس هو الحرير بل هو دابة بحرية ذات قوائم أربع فى حجم السنانير لونها الى الخضرة يعمل من جلدها ملابس نفيسة تتداولها ملوك الصين » ٠

ـ مفردات موضوعة فى غير موضعها من الترتيب الهجائى (جوزبوا فى حرف « ب » ، جدوار بعد حنطيانا ٠٠) ٠

ـ هناك كثير من مستخرجات الحيوانات الحية أو الميتة أو فضلاتها غير مذكـــورة بالمعجم (انظرها فى النص ص 93 مثلا كالثعلب والارنب وابن عرس والحمام ٠٠) ٠

ـ أدوية لم يذكر شروحا لها بالعربية ، وشرح لها بالفرنسية فقط ، مع أن هناك شروحا لها بالعربية (عذبة 320 ٠٠) ٠

ـ أدوية سقط مطبعيا المقابل الاجنبى لها عن السطر الموجودة فيه (غب 337) ٠

ـ مفردات أدوية موجود مقابلها الاعجمى وغير موجودة هى نفسها ولا يستطيع الباحث أن يهتدى اليها فى النص lésion sans fracture 531 ٠٠

ـ لا تجد احالة مفردة على مفردة عندما تختلف الاسماء والمسمى واحد (حب غار ، كرز غار ، تجدهما معا فى عمود واحد ٠٠) ٠

هناك أرقام لمفردات لا هى موجودة بأعيانها ولا موجـــود مقابلها ولا شروحهـــا (الرقم 386 ٠٠) ٠

ومع الاسف أخيرا فحتى عدد مفردات الادوية التى ذكر المحقق فى المقدمة أنـــه أحصاها فى المعجم فكانت 539 ليس هو العدد الكامل لما فى معجمه من مفــردات والعدد الصحيح ربما الاقرب أن يكون 545 اذ هناك عدد تكرر مرتين وعددين تكررا مـــرة واحدة : (376 ، 407 ، 503) ومع ذلك فليس هذا العدد هو العدد الكامل لمفردات الادوية الموجودة بالرسالة ، فهناك كثير سقط ولم يسجله بالمعجم ٠

وليت المحقق يضع للرسالة فهرسا دقيقا يجمع فيه بين تعداد الصفحات والالواح المذكورة بها المفردة الطبية وبين الشروح الموجودة لها بالمصادر يضاف الى ذلك مقابلها فى اللغات الاجنبية كما تنص عليها المعاجم المختصة ، وينشر هذا الفهرس الجامـــع بأحدى المجلات المتخصصة فى الابحاث والدراسات العلمية ٠ فانه يسدى بذلك خدمة كبيرة للباحثين الذين يدينون له بتحقيق هذه الرسالة ويقدرون جهده فى اخراجها ٠

ولم ننته من التعقيب على كلام المحقق فى « المقدمة » فهو بعد أن تحدث عن احصاء الدخيل يقول انه استنتج « أن نسبتها لا تتجاوز الثلث من جملة المصطلحات وأن لغة الطب بقيت قارة على مر العصور » ولا ندرى كيف استخرج هذه النسبة ولا عـــلى أى أساس حكم بأن لغة الطب بقيت قارة على مر العصور ٠ لعله يقصد لغة الطـــب العربية ٠٠ وحتى هذه ٠٠

7 ـ لا يبيض الكتاب حتى يسود

وأنا أعتقد أن المحقق قد يكون له مبرره فى نشر الرسالة قبل أن يتقن تحقيقهـــا وفهرستها ٠ ولكنه حين تفطن الى ما فيها من مناقص لم ير بدا من أن يسجل ذلك فى آخر المقدمة ، لا عبثا أو تواضعا على عادة بعض كبار المحققين ولكن اعترافا بالحقيقة ، فهو يقول : « ونحن اذ نقدم هذا العمل نشعر بما يشوبه من نقص وخلل ٠٠ » ثم يقول : « وما كان فى نيتنا الا أن نساهم بقسط متواضع لخدمة العربية لا سيما فى هذا الظرف التاريخى وقد بقى فيه مشكل التعريب معروضا على ضمير الناطقين بالضاد،

فنضيف الى أطروحتنا لغة الرياضيات فى العربية هذه اللمحة فى ميدان ليس ميداننا واختصاص غير اختصاصنا » ٠

وقد قلت فى أول مقالى ان المحقق أستاذ فى الرياضيات أصلا ، ثم أصبح أستاذا بالجامعة يدرس العربية بحكم حصوله على التبرير والدكتوراه فى العربية من باريس ، وانه لذلك اتخذ نحوا أو اتجاها من البحث يجمع فيه بين اختصاصه القديم واختصاص التدريس بكلية الآداب ٠ ولذلك قلنا فى أول هذه الملاحظات انه وهم أو كأنه يوهمنا بأنه كان يبحث عن رسالة فى الادوية المفردة لابن سينا حتى أعثره عليها المحامى الاستاذ الطيب العنابى ٠ وانما قلنا ذلك لاننا شعرنا أنه جازف فى نسبة هذه الرسالة لابن سينا وهو من غير أهل الاختصاص لا فى الطب العربى القديم ولا بعلم المخطوطات وما يقع فيها من انتحال وتشويه ٠

ولم نر كيف خدم « مشكل التعريب » من خلال عمله على هذه الرسالة ٠ فلو خدم تحقيق الكتاب لوجه تحقيقه لكان أفضل لان خدمة التعريب من خلال هذا النص أو غيره كانت تكون احدى النتائج الحتمية فى عملية التحقيق عندما تكون على الوجه العلمى الدقيق ٠ فالتعريب عبارة عن وضع معاجم مفهرسة دقيقة للكتـــب التى هى مظنـة للمصطلحات العلمية ٠ ولم يصنع المحقق من ذلك الا مسخا من معجم ومسخا من احصاء٠

ولو كان التعريب هدفه الوحيد من تحقيق هذه الرسالة لاستعرض ، وهو العالم المتخصص فى تعريب مصطلحات العلوم ، جهود مواطنيه المحدثين والمعاصرين فى ميدان علوم الطب من أمثال الشيخ عمر التونسى الذى كان كبير المترجمين فى عصر النهضة بمصر زمن محمد على (لعمر التونسى هذا قاموس فى المصطلحات الطبيــة مطبـوع ومعروف) وهناك من بين أطبائنا المعاصرين ومن بين علمائنا المعتنين بالكتب الطبية مـــن نشر بعض المصنفات بالعربيـــة ومـــن يعكف عـــلى قاموس فى تعـــريب المصطلحات الطبية ٠ ولم نر لهم ولا لمؤلفاتهم ذكرا فى عمل الاستاذ المحقق ولا فى مراجعــــه ٠

وليس خليقا بنا الاحتدام على التعريب لوجه التعريب وهناك علوم صحيحة ينبغى اتقان العلم بها قبل الانصباب صبا على تعريب ما فيها من اصطلاحات ، من ذلك علم

احياء التراث أو تحقيق المخطوطات ، وهو وعلم الآثار سواء فى الاهمية وفى الوسائل والمناهج الدقيقة المحققة للغرض منه ·

ومهما يكن المبرر لدى المحقق فى التعجيل بدفع عمله الى المطبعة فانه مؤاخذ بما فى عمله من نقص وخلل ·

وقد أكون معرضا فى هذه الملاحظات ما سبق منهاو ما لحق ، الى اغضاب الاستاذ المحقق ، وأنا لا أحب اغضاب احد فى غير الحق وفى غير العلم كما لا أحب أن أظهر بمظهر المنتقد على العلماء · ولكنى أعتقد أن كثيرا من طلبتنا المنصرفين الى تحقيق التراث وقراءة النصوص القديمة يستفيدون من هذه الملاحظات فى مستقبل أعمالهم ·

وقد يكون فى النقد أحيانا ما يغضب صاحب العمل المنقود ولكن الكتاب ـ كما يقال ـ « لا يبيض حتى يسود » من التصحيحات والاستدراكات عليه ·

وقد نظرنا الى حد الآن فى تعريف المحقق بهذه الرسالة المنسوبة لابن سينا وتتبعنا عمله عليها كما عرضه فى المقدمة بقى أن نسجل بعض ملاحظاتنا على الجزء الذى خصصه من مقدمته للتعريف بمؤلف الرسالة ويلى ذلك كيفية تحقيقه للنص ·

8 ـ لا للتعريب لوجه التعريب

هناك أمور كان ينبغى على المحقق أن يلاحظها فى المقدمة أو يجيب عنها :

ـ التاريخ المذكور بآخر النسخة وهو 650 ، هل هو تاريخ المخطوطة الام التى نقلت عنها هذه المخطوطة أم تاريخ نسخها هى ؟ وكان عليه أن يتساءل عن ذلك على الاقل ان لم يجد من يستعن به على حل لهذا السؤال (وعندنا بالمعهد القومى للآثار أكثر من متخصص فى تأريخ المخطوطات) ·

ـ هل المخطوط مرقم الصفحات أو الاوراق أم غير مرقم ·· ؟ ومهما يكن من أمر فقد كان من الواجب أن يضع فى النص المطبوع علامة بين كل صفحة وأخرى من صفحات المخطوط ·

ـ هل الالواح ، حتى عندما تكون قصيرة ، تتوالى بعضها اثر بعض فى صفحة واحدة ، أم كل لوح مستقل فى كتابته عن اللوح الآخر ؟ والى أى حد راعى المحقق أو خالف النظام المتبع فى تدوين الرسالة ٠

ـ لم يذكر المحقق مصادره فى ترجمة ابن سينا ولا ذكر فهرسا للكتب والمعاجم التى رجع اليها لتحقيق نص الرسالة ، وكان يستحسن منه عندما عرض لتعداد مصنفات ابن سينا أن يشير الى ما طبع منها ، استنادا ـ على الاقل ـ الى المعلومات الموجودة فى ذلك بدائرة المعارف الاسلامية أو بروكلمان أو سزكين ، ان أمكن ٠

ـ لم يهتم المحقق بشرح مقدمة المؤلف وتحليلها ، والحال انها مدخل مهم لفهم الرسالة من حيث موضوعها ومن حيث الغاية منها ٠ وكان بامكانه أن يقسمها الى فقرات واضحة ويشير بالخصوص الى ارقام الالواح التى ذكرها المؤلف على سبيل الاستشهاد فى مقدمته ٠

ـ الالواح فى الرسالة وردت مرقمة عدديا من واحد الى مائة ثم يتوالى ترقيمها بحساب الجمل بعد المائة (قا ، قب ، قج ، قد ، قه ٠٠ الخ) ولم يبين المحقق السبب فى اختلاف الترقيم بل لم يشر الى ظاهرة الترقيم الجملى ، ويعلل لها ٠

ـ لم يلاحظ المحقق أن المؤلف يرتب الادوية فى كل لوح حسب نظام معين ، وهو لديه وبين ما ينص عليه المؤلف من تقسيم الالواح المذكورة الى عناصر ثلاث : الالواح المتعلقة بـ « الاعضاء » والالواح المتعلقة بـ « الامراض » وأخيرا الالواح المتعلقة بـ « الاخلاط » ٠ وانما يبدو أن المحقق سلم بنهاية المخطوطة ثقة بالناسخ الذى ذكر فى آخرها انها تمت والحال أنه ليس هناك خاتمة بقلم المؤلف بعد اللوح الاخير ٠

ـ لم يلاحظ المحقق أن المؤلف يرتب الادوية فى كل لوح حسب نظام معين ، وهو يعبر عنه فى المقدمة بقوله : « بحسب قواها وأفعالها ومنافعها » ، كما أن الالواح جملة هى فى الرسالة على ثلاثة أنواع ، بحسب ما تتعلق به ، فهى ثلاث مجموعات : « المتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط » وكانت تساعده هذه الملاحظة على حسن اخراج النص وتسهيل الغاية من الرجوع اليه ٠

ـ وللتعريف بابن سينا فى المقدمة أورد المحقق من أخبار ابن سينا فى كتب التاريخ والطبقات والتراجم شذرات متفرقة لا تعطى الا صورة مهزوزة عن شخصية الرجل • وكان من الممكن أن تكون طريقة عرضها على غير ذلك النحو الكاريكاتورى : فلان كان من الناس من يرفعه الى السماء ، ومنهم من يخفضه الى الارض ، ومنهم من مجده حين مات ، ومنهم من سخر به بعد وفاته ، وكان هو فى ذاته شديد العجب بنفسه سيء الظن بالناس جميعا • فهذا النحو من سياق الاخبار لا يكون فى البحوث والدراسات العلميــــة •

ونحن نسأل المحقق من اين له النسبة لابن سينا بقوله : « المذهب السينى » ؟ هل وجدها للقدامى أم اخترعها • وله الحق فى اختراع ما يشاء فى اللغة . ولكنه يعلم أن عبقرية العربية قد تسيغ اختراعا دون اختراع • وللقدامى ـ فيما يحضرنى الآن ـ فى ذلك : « البهشمية » نسبة لابى هاشم المعتزلى ، ولكـن ليس « الهشميــــة » أو «الهاشمية» • واذا أخذنا بما ذكره المحقق فى النسبة لابن سينا قلنا أيضا «السينية» • وقد نخشى عند ذلك أن تلتبس الاشعة السينية بالفلسفة السينية ، وخصوصا أن صاحب هذه الفلسفة طبيب ! ومهما يكن من أمر ، فالذى يبدو أن المحقق لم يخترع شيئا من ذلك وانما عرب النسبة لابن سينا فى اللغات الاوروبية • ولكنا نقول له وهو الحفى بالتعريب : انه اذا كان تعريب « الاشعة السينية » موفقا فان تعريب « المذهب السينى » غير موفق ، بل هو تعريب غير مرغوب فيه •

وقد قلت ان هذا «التعريب» الذى قد يكون أنشط المحقق لنشر هذا الكتاب أفسد عليه خطته فى تحقيق الرسالة • وهو أخيرا، فى رأينا، لم يخدم لا التعريب ولا التحقيق•

لم يخدم التعريب ، لان أهم ما يمكن خدمة التعريب به ، من خلال هذا الكتاب ، هو أن يدون المحقق ثبتا خاصا بالمصطلحات التى قد يكون وجدها فى هذا الكتاب ولم يجدها فيما رجع اليه من قواميس التعريب العلمية والمعاجم المتخصصة فى المصطلحات العربية للطب •

ولكنه حتى بالمعجم الذى وضعه لهذه الرسالة لم يخدم التعريب لانه لم يستطع أن يستوعب فيه جميع مصطلحات الكتاب ولا بين مواضعها منه ، ولم يستطع أن يقودك فيه

الى ما شرحه من عباراته والى ما لم يشرحه ، والى ما وجد له مقابلا فى اللغات الاجنبية والى ما لم يجد له مقابلا ، والى ما يعرفه أهل التعريب من المفردات الموجودة فى الرسالة والى ما لا يعرفونه ·

ولم يخدم التحقيق ، لان عملية التعريب كانت تكون أسهل من تهيئة المخطوط لقراءة صحيحة واضحة ·

9 ـ تحقيق التحقيق

فلنأخذ فى قراءة النص ونقتصر من ذلك على مقدمة المؤلف ، فهى مثال لسوء التحقيق الذى وقع لها ، لا من حيث تراكم عبارات المؤلف وجمله دون فاصلة أو نقطة بينها ، ولا من حيث افتقار الحاشية الى تعليقات (فلا توجد الا فاصلة ونقطة وحيدتين على مدى صفحتين استغرقتهما المقدمة · والمقدمة كلها مقسمة الى فقرتين ، بينما تحتاج الى أن تكون مقسمة بصورة طبيعية الى خمس فقرات · وفى الحاشية لا تجد الا أربع تصحيحات بينما تتطلب المقدمة تعليقات أهم من ذلك ، وتتطلب خاصة عدة شروح واحالات على أرقام اللوحات التى يشير اليها المؤلف فى الرسالة) ·· لا من حيث ذلك فقط ولكن كذلك من حيث عدم تحليل المحقق لهذه المقدمة التى تعتبر بمثابة مفتاح للرسالة ، اذ فيها بين المؤلف كيفية استعمال تلك الالواح · لكن المحقق ، بما تركه عليها من الاضطراب ، أو بما زاده عليها من الاضطراب، بسبب تلك العبارات التى أقحمها من عنده وهو يعتقد انها تتمم المعنى أو توضحه ولكنها ـ كما سنرى ـ تحرف النص وتصحفه ، لم يساهم فى مساعدة القارىء على اكتشاف مفاتيح هذه الرسالة فى المقدمة التى كتبها المؤلف لذلك ، وكان على المحقق فى الاقل مناولتها القارىء دون زيادة تحريف على ما قد يكون فى النسخة من تحريف ·

وفيما يلى صورة المقدمة محققة بعناية المحقق وتعليقه وصورة أخرى أمامها للمقارنة :

لحمد لله (I) والصلاة (2) على نبيه
.سالة فيضية ،

هذه رسالة فى ترتيب الادوية المفردة
لواحا بحسب قواها وأفعالها ومنافعها
لمتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط
ئل لوح منها يتضمن أدوية كثيرة
ختلفة الذات متشابهة القوى فى
لافعال ليكون للطبيب العارف تذكرة
تى حاول مرضا من الامراض وجد جميع
لادوية النافعة منه مسطورة فى اللوح
لخاص به حاضرة لناظره ممثلة
ين يدى خاطره يتصرف منها ويستخلص
نها ما يكون بمقصده لائقا ولغرضه
وافقا اما لاكثر منفعه أو لاقوى
علا والذى تصحبه منفعة أخرى

(I) خ : لوليه
(2) خ : الصلوة

الحمد لوليه ، والصلاة على نبيه ٠ (I)

هذه رسالة فى ترتيب **الادوية المفردة** الواحا ، بحسب قواها وأفعالها ومنافعها ، المتعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط كل لوح منها يتضمن أدوية كثيرة ، مختلفة الذات ، متشابهة القوى فى الافعال ، لتكون للطبيب العارف تذكرة ؛ متى حاول مرضا من الامراض وجد جميع الادوية النافعة منه مسطورة فى اللوح الخاص به ، حاضرة لناظرة ، ممثلة بين يدى خاطره ، يتصرف فيها (2) ، ويستخلص منها (2) ما يكون بمقصده لائقا ولغرضه موافقا : اما لأكثر منفعة ، **أو لأقوى** فعلا من (3) الذى تصحبه **منفعة أخرى**

(I) أخطأ المحقق فى قراءة الحمدلة ٠ اذ من الواضح هنا أن المؤلف أراد أن تكون لعبارة فيها مبنية على السجع أو المزاوجة اللفظية ، مثلما ذلك فى القرآن وأن تبع فيها رسم المصحف (الصلوة) تبركا ٠ وهذه ظاهرة عامة لدى المؤلفين المسلمين ى بدايات كتبهم ٠
(2) للمناسبة بين حرف الجر والفعل ٠ يراجع المخطوط .
(3) المعنى لا يستقيم الا بذلك ٠ يراجع المخطوط ٠

أو (بالاحرى) مضرة فأما المبتاع أو المألوف
المعهود أو السهل الوجود أو غير ذلك
من الاشياء المطلوبة والأغراض المقصودة
فيكون مثلا اذا أراد (ان أحال على)
خلط صفراوى تطلب لوح
الأدوية المسهلة للصفراء فيجد فى جملتها
التمر الهندى فينظر فيه فيجده مخشنا للصدر
ضارا بالسعال لا يصلح لغرضه فيعدل

أو مضرة (4) ، واما (5) للمبتاع او المألوف
المعهود أو السهل الوجود . أو غير ذلك
من الاشياء المطلوبة والاغراض المقصودة ·
فيكون مثلا اذا أراد (**استفراغ أو**
اسهال) (6) خلط صفراوى يطلب (7) لوح
الادوية المسهلة للصفراء (8) ، فيجد فى جملتها
التمر الهندى (9) ، فينظر فيه فيجده مخشنا للص
ضارا بالسعال (10) لا يصلح لغرضه ، فيعدل

---

(4) الزيادة التى زادها المحقق للنص بين قوسين تخل بالمعنى · ولا تخفى مع ذلك غرابتها عن أسلوب المؤلف · وانما يريد صاحب الرسالة أن يقول : ان للطبيب أن يختار من بين الادوية الموصوفة فى اللوح الدواء الاقوى تأثيرا من غيره المقترن بمنفعة أخرى عارضة أو غيره المقترن بمضرة محتملة · وذلك بطبيعة الحال بالنسبة لحالات مرضية خاصة · وستأتى فى كلام المؤلف عدة أمثلة للدواء الذى منفعته المقصودة ضعيفة ولكن منه منفعة أخرى . والدواء الذى منفعته حاصلة ولكن منه مضرة من ناحية أخرى ·

(5) لا يستقيم التعبير الا بهذا التصحيح والا فالعبارة تبقى غامضة · يراجع المخطوط ·

(6) العبارة التى زادها المحقق للنص غير محققة لمراد المؤلف ولا هى مقتبسة من معهود تعابيره فى سائر المقدمة · مع الملاحظة بأن الكلمة هنا يجب أن تكون مصدرا مثلما هو الاستعمال فى بقية المقدمة بعد كل الافعال المسبوقة باذا الظرفية · واذا صح أن بالنص بياضا فى هذا الموضع ، فالكلمة الانسب لسده هى « استفراغ » أو « اسهال » · ويؤكد ذلك استعمال المؤلف لأحد هذين اللفظين بعد قليل ·

(7) أخطأ المحقق هنا فى جعل الفعل يعود على المخاطب ، فجميع أفعال المضارعة فى هذا النص تعود كلها على ضمير الغائب ·

(8) وهو اللوح (قمد = 144) وعنوانه « فى الادوية المسهلة للصفراء » بالصفحة 113 ـ 114 ·

(9) وهو بالسطر الرابع من هذا اللوح ·

(10) والدليل على ذلك أن التمر الهندى لا يوجد فى اللوح الخاص بالادوية « التى تلين الصدر والحلق وتنفع من السعال » وهو اللوح الرابع والاربعون ص 50 وما بعدها · ويمكن هنا التساؤل عما اذا كان المؤلف قد وضع فى هذه الرسالة طريقة لتمييز مضار الادوية من منافعها أم يعول على ما للطبيب من معرفة ضرورية بذلك ·

نه الى الترنجين فيجده **أيضا**
ىعيفا وفعله لا يبلغ قدر الحاجة الى
ستفراغ الخلط فيعدل عنه الى
لهليلج الاصفر فيجد انه لا يجوز
ستعماله قبل النضج لما فيه من التخشين
لأحشاء فيعدل عنه الى الصبر
يجده مضرا بالحبالى فيعدل عنه الى
راب الورد فلا يكون لحاضرا
يعدل عنه الى الخيار شنبر **فيجده**
وافقا لغرضه فيستعمله وعلى هذا
قياس يجرى نظيره فى جميع الادوية
لستعملة فى معالجة الامراض ، وأيضا
متى أراد تركيب دواء من الادوية

عنه الى **الترنجين** (11) . فيجده أيضا ضعيفا وفعله لا يبلغ قدر الحاجة الى استفراغ الخلط ، **فيعدل عنه الى الهليلج الاصفر** (12) ، فيجد أنه لا يجوز استعماله قبل النضج ، لما فيه من التخشين للأحشاء (13) فيعدل عنه الى **الصبر** (14) ، فيجده مضرا بالحبالى ، فيعدل عنه الى **شراب الورد** (15) ، فلا يكون حاضرا (16) ، فيعدل عنه الى **الخيار شنبر** (17) ، فيجده موافقا لغرضه ، فيستعمله · وعلى هذا القياس يجرى نظيره فى جميع الادوية المستعملة فى معالجة الامراض ·

وأيضا فمتى أراد تركيب (18) دواء من الادوية

---

(11) الترنجين مذكور بعد التمر الهندى ، مما يدل على مشابهته اياه فى القوة ·

(12) الهليلج الاصفر فى رتبة أضعف من الترنجين لانه يأتى فى رتبة ثانية بعد تمر الهندى فى هذا اللوح ·

(13) يجد ذلك باللوح الخاص بـ « الادوية التى تقوى المعدة وتخشنها وتنفع جعها » وهو اللوح التاسع والاربعون ، ص 57 ، وقد أخطأ المحقق حيث صحح فى النص تخشنها» وهى صحيحة بـ «تسخنها» وهى غلط · لان المقصود تقوية المعدة، أى تخشينها ، الدليل على ذلك عبارة المؤلف فى المقدمة « تخشين الاحشاء » ·

(14) الصبر موجود فى رتبة الهليلج الاصفر ·

(15) الورد موجود فى الرتبة الثالثة بهذا اللوح ، أى قبل رتبة الصبر وقبل رتبة تمر الهندى والترنجين معا ·

(16) أى اذا لم يجده أو لم يمكن استحضاره فانه يعدل عنه الى الخيار شنبر ·

(17) الخيار شنبر والتمر الهندى فى رتبة واحدة بهذا اللوح · ويبدو أن هذا المعنى ىض على المحقق فترك النص غامضا ودون تعليق ·

(18) المقصود هنا ، بتعبيرنا الحديث ، « استعمال » ، ونجد التعبير بـ « تركيب » داولا بهذا المعنى فى العامية ·

فينظر الى الغرض المطلوب والمعنى المقصود ويلتمس لوحه فيجد فيه أدوية كثيرة منها حارة ومنها باردة ومنها رطبة ومنها يابسة ومنها معتدلة ومنها قوية ومنها ضعيفة الفعل ومنها مرة بشعة ومنها سهلة الوجود ومنها عزيزة الوجود فيتعين اختياره بما يكون صالحا لقصده موافقا لغرضه من جميع الجهات فيجده فيكون موافقا • مثلا اذا أراد تركيب دواء مفرح فيطلب اللوح الثامن والاربعين (I) وهو لوح الادوية المفرحة فيجد فيه أدوية كثيرة مختلفة القوى والأفعال فيقصد منها الباردة ان كانت مراده فيصادف فيها الصندل والطباشير والأملح والكافور واللؤلؤ والبد والكهرباء وغيرها فيجد منها ما يشكل غرضه ويوافق مقصوده وكذلك يفعل فى غيرها •	فينظر الى الغرض المطلوب والمعنى المقصود ، ويلتمس لوحه ، فيجد فيه أدوية كثيرة منها : حار ومنها باردة ، ومنها رطبة ، ومنها يابسة ، ومن معتدلة ، ومنها قوية ، ومنها ضعيفة الفعل ، ومنها مرة شنعة ، ومنها سهلة الوجود ، ومنها عزيزة الوجود ؛ فيتعين اختياره بما يكون صالحا لقصده موافقا لغرضه من جميع الجهات ، فيجده فيكون موافقا • مثلا اذا أراد تركيب دواء مفرح (I9) ، فيطلب اللوح الثا والاربعون (20) وهو لوح الادوية المفرجة (2I) فيجد فيه أدوية كثيرة مختلفة القوى والافعال ، فيقصد منها الباردة ان كانت مراده ، فيصادف فيها **الصندل والطباشير والأملج والكافور واللؤلؤ والبد** (22) **والكهربا** وغيرها . فيجد منها ما يشاكل غرضه ويوافق مقصوده ، وكذلك يفعل فى غيرها •

(I) الأربعـون •

(I9) والصحيح ما أثبتناه ، وقد يكون هكذا بالاصل • لان المقصود ذهاب الوحشة ، وسيتبين ذلك من عبارة المؤلف فيما بعد ، ومن عنوان اللوح الخاص بذلك •

(20) ما فى الاصل صحيح ، والمحقق خطأه لانه لـــم يلتفت الى أن الفعل قبله مبنى للمجهـــول •

(2I) وعنوان هذا اللوح : « فى الادوية التى تنفع من الخفقان ويسر النفس وتقوى القلب وتفرجه وتذهب الوحشة » بالصفحة 55 •

(22) فى اللوح المشار اليه ، أى اللوح الثامن والاربعون كلمة « البد » ساقطـــة من النص ، ولم ينتبه المحقق اليها ، مثل كثير غيرها ، ولذلك يخلو معجمه منها • وقد ينـــا ذلك سابقا فى موضوعه •

وايضا متى وجد آن دواء من الأدوية
عزيز أو كان متعذرا واحتاج الى دواء يقوم
مقامه ويكون بدلا منه فينظر الى القوة
التى كانت يتبعها فى ذلك الدواء او
الفعل المقصود منه فيلتمس اللوح الخاص
فيجد فيه أدوية كثيرة شبيهة فى ذلك
الفعل ومشاكلة فى المعنى فيخلق منها
ما يحتاج له والاشبه والاقرب الى فعله
فيكون للقلب فينظر فى لوحه
فيجد فيه المرجان وهو مقارب له فى ذلك الفعل
فيجده بدلا منه عوضا عنه وكذلك ان كان
غرضه منه قطع نفث الدم فيطلب لوحه

وأيضا ، متى وجد آن دواء من الادوية
عزيز ، أو كان متعذرا واحتاج الى دواء يقوم
مقامه ويكون بدلا منه فينظر الى القوة
التى كان يتبعها ذلك الدواء (23) والى
الفعل المقصود منه . فيلتمس اللوح الخاص ،
فيجد فيه أدوية كثيرة شبيهة فى ذلك
الفعل ومشاكلة في القوى (24) فيستخلص (25) منها
ما ينتج له الاشبه والاقرب الى فعله ؛
فيكون (اللؤلؤ) (26) للقلب ، فينظر في لوحه (27)،
فيجد فيه المرجان . وهو مقارب له فى ذلك الفعل
فيجده بدلا منه وعوضا عنه ؛ وكذلك ان كان
غرضه منه (28) قطع نفث الدم ، فيطلب لوحه (29)

---

(23) يراجع المخطوط للتأكد من رسم هذه المجلة ، لان العبارة لا تكون صحيحة الا على أحد وجهين ، اما « فينظر الى القوة التى يتبعها ذلك الـــدواء » واما : « ٠٠ التى كان يبتغيها من ذلك الدواء » ٠

(24) أو « القوة » ٠ وما أثبته المحقق لا يتماشى مع المعنى المقصود ، اذ لا معنى لكلمة « المعنى » هنا ٠

(25) لا معنى هنا لعبارة « فيخلق » التى أثبتها المحقق ٠ واذا صح أن النص لا يسمح الا بهذه القراءة فيجب تصحيحها بـ « فيستخلص » لانه المقصود فى هذا السياق ٠ ومع ذلك فهو الفعل المستعمل من قبل المؤلف فى اول المقدمة ٠

(26) ظنى أن السياق هنا يحتمل كلمة ساقطة لوجود الضمير العائد عليها فى قولـه بعد قليل : « ٠٠ وهو المقارب له » ٠ وهذه لكلمة قد لا تكون غير مفردة واحـــدة هى « اللؤلؤ » ٠ وانظر التعليق رقم 31 ٠

(27) اللوح الثامن والاربعون ، ص 55 وما بعده ٠ واللؤلؤ موجود فى السطـــر الثالث قبل الاخير من اللوح ٠

(28) يقصد اللؤلؤ ٠ راجع التعليق رقم 26 سابقا ٠

(29) اللوح السابع والاربعون ، ص 53 وما بعدها ٠

فيصادف فيه الكهربا وهو مشاكل له فيجده عوضا عنه وكذلك ان كان غرضه ان يجلو بياض العين فيطلب لوحه فيستعين فيه بالعقيق وهو مشابه (2) له فيجده بدلا له وعلى هذا الوجه يصح ابدال الادوية على الحقيقة ·

وهذه هى صفة الالواح المذكورة ·

فيصادف فيه الكهربا وهو مشاكل له ، فيجده عوضا عنه ، وكذلك ان كان غرضه **أن يجلو** بياض العين ، فيطلب لوحه (30) ، **فيستعين فيه** بالعقيق وهو مشابه له (31) ، فيجده بدلا له · وعلى هذا الوجه **يصح** ابدال الادوية ع الحقيقة ·

وهذه هى صفة الالواح المذكورة :

★ ★ ★

والى هنا تنتهى مقدمة المؤلف · وقد مهد فى أولها بالتعريف بموضوع رسالته والغاية منها ثم وضح كيفية الاستفادة منها ·

ولا نحتاج هنا الى شرح عبارته التى تتحدث عن ذلك وانما الى تسطيرها فقط ، فهو يقول انه رتب فى هذه الرسالة « **الادوية المفردة ألواحا** » وكل لوح الادوية فيه مرتبة « **بحسب قواها وأفعالها ومنافعها** » · وهذه الالواح كلها « **متعلقة بالاعضاء والامراض والاخلاط** » · ولذلك فهى مرتبة فى الرسالة بحسب كونها ألواحا متعلقة بالاعضاء كالرأس والعين والأذن (عضوا عضوا من أعلى الجسم الى أسفله بالترتيب) أو بالامراض كالدماميل والسموم والبرص ·· أو بالاخلاق كالبلغم والسوداء ·

والغرض من هذا الترتيب الذى تقوم عليه أصلا هذه الرسالة ، هو أن تخدم الغاية التى صنفت من أجلها ، والغاية من ترتيب الالواح هى أن « تكون للطبيب العارف تذكرة » · وكلمة « تذكرة » كلمة مهمة جدا فى مقدمة المؤلف ، لانها وصف دقيق لهذا النوع من التصنيف فى الطب · فهى عبارة عن « مذكرة » أو كما يقال بالفرنسية Mémento أو Aide mémoire

(2) خ : مشابهه

(30) اللوح السادس عشر ، ص 32 وما بعدها ·

(31) يقصد أن العقيق مشابه للؤلؤ · ومما يؤكد أن الضمير فى « له » يعود الى اللؤلؤ ، وجود اللؤلؤ بعد العقيق مباشرة فى اللوح المذكور · وفى هذا ما يؤكد ملاحظتنا فى التعليق رقم 26 ·

وأورد المؤلف فى كل لوح « **أدوية كثيرة مختلفة الذات متشابهة القوى فى الافعال**» أى متشابهة فى قوة تأثيرها ·

وبين المؤلف أن الغاية من وجود « أدوية كثيرة مختلفة الذات متشابهة القوى فى الافعال » فى كل لوح خاص بمرض معين ، هو أن يجد الطبيب « **جميع الادوية النافعة منه** » حتى يختار من بينها ما أراد ، اذ « **منها حارة ومنها باردة ، ومنها يابسة ، ومنهـا معتدلة ، ومنها قوية ، ومنها ضعيفة الفعل ، ومنها مرة بشعة** » و « **منها سهلة الوجود ومنها عزيزة الوجود** » ، أى أن الاختيار يرتكز على ثلاث نواح ، وهى أولا : نوعية الدواء ، ثانيا : درجته فى القوة أو الضعف ، ثالثا : وجوده أو تعذر وجوده · ويضرب المؤلف لكل حالة مثالا من لوح معين ·

ولكل من هذه النواحى أهميتها فى الاختيار لكن الناحية الاولى ، وهى نوعية الدواء ، أهم ومن هنا تقديمها فى الذكر · ويقوم الاختيار فى هذه الحالة على معادلة صعبة بين الدواء وبين المنفعة المقصودة منه ، اذ هناك الدواء « **الذى تصحبه منفعة أخرى أو مضرة** » · وهذا أمر راجع الى تقدير الطبيب ومعرفته الواسعة بالادوية والامـراض ·

ومن هنا نستطيع أن نخرج بملاحظة أساسية ، وهى أن هذه الرسالة للاستعمال الخاص بالاطباء ، أو اذا استعرنا عبارة المؤلف فى أول المقدمة ، قلنا هى رسالة « **للطبيب العـارف** » ·

وفى ضوء هذه المقدمة كان بامكان المحقق أن يحدد الفهارس التى تحتاج اليها الرسالة · وأقل ما تحتاج اليه من ذلك ثلاثة فهارس : واحد به عناوين الالواح كما وردت فى الرسالة · وثان به أسمـاء الامراض والاعراض والاخلاط مرتبة هجائيا ، وثالث مرتب هجائيا كذلك فيه أسماء الادوية والعقاقير · يضاف الى ذلك معجم اصطلاحى لمفردات الرسالة مع شرح كل مفردة كلما أمكن وذكر مصدرها اللغوى ان تحقق ومقابلها ان وجد باللغات الاجنبية · ويمكن أن يكون هذا المعجم شاملا لجميع ما فى الرسالـة من الالفاظ الاصطلاحيـة ، أو يقسم ذلك الى ثلاثة معاجم : معجم اصطلاحى للادوية ، ومعجم للامراض ومعجم لتركيب الدواء ·

وهذا المعجم الاخير لتركيب الادوية ، أى كيفية استعمال الدواء ، يجد له مثل هذه الالفاظ المتكررة بكثرة فى الرسالة : شرابا ، شما ، أكلا ، استنشاقا ، طلاء ، مضغا ، تعليقا ، دهنا ، اكتحـــالا ، عصـــارة ، بخورا ، تنطيلا ، نطوعـا ، سعوطا ، غرغرة ، ذرورا ... الـخ .

★ ★ ★

وأخيرا ، فهذا الكتاب فى تحقيق الرسالة اللوحية فى الادوية المفردة المنسوبـــة لابن سينا هو الحلقة الثالثة فى سلسلة منشورات قسم الدراسات الاسلامية بمركز البحوث التابع للجامعة التونسية . وكما نذكر فقـد صـــدر فى احدى حلقات هذه السلسلة كتاب مقامع الصلبان لابن عبد الحق الخزرجى الذى خصصته بمقال نقدى . (1)

ومن نظام هذا القسم ومن تراتيب اعداد البحوث والدراسات به أن يخضع كل عمل من أعمال أعضائه من الاساتذة الجامعيين الذين هم من الباحثين المشاركين فيه الى عملية تقييم قبل أن تأذن اللجنة الاستشارية بالمركز بالموافقة عليه للمكافأة والنشر .

ولا تخلو عملية التقييم هذه من مشاكل وصعوبات ، ولم يمكن الى حد الآن تجاوزها أو التغلب على مشاكلها وصعوباتهـــا . ويبدو أن ذلك يحتاج الى وقت أطول ريثمـــا تتوطد تقاليد البحث العلمى عندنا وتكون للنقد حرمته .

---

(1) نشر بـ «الاصالة» عدد 29/30 محرم ـ صفر 1396هـ، جانفى ـ فيفرى 1976 .

الطريقة العلمية عند ابن طفيل

د. مدني صالح
استاذ سابق بكلية الآداب
جامعة الجزائر

لقد ترك لنا ابن طفيل المتوفى في مدينة مراكش عام 1185 م ، وصفا منهجيا دقيقا لطريقة علمية أصيلة من الطراز الاول ، وفريدة منقطعة القرين عبر تاريخ الفلسفة كله حتى بداية طلائع الفكر الفلسفي الحديث واستقامته فتكامل مناهج الاستقراء وطرائق العلم الصحيح عند اساطين منهم دافنشي (1452 ـ 1519) وكوبرنيكس (1473 ـ 1543) وفيفس (1492 ـ 1540) وكبلر (1571 ـ 1630) وفرنسيس بيكون (1561 ـ 1626) وغاليلو (1564 ـ 1642) وآخرون تستظل هذه الحضارة لهم تحت قبة رد الفضل بالشكر وقبة العرفان بالجميل الى يوم الدين ...

لكن هذا الجانب العلمي من فلسفة ابن طفيل ظل مهملا لم يستوقف احدا من العرب ، ولم يقف عنده من المستعربين احد ، رغم أن كتاب « حي بن يقظان » قد نشر

وترجم الى اللغة اللاتينية (1) والى اللغة الانجليزية مرات (2) ، وصار متداولا بين الناس خلال فترة عز تكامل المنهج العلمى ولهفة المنهجيين من علماء وفلاسفـــة الى مزيد مما يضيء درب الطريقة الاستقرائية ومناهج العلم الصحيح ، بعيدا عن دروب الفلسفة وشمولية سلطان مناهجها التأملية ·

ولم تكن « الطريقة العلمية » بمفهومها الحديث فرعا من فروع المعرفة مستقـــلا عن الفلسفة وقائما بداته فى زمن ابن طفيل ، وذلك لسبب بسيط معلوم عنـــد

---

1 ــ تحقيق وترجمة بوكوك (ادوارد) Pocock (Edward) بعنوان :

PHILOSOPHUS AUTODIDACTUS, sive epistola Abi Jaafar Ebn Tophail de Hai Ebn Yockdan, in qua ostenditur quomodo ex inferiorum contemplatione ad superéirum notitiam ratio humana ascendere possit, ex Arabica in linguam Latinamversa ab Eduardo Pocockio, Oxford, 1700.

2 ــ ترجمة جورج كيث George Kieth بعنوان : ــ

An account of the Oriental philosophy shewing the wisdom of some renowned men of the East ; and particularly, the profound wisdom of Hai Ebn Yockdan both in natural and devine thigs ; which he attained withohut all converse with nan (while he lived in an island a solitary life, remote from all men from his infancy, till the arrived at such perfections).

Writ in Arabick, by Abi Jaafar Ibn Tophail ; and out of the Arabick translated into Latine by Edward Pocock... ; and now faithfully out of his Latine, translated in o English : For a General Service.

وترجمة جورج اشويل George Ashwell بهذا العنوان :

The History of Hai Ebn Yockdan the Indian prince or the sef taught philosopher, Written originally in the Arabick tongue, by Abi Jaafar Ebn Tophail, a philosopher by profession, and a Mahometan by Religion. Wherein demonstrated, by what steps and dedrees humane Reason, improuved by diligent observation and experience, may arrive at the knoukdge of natural things and from thence to the discouerg of supernaturals ; more especially of God and the concernments of the Word, London 1686.

وترجمة سيمون أوكلى Simon Ockley بهذا العنوان :

The Improuement of Human Reason, exhibited in the life Hai Ebn Yockdan... in which is demonstrated by cuhat methods one may. by mere light of nature attain he knowledge of things natural and supernatural, more particularly the knowledge of God, and affairs of mothes life, London, 1708.

الجميع ، وهو ان العلم ذاته لم يكن فى ذلك الوقت قد استقل عن الفلسفة بمنهج لكى ينفرد طبقا لهذا الاستقلال بطريقة ويختص بموضوع بعيدا عن موضوعات الفلسفة التقليدية ومناهجها التأملية ٠٠ وبناء على هذه الحقيقة لم تكن الطريقة العلمية لتعنى لابن طفيل أكثر من قضية فلسفية ضمن اطار القضايا الفلسفية الاخرى فجاءت متداخلة منصهرة فى نظام فلسفى شامل ، وهذا فى نظرنا أحد الاسباب الكثيرة التى ساهمت فى عدم انتباه أحد من الباحثين الى أهميتها كفقرة خطيرة فى تاريخ مناهج الاستقراء ومناهج البحث العلمى ٠

أضف الى هذا ان المصطلح « منهج أو مناهج البحثالعلمى » مثل مصطلح « الطريقة العلمية » لم يكن معروفا عند ابن طفيل ولم يكن متداولا ضمن اللغة الفلسفية عند المسلمين ٠٠ وانه حسب تقديرنا التقريبى لم يدخل اللغة العربية قبل بداية القرن العشرين وانه قد دخلها مترجما من اللغات الاوروبية ومن اللغتين الانجليزية والفرنسية على وجه الخصوص ٠٠ وقد ساهم غياب هذا المصطلح من قاموس مفردات الفلسفة الاسلامية مساهمة لا يستهان بها مع جملة الاسباب التى أدت الى مقابلة الطريقة العلمية عند ابن طفيل باهمال لا نحسب انها جديرة به بحالة من أحوال الاخلاص لتاريخ الفلسفة والعلم على أقل تقدير ٠

لكن غياب هذا المصطلح لم يكن ليساهم وحده فى هذا الاهمال لو لم يكن هناك عيب منهجى فى دراسة الفلسفة الاسلامية وهو الحرفية فى الفهم ، والوقوف عند العناوين البارزة ، والحديث عن الفلسفة الاسلامية بالجملة وبأسلوب خطابى جارف لا يمت الى التحليل والمقارنة وحصافة النقد بسبب من الاسباب ٠

واعترف ـ كواحد قضى مدة ربع قرن فى دراسة وتدريس الفلسفة ـ اعترافا قد لا يكون من أصول المجاملة والتجمل الحرفى بشىء لكنه الحقيقة الصارخة التى لم تعد سر مهنة مستور بقدر ما هى عاهة مفضوحة لدى الجميع طلبة واساتذة وغرباء عن الفريقين من قراء هذا الكتاب أو ذاك فلا يجدون غير ما يجد الاساتذة والطلبة من حديث مسهب جارف عن شىء غير مفهوم ٠٠٠ والحقيقة هى اننا لم نحترم

الفلسفة بعد ولم ندرس الفلسفة الاسلامية قط غير دراسة هامشية قل أن يعتز بها مدرس أو يثق بها نفر ـ غير المستسلمين لكل ما يقال ـ من الطلاب ٠

ولكل هذا اسباب جلية قد أعود الى تفصيلها فى غير هذا المقال لكنى أريد وقفة تطبيقية عنـــد « الحرفية » كعاهة منهجيـــة فى دراسة محتويات متـــون الفلسفة الاسلامية ٠٠ وذلك لان هذه الحرفية فى الفهم والاستيعاب ساهمت فى اهمـــال الدارسين لكثير من الافكار الخطيرة التى لم ترد الينا بصيغة معاصرة أو تحت عنوان جهير ٠٠٠ وهذا مما جرد الفلسفة الاسلامية من صفتها الكلاسيكية وعزلها عن تاريخ الفلسفة العام فخسر هذا التاريخ كثيرا من عناصر التكامل الشمولى بهذا العزل الذى جاء نتيجة حتمية لبقاء الفلسفة الاسلامية حبيسة الاحكام الاستشراقية الجارفـــة وحبيسة وقوف العرب عند العناوين الفهرسية بأسلوب خطابى معاد ٠

واليك تطبيقا عمليا لاسترداد الطريقة العلمية عند ابن طفيل من ضياع الاهمال تحت راية الحرفية فى الفهم وملاحقة العناوين الجهيرة فى البحث :

لنفرض ان مثل الفكرة هو مثل الجسم وان مثل العبارة التى تنقل الفكرة هـــو مثل الثوب ٠

ولنقف بعد هذا الفرض عند حقيقتين :

الاولى : ان الازياء تتبدل من وقت الى وقت وهذا ما لا يحصل للاجسام ٠

والثانية : أن الاجسام لا تعرف بثيابها عادة حين اننا نعرف الافكار بعباراتهـا التى دعنا نطلق عليها اسم الثياب الحرفية زيادة فى طلب الوضوح ٠

ودعنا اننا نفترض اننا اخفقنا فى معرفة شخص ما بسبب من عرى أو من تنكر فى زى قديم ٠

ودعنا نسأل بعد اعتبار هذا الافتراض : هل ان اخفاقنا فى التعرف عـلى هذا الشخص يؤثر حقيقة على وجوده وصفاته وهويته وسائر ما يختص به من صفات ؟ ـ حتما لا ٠٠٠ يأتيك الجواب وذلك لان وجود هذا الشخص مثل صفاته وســـائر قدراته الفاعلية غير متعلق لا بزى مما يرتدى من ثياب ولا بمدى معرفتنا له ٠٠٠ وذلك لان وجوده وصفاته وملكاته مستقلة عن ما قد يرتدى من ازياء وعن معرفتنا له ٠٠٠

وهذه بديهية .... لكن وليكن فمثل هذا الشخص سيظل غير معلوم لنا حتى نتعرف على هويته تشخيصا .

وهذا هو بالضبط مثل الطريقة العلمية عند ابن طفيل التى ظلت غير مشخصة ومن ثم غير معلومة لدى جميع الذين درسوه بما فيهم جورج سارطول الذى وقف عند وقفه ذات علاقة بالموضوع فى كتابه تاريخ العلم (3) ... وذلك لان ابن طفيل لم يقدم طريقته العلمية الى القراء بحلة لفظية جهيرة وبعنوان « الطريقة العلمية » لكن هذه الحلة اللفظية أو هذه العبارة أو هذا المصطلح لم يكن متداولا فى زمن ابن طفيل وعليه فلم يجد ابن طفيل غير ان يتركها فكرة عارية بلا تسمية وان علينا ان نلقى عليها حلة لفظية تجعلها مشخصة معروفة الهوية فمعلومة وهو السبيل الوحيد لاستبقاء القيمة الكلاسيكية لأى نص يرقى الى المستوى الكلاسيكى ودخول التاريخ العام للحضارة عبر أسوار المحلية .

أما الآن فدعنا نرتب هذه الطريقة فى مجموعة قواعد مستلة من التجارب التى أجراها حى بن يقظان منهجيا :

بدأ حى بن يقظان التجربة على الغزالة الميتة وهو فى السابعة من عمره ولم يصل الى نتيجة ايجابية الا عند مابلغ سن الواحدة والعشرين .

ونلاحظ أول ما نلاحظ ان حى قد بدأ اجراء التجربة العلمية فى وقت مبكر لا يسمح له باجرائها فى عالم الواقع ... أو قل ان شئت انه قد بدأ اجراء التجربة العلمية فى مرحلة روائية متخيلة لا تطابق مرحلة طبيعية فى عالم الواقع لاجراء مثل هذه التجربة ... وهذه لاشك هفوة فنية فى بناء الرواية ... لكن دعنا نفترض ان ابن طفيل كان عارفا بهذه الهفوة من خلال معرفته ان حى قد بدأ تجاربه العلمية فى مرحلة روائية مبكرة ... وليس من هذا الافتراض بد اذ لا يمكن ان يقصد

3 ــ يذكر جورج سارطون ان كتاب حى بن يقظان قد احتوى على تخطيط لتصنيف العلوم وعلى مناقشة التولد الذاتى وعلى معلومات علمية متفرقة ، **ولم ينتبه سارطون الى** الطريقة العلمية عند ابن طفيل : انظر

An Introductio to the Histors of science (Boltimore 1927 - 31) , 2. i. p. 354.

ابن طفيل بسن السابعة من العمر سنا واقعية لبداية اجراء تجربة علمية بالغـــة التعقيـــد .

وهذا الافتراض يستدرجنا الى أن نسأل : ــ لماذا ، اذن ، دفع المؤلف هذا الطفل الى لجة اجراء هذه التجارب قبل بلوغ السن الملائمة لاجرائها ؟ اما كان قادرا ــ لـو أراد ــ على ان يشغله بكثير من الفعاليات الملائمة لطفل فى السابعة من عمره ومطابقة لما قد يشغل ذهن طفل بمثل هذا العمر فى عالم الحقيقة ؟؟ .

أما كان بامكان ابن طفيل ــ لو شاء ــ أن يؤجل بداية اجراء هـــذه التجارب العلمية الى أن يبلغ حى من العمر مبلغا يطابـــق العمر الملائـــم لاجرائها فى عالم الواقـــع ؟؟ .

نعم تأتيك الاجابة واثقة فى الحالين ... وان ابن طفيل قد اشغل حى باجـــراء هذه التجارب العلمية فى هذا العمر الروائى المبكر الغير مطابق للسن الملائمة فى عالم الواقع عامدا وانه اراد تقديم منهجه فى البحث العلمى بصرف النظر عـــن مستلزمات البناء الروائى ومتطلبات كتابة القصة التى لم تكن لتهمه بقدر مستلزمات ومتطلبات البناء الفلسفى وذلك لكى يؤكد ان الفلسفة عندما تبدأ بالملاحظة والتجريب وفق قواعد خاصة ولا تبدأ ضرورة بالمنطق .

وبكلمة أخرى نجد ان ابن طفيل قد فتح بداية التفلسف عند حى بسلسلـــة تجارب علمية لكى يوضح نظريته فى المعرفة ... تلك النظرية التى قررت الشكل النهائى لنظامه الفلسفى القائم جوهريا على مبادىء تجريبية مستمدة من منطق تلك الظواهر التى اعتمدها حى موضوعا لاجراء التجارب ... والا فاشغال حى بهـــذه التجارب المعقدة مثل هذه السن المبكرة لم يكن خطأ روائيـــا لا بد منه أو ضربـــة لازب .

وقد ميز ابن طفيل الظاهرة عن الحالة التى تتجلى فيها الظاهرة وميز هتين عـــن الظروف المحيطة بهما .

وأول ظاهرة استوقفت حي هى ظاهرة الموت وقد بحث هذه الظاهرة كما حدثت فى حالة موت مرضعته الغزالة ••• رغم انه قد لاحظ قبل موت أمه المرضعة حالات موت مماثلة لم يقف عند واحدة منها وقفة بحث •

ولم يعرف حي فى البداية ماذا حصل للغزالة (أمه المرضعة) ••• وعليه فالظاهرة المتجلية فى الحالة قيد الملاحظة • لم تكن مشخصة كظاهرة موت ••• لكنه لاحظ أول ما لاحظ ان الحالة الجديدة (الغزالة ميتة) تختلف عن الحالة السابقة (الغزالة حية) ••• وكانت أولى خطوات البحث عنده محاولة معرفة الظروف الجديدة التى تختلف وتتشابه بهما حالتى الظاهرة ••• وكان هذا البحث خطوة ملائمة لتطبيق طريقة الموافقة وطريقة الاختلاف وطريقة الجمع بين الطريقتين : الطرق التى طبقها حي باحساس منهجى من الطراز الاول : ففى بحثه عن ظروف الحالة التى حدثت فيها الظاهر (الغزالة ميتة) : ـ ناداها ـ أولا ـ بكل الاصوات التى كانت تستجيب لها وتجيب ••• لكنها لم تجب •

وحور مغيرا صوته ـ ثانيا ـ مستنفدا كل امكانات التحوير ••• لكن كل هذا لم يحرك فيها ساكنا ولم تجب ••• فأخذ يمعن النظر فى عينيها وأذنيها ••• لكنه لم يجد فيهما عطبا منظورا فراح يفحص بنفس الاسلوب جميع أعضائها لكنه لم يجد فيها عطبا أو نقصا واشتدت به الرغبة الى معرفة الجزء المعطوب عله بعد ان يجده يزيل عنه العطب فتعود الغزالة الى حالتها الاولى ••• لكنه أخفق فتحول بعد هذا الاخفاق الى حالة لم تحدث بها الظاهرة ••• ولكى يفعل مثل هذا بدأ البحث على نفسه فوجد :

1 ـ انه حين يغمض عينيه أو يضع أمامها حاجزا فانه لا يرى شيئا حتى يزيل العائق •

2 ـ وانه حين يضع اصابعه فى أذنيه فانه لا يسمع شيئا حتى يخرجهما •

3 ـ وانه حين يسد منخريه فانه لا يشم شيئا حتى يفتحهما•••

واستنتج من كل هذا ان جميع حواسه وملكاته الادراكية عرضة للعطب الذى بزواله ترجع الى اداء وظفتها حسب المعتاد •

وبعد ان فحص جميع اعضاء وحواس الغزالة الخارجية فلم يجد بها نقصا أو عطبا مرئيا ادرك حينئذ ان حالة سكونها العام ليس خاصا بواحد من هذه الاعضاء الظاهرة بل هو يشملها جميعا بسبب عطب عضو غير مرئي خفي داخل الجسم ٠

بهذا تستطيع ان تقول ان حي قد بحث حالتين حدثت الظاهرة في أولهما والتي هي حالة الغزالة الميتة ولم تحدث في الثانية والتي هي حالته هو مقارنة بحالة الغزالة وانه قد وجد نتيجة البحث ان الحالتين تشتركان بجميع الظروف غير واحد وهو الظرف الذي حدث في الاول لم يحدث في الثانية ٠٠٠ اذن فيجب ان يكون هذا الظرف الذي تختلف به الحالتان سببا للظاهرة ٠٠٠ وهكذا يكون ابن طفيل قد استبق تطبيق طريقة الاختلاف التي نجد صيغتها عند جون ستيوارت مل على نحو ما يلي :

« اذا اشتركت حالة تحدث فيها الظاهرة مع حالة لا تحدث فيها الظاهرة بجميع الظروف غير ظرف واحد يوجد في الاولى ولا يوجد في الثانية وتختلف به وحده الحالتان فيجب أن يكون هذا الظرف هو السبب أو جزءا غير نفسك عن سبب وعلة الظاهرة » (4) ٠٠٠ وهذه واحدة من القواعد الخمس التي تؤلف ما هو معروف لدينا باسم طريقة مل لانه هو الذي اعطاها صيغتها النهائية المتميزة ٠

ولما وصل حي الى هذه النتيجة اشتدت به الرغبة الى أن يجد هذا العضو لكي يزيل العطب منه فيعود الى سيرته الاولى ويعود الجسم كله الى ما كان عليه ٠٠٠ وهذا يرينا الغرض المباشر من تجارب حي فأين يجد هذا العضو ؟ ـ انه قد لاحظ حالات كثيرة مماثلة رغم انه لم يقف عند حالة منها وقفة باحث ٠٠٠ لكنه عرف من هذه الملاحظات انه لا توجد في أجسام الحيوانات غير ثلاثة تجاويف : في الجمجمة وفي الصدر وفي البطن ٠٠٠ اذن فيجب ان يكون هذا العضو في واحد من هذه التجاويف ٠

---

4 ـ انظر :
John Stuart Mill, A System of Logic (London, 1843). Book III, chap. VIII.

وعند هذه المرحلة من انهماك حى نلاحظ ان ابن طفيل لو لم يكن مهتما بالدرجة الاولى بعرض طريقته العلمية وطريقة البحث التجريبية لما اقلق حى بكل هذه المتاعب ليحصل على نتائج أولية والتى كان بامكانه لو أراد ان يسردها على هيأة حقـــائق بسيطة دون اللجوء الى وصف الطريقة التى اتبعها حى منهجيا خطوة خطوة .

ولو لم يكن ابن طفيل مهتما بعرض طريقته العلمية كجزء لا يتجزأ من فلسفته لأعفى حى من كل هذه المتاعب جملة وتفصيلا واشغله بمغامرات شبيهة بمغامرات روبنصن كروزو أو بتأملات شبيهة بتأملات ادرنيو حول عجائب المخلوقات كما فعل دانيال دوفو فى قصة روبنصن كروزو وكما فعل جراسيان فى قصة الكرتيكون ... لكن ابن طفيل لم يهتم بعناصر الاثارة واحداث المغامرات .

اضف الى هذا ان ابن طفيل كان من أكبر اطباء عصره الحقيقة التى تؤهله ان يذكر من الحقائق ما شاء باسلوب التقرير كما كان يفعل غيره دون اللجوء الى وصف الطريقة المتبعة بهذه الدقة .

فالطريقة العلمية فى قصة حى بن يقظان لم تكن اذن من وجهة ابن طفيل قضية عرضية عارضة فى رواية أو فقرة عابرة فى كتاب فلسفى وذلك لان استقصاء الطريقة العلمية ليس من مستلزمات الرواية وليس من متطلبات متون الفلسفة فى ذلك الوقت .

وعليه فلا أرانا الا على أساس وطيد حين نقرر ان ابن طفيل قد عرض طريقتــه العلمية عامدا خلال مرحلة من مراحل شخصية روائية وذلك لاحاطة القارىء علما بالطريقة العلمية التى اتبعها حى فقادته الى منطق مستمد من طبيعة سلوك الظواهر لكى تسيطر على فلسفته من بدايتها حتى النهاية ... وهذا يعنى ان طريقة ابن طفيل العلمية تشكل جزءا لا يتجزأ من نظامه الفلسفى العام ... وانها طريقة علمية بالمفهوم المعاصر وفق قاعدتنا : « ان أية قضية تخص الماضى بمفهوم معاصر فهى حتما تخص ذلك الماضى بذات التعبير المعاصر » .

ووفق مقلوب هذه القاعدة : ـ « اذا اخـــــتص مفهوم فى الماضى بذلك الماضى بواسطة تعبير أو تسمية خلاف عبارة أو تسمية أو ترك بلا اسم فهذا المفهوم يختص بالحاضر حال تشخيصه وانطباق الاسم المعاصر عليه » .

لكن الطريقة العلمية عند ابن طفيل مرت هملا هملا لم يقف عندها احد رغم انها اختصت بالماضى كمفهوم يستوفى كما رأينا جميع سمات الطريقة العلمية وينطبق عليها هذا المصطلح بمفهومه المعاصر عليه انطباق تسمية وتشخيص ... والا فماذا تسمى طريقة حى التى استعرضنا سمات تشخيصها غير اسم « الطريقة العلميـــة » وفق ابسط قواعد المنطق : اذا كانت ب ، حـ ، د ، هـ عناصر تشخيص وتعريف أ تعريف جمع ومنع فان كل ما تعرفه وتشخصه ب ، حـ ، ر ، هـ ، مثل هذا التعريف هـــو أ .

وبصورة بسيطـــة :

اذا كانت ب ، حـ ، د ، هـ = أ .

وكانت ب ، حـ ، د ، هـ ، مجموعة صفات تشخيص الطريقة العلمية فحينئذ تكون أ هى الطريقة العلمية .

لكن ابن طفيل اعطانا ب ، حـ ، د ، هـ = مفهوم .

فهذا المفهوم = أ ، لاشتراكه معها بأدوات التشخيص .

والآن ليس بخاف على احد ان الطريقة العلمية ومناهج البحث فى العلـــوم قد قطعت شوطا كبيرا وبلغت مرحلة تجاوزت المرحلة التى كان بامكانها ان تنتفع خلالها بطريقة ابن طفيل وبهذا تنحصر قيمة مناقشة اهمية الطريقة العلمية عند ابن طفيل ضمن حدود تاريخ تطور هذه الفكرة بعيدا عن فاعليتها الصريحة فى مناهج العلـوم وطرائق البحث العلمى المعاصرة اذ لا أحد يعرف ابن طفيل فى جامعات الغـــرب أوروبية وأميركية غير مستشرقين معزولين ضمن حدود دوائرهم الاستشراقية الشبيهة بكنائس مستسلمة أو جوامع متنصرة والبعيدة فى هذا وذاك كل البعد عن الاكاديمية الجامعية المخلصة والروح الجامعى الرصين ... وبهذا صار المستشرقون بحكم اعدادهم وعزلتهم الجامعية والثقافية أتعس من يحمل فكرة من العرب والمسلمين الى الغرب ... وانهم بحكم تعاستهم وعزلتهم الجامعية والثقافية وقلة ثقة الدوائر الاكاديمية بهـم قعدوا عاجزين عن ادخال عناصر الثقافة العربية الاسلامية الى مواقعها الملائمة فى

سجل الحضارة العام فظلت هذه الثقافة معزولة عن روح العصور المتلاحقة ضمن حدود الجوامع المتنصرة أو الكنائس المستسلمة تحت راية المتسترين وراء توزيع الشهادات بطريقة مخزية على الوافدين اليهم طلبا لانوار المعرفة من كل حدب وصوب من بلاد العرب والمسلمين ٠

لكن وليكن ! فلسنا بصدد عاهات المستشرقين الآن رغم أن لدينا قناطير وان شئت مزيدا نزيد فقد ورث عنهم العرب عيوبا منهجية فاضحة لا احسب انهم يخلصون من تبعاتها الا بانقلاب جذرى يخرجون به من مناهج واساليب تفكير المستشرقين الى منهج واسلوب تفكير عالم الحضارة القويم ٠٠٠ وكل هذا كلام يطول ! ٠٠ اذن فدعنا نقف بخطورة آراء ابن طفيل فى البحث العلمى عند حد اهميتها فى فهم فلسفته ٠٠٠ ولكى نوضح هذا دعنا نستأنف المناقشة متابعين حى فى تجاربه فانه بعد ان وصل الى فرضية ضرورة ان يكون هذا العضو الذى تحتاج اليه جميع الاعضاء وتعتمد عليه فى الصدد طلب مزيدا من دليل للتأكد من صحة هذه الفرضية ملاحظا انه يستطيع اعاقة عمل جميع اعضائه كاليدين والقدمين والاذنين والعينين والانف وانه يستطيع ان يعيش بدونهما ٠٠٠ لكنه لم يستطع تصور امكان العيش بغير العضو الذى فى صدره ولو رفة عين ٠٠٠ كما لاحظ مدى حرصه التلقائى على حماية هذا الموطن من صدره حين التعرض لخطر الاشتباك مع الحيوانات المفترسة ٠٠٠ وبهذا ايقن ان العضو المعطوب يستقر فى الصدر وقرر ان يجرى بحثا لكى يفحصه ٠

وعند هذه المرحلة يجب ان نلاحظ نقطتين الاولى : أن حى لم يقرر مكان العضو المعطوب فى الحيوان الميت الا بعد ان قارن الحالة بحالة أخرى هى حالته ٠

والثانية : انه لم يبدأ التجربة على الحيوان الميت قبل ان يطرح فرضية ويتأكد منها بخصوص المكان المحتمل لهذا العضو ٠

لكن حى توخى فرصة الانتفاع من الشك وشك فى صحة فرضيته وخاف ان هو اقدم على فتح الجثة بموجبها ان يسىء الى الحالة ٠

وعند هذه النقطة بدأ حى يسترجع الى ذهنه أكثر ما استطاع من الحالات المماثلة فلم يجد حالة رجعت بها الحيوانات الى ما كانت عليه بعد حلول هذه الظاهرة فيها ٠٠٠ فأقبل عند هذا الحد من بحثه على اجراء العملية ومواصلة التجربة وفق طريقة نعرفها الآن باسم الطريقة البيكونية نسبة الى فرنسيس بيكون ٠

خواطر نقدية حول
شعر المناسبات

د • الحبيب الجنحـــانى
استاذ فى الجامعة التونسية



هل يعيش الشعـر العربى اليـوم أزمة خانقـة ؟ ما هى رسالته بين التيارات الفكريـــة المتباينة التى تعيشها الثقافة المعاصرة ؟ ما هى الاسباب الكامنة وراء سيطرة تقاليد أدبية يرجع عهدها الى العصر الوسيط على زمرة من الشعراء المعاصرين ، وهى تقاليد تخلصت منها فنون الادب الاخرى ؟ ان مظاهر « أدب المعـــدة » تكاد تنحصر اليوم فى الشعر وأهله •

ونبادر بالاشارة الى أن الحديث هنا عن فئة معينة من الشعراء كى لا نظلـــم فئة أخرى تحمل مشعل رسالة هادفة فى انتاجها الشعرى ، فهى تعبر فى شعـــرها عن رؤية كونية شمولية ، أو تعبر . على الاقل ـ عن معانى انسانية خالدة جعلتهـــا تبلغ مستوى الشعراء العالميين ، وتحلق فى سماء أخرى لا تصل اليها شظيا أزمـــة الشعـــر •

اننا لا نهدف فى هذه الخواطر السريعة الى الاجابة عن هذه الاسئلة ، ولكننا أثرناها لما لها من صلة متينة بشعر المناسبات ، وهو لون من الشعر يموت بمرور المناسبـــة

التى نظم من أجلها فى أكثر الاحايين ، واذا اعتبرنا معايير الفكر العالمى المعاصر ، ورسالة الانتاج الادبى اليوم فانه يعد ـ دون ريب ـ أردأ ألوان الانتاج الادبى ، واسوأه ، مهما تفنن أصحابه فى صياغته ، وحاولوا أن يبرزوا صدقهم ، لانه لا يمت بسبب الى حياة الناس ومشاغلهم ، فحتى ذلك الادب التجارى الرخيص المنهمك فى موضوعات الجنس والمغامرات البوليسية يفوق شعر المدح قيمة لما له من علاقة بمشاغل عدد كبير من الناس ٠

اننا لا نحمل هذا الضرب من الانتاج الشعرى مسؤولية أزمة الشعر العربى اليوم، فأسبابها أشمل وأعمق ، وهى ـ فى نظرنا ـ مظهر من مظاهر أزمة الثقافة العربية المعاصرة عموما ٠ ولكن وفرة هذا اللون من الانتاج الشعرى ، وما يجد المتاجرون به من حظوة فى بعض الاوساط العربية جعل كثيرا من القراء يشعرون أن تبعة أزمة الشعر العربى المعاصر تقع على كاهل هذه الفئة من الشعراء ٠

ولا مناص من الاشارة فى هذا الصدد الى ظاهرة ايجابية تتمثل فى تقلص ظل شعر المناسبات فى كثير من الاقطار العربية ، فهو فى طريقه الى الانقراض ، وقد أصبحت المجلات الثقافية القيمة تربأ بنفسها عن نشر هذا اللون من الشعر ٠

ولكن بالرغم من مظهر التخلف هذا فى الادب العربى المعاصر فاننا لا ننظر الى رسالة الشعر نظرة تشاؤم ، فهنالك وعى عميق بهذا المشكل لدى عدد كبير من المثقفين العرب ، فقد قرأت أخيرا ملاحظات سريعة للاديب المغربى عبد الجبار السحيمى حول الشعر اليوم نورد منها بعض الفقرات لما تعكسه من نظرة الى الشعر والشعراء لدى فئات معينة فى المجتمع العربى ، كتب فى « العلم » المغربية يقول : (تفرس جيدا « نجوم » المجتمع الذين يأتمرون فى الحياة ويخططون لها ، انهم المساسرة بأشكال شتى من السمسرة ، وهم جميعا يعتبرون الشاعر « منشطا » على أكبر تقدير ، يخدر حواس الناس ٠ ويبعث فيهم هياجا وقتيا ينفع فى الحفلات ومهرجانات العرس والتأبين وحملات الانتخابات « العشائرية ») ، « شاعر ؟ هل رأيت هذه الصفة تأخذ أهمية ما فى جواز سفر الا بالتأكيد ، فالشاعر ـ فى رأى مجتمع مدينة السماسرة ـ عاطل ، أو دجال يتحايل على الكسب بلا جهد ، أو موهوب يستحق الرعاية وتوفير وظيفة مناسبة يقتات منها ٠٠ » هنالك شعراء يترصدون الفرص للارتماء على فتات مائدة

زيانية مدينة السماسرة ، وآخرون ينادون مع الاديب المغربى : « دعنى أمزق كل ورقة شعر لم تشتعل نارا تنسف كل جسور السماسرة الذين يتأمرون ، وتحرق كل مراكبهم ، وتتولى صدارة تخطيط مدينة نقية من فساد الوصوليين والانتهازيين والمتجرين بالقيم والانسان وبالشعارات .. » .

ونذكر هنا أمرين :

أولا ـ ان هذه الاحكام لا تخلو من التعميم ، ومن تأثير العوامل الذاتية ، فهى آراء تسيطر عليها الحسرة والتألم من حقيقة مرة : كيف لم يحدث مرة واحدة فى كل التاريخ ان جلس متنبى مكان كافور ؟

ثانيا ـ أنه لابد من التمييز فى شعر المناسبات بين المديح ، وهو لو من الشعر لا يهمنا لا من قريب ، ولا من بعيد ، وبين القصائد الشعرية التى تنظم بمناسبة وطنية، أو حدث تاريخى ، أو ثقافى ، فقد تعبر عن محتوى انسانى عميق انطلاقا من الحدث ، ولكن الارتباط به ، وبظروفه التاريخية ، يجعل القصيد فى أكثر الحالات متكلفا بفقدانه الصدق فى التعبير وبالتالى هزال الصورة الشعرية . ومهما تباينت الآراء حول شعر المناسبات فان هنالك فئة من الشعراء قادرة عليه ، مجيدة فيه ، وهنالك شعراء بعيدون كل البعد عن هذا اللون من الانتاج الشعرى ، وحين تجعلهم بعض المغريات ينظمون فى هذا الغرض الشعرى المعين يأتى انتاجهم فجا ركيكا يشكو الهزل فى المحتوى والصورة الشعرية، ولا يصدق القارىء أن القصيد الفلانى من انتاج ذلك الشاعر الذى كان يحلق فى عالم شعرى له مميزاته الخاصة حين كان حرا فى التعبير ، وفى انتقاء الصورة الشعرية ، ولكن لما فرض على نفسه قيودا تهافت ، وسقط شعره .

خطرت لنا هذه الملاحظات حول شعر المناسبات اثر قراءتنا لخبر عدم نجاح أى شاعر فى المسابقة الشعرية التى نظمت بمناسبة الاحتفال بمرور قرن على تاسيس مدرسة الصادقية التى أسسها خير الدين التونسى ، بالرغم من وفرة عدد المشاركين ، وبينهم شعراء أقدامهم راسخة فى الانتاج الشعرى ، لكن يبدو أنهم ليسوا من محترفى المناسبات ، فسقط شعرهم لما تهافتوا . ويا حبذا لو تنشر فى المستقبل القصائد التى لم تحرز على الجوائز خدمة لحركة النقد الشعرى .

وبعد قراءة هذا الخبر قرأنا قصيد الشاعر المعروف نور الدين صمود « عشرون شمعة » ، وقد أحرز على الجائزة الاولى فى مسابقة الاذاعة والتلفزة التونسية بمناسبة الذكرى العشرين لعيد الاستقلال ، وقد فوجئت شخصيا ؛ لانني وجدت نفسى أمام نفس شعرى ، وصورة شعرية لم أعهدهما فى شعر الاستاذ صمود ، فجاء النفس الشعرى قصيرا ، لاهثا ، وجاءت الصورة الشعرية فى بعض الابيات هزيلة مبتذلة ، وهكذا أبت « الشمعات » العشرون الا أن تنير خواطرنا حول شعر المناسبات ولا سيما بالنسبة للشعراء الذين لم يتعودوا بالقيود والحدود ·

ان هذا القصيد لا يمس أبدا من شاعرية صمود ، ولكنه جاء تأكيد لامرين :

أولا : أن لكل شاعر أصيل منهجه الشعرى الخاص ، فاذا حاول ـ لسبب ما ـ الخروج عليه فان انتاجه يأتى حاملا لسمة الاصطناع والافتعال ·

ثانيا : ان أدب المناسبات ، وان كانت ذات طابع عام ، يدخل فى باب « الالزام »، وهو بعيد كل البعد عن الالتزام الحر المعبر عن رسالة أدبية معينة ، ورؤية خاصة لشؤون الحياة ·

واليك بعض الابيات من قصيد « عشرون شمعة » (1) :

اللوحة الاولى :

فهتفنا فى الاعادى لا مناص	سيفنا فى كبد الظلماء غاص

اللوحة الثانية :

وذا الجنس اللطيف	لم يعد فينا ضعيف
لم تعد فى السوق تشرى وتباع	خلف باب وحجاب وقناع
أخذت كل الحقوق	بعدما طال العقوق
ومضت للفوز فى خير طريق	مذ غدت للزوج عونا وصديق
لم تعد بين أثاث البيت متعة	لم تعد مصنع انجاب الصغار

اللوحة الرابعة :

أيها الفلاح يا من عشت دهرا	خلف محراث وثور متعب
سامك القحط مع الاتعاب قهرا	تشتكى فى الحقل طول السغب

(1) راجع القصيد كاملا فى مجلة « الاذاعة والتلفزة » تونس ، العدد 373 : 76/2/1·

ذهب الثور الضعيف — ومضى الدلو السخيف
واغتدى الجرار في كل المداشر — لبنود الخير في الخضراء ناشر

اللوحة الخامسة :

عرف الشعب الى الخير طريقه — فانبرى يسعى على درب الرشاد
ومضى يحيى الصناعات العتيقة — انها فخر وذخر للبلاد
نحن احيينا الصناعة — فغدت فينا مشاعة
شملت كل القرى والمدن — انها عنوان عز الوطن

يتحدث الشاعر فى هذه اللوحة عن بؤس الفلاحين فى عهد الاحتلال الاجنبى ، وهو موضوع ثرى يفسح المجال لصوز شعرية رائعة ، بالرغم من أن الادب العربى المعاصر هو أدب مدن (2) ، ولكن حين تقييد الشاعر بالمناسبة ، واضطر الى تحديد المحتوى وتوزيعه على موضوعات شتى لم يستطع ان يقدم لنا صورا شعرية حرة صادقة ٠

اننا لا نريد المقارنة هنا ٠ نظرا لوجود فوراق ، ولكن أردنا الاطلاع على صورة شعرية أخرى تعكس بؤس المعذبين فى الارض وشعورهم قدمها شاعر معاصر دون أن يقيد نفسه ، فوقعت يدى ـ دون بحث وانتقاء ـ على الصورة التالية :

نزرع فى الهجير وياكلون فى الظل
أسنانهم بيضاء كالارز
وأسنانا موحشة كالغابات
صدورهم ناعمة كالحرير
وصدورنا غبراء كساحات الاعدام
ومع ذلك فنحن ملوك العالم :
بيوتهم مغمورة بأوراق المصنفات
وبيوتنا مغمورة بأوراق الخريف
فى جيوبهم عناوين الخونة واللصوص
وفى جيوبنا عناوين الرعد والانهار

هم يملكون النوافذ
ونحن نملك الرياح
هم يملكون السفن
ونحن نملك الامواج
هم يملكون الاوسمة
ونحن نملك الوحل
هم يلمكون الاسوار والشرفات
ونحن نملك الحبال والخناجر
والآن
هيا لننام على الارصفة يا حبيبتى (3)

(2) راجع دراستنا عن « العلاقة الجدلية بين التطور الاجتماعى والتطور الفنى فى الادب العربى الحديث » ، مجلة « الحياة الثقافية » ، العدد الثانى ، جويلية 1975 ٠
(3) من ديوان « الفرح ليس مهنتى » لمحمد الماغوط ، دمشق ، 1970 ، ص 48 — 49 ٠

تجربة الجزائر الرائدة

د · يحيى بوعزيز
استاذ بالمعهد التكنولوجى للتربية
وهران ـ الجزائر

المجلة منبر حر كما هو مكتوب فى غلافها الداخلى ، وهي فى هذا كسائر نشاط الوزارة : مثل الملتقى ، ومثل محاضرات المركز الثقافى الاسلامى المنظمة فى العاصمة وفى خلال البلاد ، منبر حر لجميع الاشخاص ، من محاضرين ، ومناقشين ، ولجميع الآراء ، والاتجاهات ، والاديولوجيات ، بل والاديان والمذاهب المختلفة فى تاريخ هذه الاديـــان .

ومن هنا فهذه المنابر الحرة الوزارة مفتوحة حتى لمن ينتقدها فى هذا الجانب من نشاطها أو ذاك ، لاننا نرى ان النقد عامل ايجابى فعال ينبهنا الى ما نكون قد غفلنا عنه ، أو ارتكبناه من مبالغة أو تقصير ، أو اقترفناه من خطا بصفة عامة ، لنتدارك ذاك ويتدارك المشاركون فى هذا النقاش لفائدتهم ولخير القراء ولصالح الجميع ·

ومن هنا اذ ننشر هذا المقال للاستاذ يحيى بو عزيز الذى شارك فى ملتقيات الفكر الاسلامى منذ سنوات وكتب كثيرا فى اعداد هذه المجلة . ننشره بنصه كاملا كالمعادة ، نترك الباب مفتوحا لكل من يود ان يرد عليه · وسنكون نحن فى المقدمة فى الاعـداد القادمة مع العودة فى نفس الرد الى مقال سابق كان قد نشره الاستاذ الفاضل عـــن ملتقـــى تلمســـان ·

تحية من الاعماق الى كل الذين اشرفوا على انجاز ملتقى عنابة

ان الملتقى العاشر للفكر الاسلامى الذى انعقد بعنابة فى العشرية الثانية من شهر جويلية عام 1976 ، كان ناجحا الى أبعد حد فى حسن التنظيم ، والاعداد ، والانجاز ، اذا ما قورن بغيره من الملتقيات السابقة ، وكذلك فى الموضوعات المطروقة .

وقد تظافرت على انجاحه عدة ظروف وعوامل أهمها : جهود السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ومعاونيه ، وموظفى وزارته ، والتعاون الكامل والصادق من طرف السلطات المحلية لمدينة عنابة . ثم الاستفادة من التجارب السابقة طبعا .

فلقد بذل موظفوا وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وعلى رأسهم السيـد الوزير مولود قاسم ، كل ما فى وسعهم وطاقتهم ، وواصلوا الليل بالنهار ، لتتم الاعمال وتنجز فى مواعيدها المحددة والمطلوبة ، والكل يشهد على ذلك ، ويردده بقلبه ولسانه . وأعتقد ان صرامة السيد الوزير التى لاحظناها عليـــه فى الملتقيات السابقة كانت فى محلها ومكانها ، لانه لو لا تلك الصرامة ما تمتعنا بذلك النظام الرائع حقـا فى ملتقى عنابة الاخير .

وبذلت السلطات المحلية الولائية ، والبلدية ، والحزبية ، ومصالح الامن ، والدرك كل ما يمكن بذله لتوفير الراحة والامن ، للملتقين سواء فى أمـاكن اقامتهم ، أو فى قاعة العمل نفسها بالمسرح الوطنى . وكان الوالى نفسه السيد (محمد غزالى) ملازما للملتقى من أول يوم الى آخره ، يدخل ويخرج فى قاعة المسرح البلدى ، وفى فنـدق الاقامة كأنه أحد الملتقين ، فى تواضع ، ولطف ، نادرين عند غيره . وليس ذلك بالشيء الغريب عنه ، فقد بذل نفس الجهود لانجاح ملتقى تيزى وزو السابع ، وزار بنفسـه ملتقى بجاية الثامن لتحيته . فشكرا له ، ولمعاونيه ، وللسيد الوزير مولود قاسـم ، وموظفى وزارته ، ورجال الامن والدرك ، ولكل من ساهم بأي قسط كان ، حتى جاء هذا الملتقى العاشر بعنابة روعة فى شكله ، واطاره ، ومضمونه ومحتواه .

وقد شرفت السلطات العسكرية هذا الملتقى فى البـدء والنهاية . بحضور رئيس الناحية العسكرية الخامسة ومعاونيه ، وبمتابعه مسؤولى المحافظة السياسية للجيش الوطنى الشعبى ، لمحاضرات الملتقى ، ومناقشاته كلها ، خاصة السيد خليفى خليفى من مركز البليدة الذى لم يغب لحظة واحدة عن نشاط الملتقى .

وكانت قاعة المسرح البلدى بعناية التى اعدت للعمل جـــد ملائمة ، فهي كبيــرة وواسعة ، ومجهزة بكل ما يلزم للعمل براحة ، من مراوح ، ومكبرات للصوت ، واضاءة ومنظمين ، وساد فيها النظام والهدوء طوال أيام الملتقى العشرة .

وأماكن اقامة الملتقى قريبة جدا من قاعة المسرح البلدى ، بحيث يمكن لاي شخص أن يصل اليها فى بضعة دقائق . وفى نفس الوقت مريحة ، وعلى رأسها فندق بــلازا ذو الشهرة العالمية . ما عدا وجبات الاكل التى كان يقدمها . فقد كانت دون المستوى ، ولعل ذلك راجع الى التخفيض الذى قرره لوزارة التعليم الاصلى ، فاراد ان يعوض ذلك بانزال قيمة الوجبات الغذائية . غير ان هذا السلوك وهذا الاسلوب غير سليم على أي حال . وقد ناقشنى كثير من الضيوف الذى جربوا بجاية وتلمسان ، فلم أجد ما أجيبهم بها سوى التأسف معهم .

ولم نسمع من الطلبة هذا العام أي تذمر أو شكوى ، ما عدا طول مدة العمل ، ولكن هذا أمر ضرورى لانجاز الاعمال ، ولا يوجد هناك أى حل بديلا له .

والسلطات المحلية الولائية ، والبلدية ، اكرمت الملتقى والملتقين ، فاستضافهم معمل الحجار بنزل سرايدى السياحى ، واستضافتهم البلدية ، والولاية مرتين : احداهما على شاطىء البحر ، والثانية فى فندق سرايدى ، ليتناولوا أكل الخرفان المشوية على الطريقة العربية ، واستضافتهم بلدية القالة ودائرتها لتناول الغذاء فى فندقها السياحى الضخم فندق المرجان ، على ساحل المرجان بمدينة القالة خلال قيامهم برحلة الى هناك ، والى منطقة خط موريس المكهرب . وفتحت بيوت فندقها لكل من يريد الراحة واداء الصلاة ، وهي بادرة حسنة كان لها صداها ، ولم يغفل السيد الوزير ، زيادة الطلبة فى قلـــب الجبل اين كانوا يتناولون الغذاء لان الفندق لا يأيهم ، وذلك للاطمئنان عليهم وليؤكد لهم انه مهتـم بهم .

ومن السنن الحسنة لملتقى عنابة هذا العام ، تخصيص وقت لاداء صـلاة المـغرب فى وقتها ، وهى الوحيدة التى كان يحل وقت أدائها خلال انشغال الملتقين بأعمالهم . وكان لهذا الاجراء صداه الحسن كذلك والطيب لدى كل الملتقى ، خاصة وانه فى العام الماضى والذى قبله حصل انتقاد حول هذا .

دور الجـــزائر المشـرف :

وأكثر من هذا روعة ، فان الجزائر هذه المرة ، وفى هذا الملتقى بعنابة ، اعطـــت مثلا رائعا لابد من الاشادة به ، لكونه ذا مغزى ومعنى . فلقد شاركت بأربع محاضرات

ومحاضرين ، أولاها فى التعريف بتاريخ عنابة ورجالها . للشيخ المهدى البوعبدلى . والثلاثة الاخريات كل واحدة فى نقطة من نقاط الملتقى الثلاثة . وكانت كلها ، فى المستوى المطلوب ، وكان أحدهم الدكتور سعيد شيبان الغنى عـن التعريف ، والثانى السيـد الهاشمى بوجملين مدير صناعة الحديد والصلب بوزارة الصناعة والطاقة ، والثالث السيد يحيى بوعزيز وهو تطور لا بأس به اذا ما قورن بالملتقيات السابقة .

وشاركت بمعقبين من فئات متنوعة نذكر منهم بصورة خاصة الاطباء ، والتقنيين الذين كانوا يشرحون ويعقبون باللغة العربية السليمة ، خاصة تيقنيو مركب الحجـار للحديد والصب الذين شرحوا للملتقين خلال زيارتهم للمـركب ، المصطلحات العلمية والتقنية باللغة العربية السليمة التى ليس فيها أي لبس أو غموض . مما أثار دهشتنا نحن الجزائريين وأثلج صدورنا فضلا عن غيرنا . وهكذا ، لاول مرة ، وفى هذا البلد الشاب ، يدخل الاسلام ، وتدخل معه اللغة العربية الى المصنع وحقول الصناعة الحديثة بأتم معناها ، من أوسع الابواب ، كما أكد ذلك الشيخ الصادق بسيس ، لتخرص كـل اشداق المتشدقين ، والشاكين ، والمتشككين ، والمتغربين الذين يحنون دائما الى أفكار الغرب وتعاليمه ، وتقاليده .

ان من لا يعرف ظروف الجزائر غداة استقلالها عام 1962 ، وقبل ذلك ، يعتبر هذا الحدث عاديا ، ولا يدرك له أية أهمية . اما نحن الجزائريين الذين اكتوينا بنـــار الفرنسة ، والمسخ الاستعمارى ، نقدر أهمية هذا الحدث ، ونجلـه ، ونباركه ، ونعتبر أصحابه من الرواد فى هذا الميدان .

ومما زاد فى أهمية ملتقى عنابة هذا العام ، هو ضعف نسبة الغياب من المحاضرين بحيث لم يغب الا اربعة من جملة ست وثلاثين محاضرا . وهذا جعل الملتقى يمر كلـه فى عمل جدى متواصل دون حدوث أية فجوة فيه كما ان مشاركة عدد كبير من رجال الاستشراق الغربى والشرقى ، وعدد كبير من مسلمى أوروبا وأمريكا ، أضفى عـلى الملتقى جوا خاصا من الروعة والحيوية ، فى تلاقح الافكار بفصل التعقيبات والملاحظات المختلفة من طرف الجميع ، كان لها صداها الطيب والحسن .

وحتى التعقيبات والتدخلات هذا العام ، كانت ملائمة على العموم ، اذ قـل فيها الحشو الممل ، ولوحظ عدم الاطالة آلا من البعض . وفى هذا المجال أحي بصورة خاصة الشيخ أحمد حمانى الذى شـرف الجـزائر والملتقى هذا العـام بتعليقاته القيمـة ، والموجزة ، والهـادفة .

بعض سلبيـات الملتقـى :

على أن كل هذا لا يعنى انعدام وجود بعض السلبيات فى الملتقى .

– فقد لوحظ انعدام التوازن فى محاضرات نقاط الملتقى الثلاثة . بحيث استأثرت النقطة الاولى بسبع عشرة محاضرة ، والنقطة الثالثة بخمس عشرة محاضرة ، بينما لم يكن من حظ النقطة الثانية سوى أربع محاضرات رغـــم أهميتها . ولم يعوضها الا صدور تلك الفتوى الشرعية التى صدرت لصالح عمال الحجار الذين يواجهون قساوة الحرارة أمام الافران ، والتى أثارت اعجاب الكثير خاصة الدكتـور الايـرانى رئيس المركز الاسلامى بها مبورغ فى ألمانيا الذى قال لى ، وكرر ، وأعاد القول ، بأن ما يجرى فى الجزائر رائع حقا ، وفريد من نوعه ، وأنه ليس من السهل فى بلـــد اسلامى غير الجزائر ، أن تجرى الامور على هذا الشكل ، وبهذه السهولة واليسر فى مثل هذا المشكل الدينى ونظائره .

– ولوحظ نوع من التمطط ، والتفكك ، وعدم الضبط ، فى أفكار محاضرات النقطة الثالثة المتعلقة بالابعاد الروحية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، للعبادات وأهميتها لكل من الامة والفرد . وذلك رغم أهميتها . لقد شعرنا بهزالة الحصيلة التى خرجنا منها . وقد يكون ذلك راجعا لسوء طريقة وأسلوب عرض ومعالجة المواضيع المطروقة . اننا ما زلنا بحاجة الى توضيح أكثر لهذه الابعاد بطريقة العد ، والحصر ، والوضوح الكامل حتى يقتنع الشباب المسلم بأهميتها ، ويزول عنه الشك والتشكك الذى غزاهم فى داخل العالم الاسلامى وخارجه .

– ولوحظ كذلك لك قصور . وتقصير ، فى تغطية الملتقى فى مجال الاعلام مـــن صحافة ، وتلفزة ، واذاعة ، دون ان ندرى السبب . ان الملحظات التى تبعث بها وكالة الانباء الجزائرية الى هذه المصالح لاعلامية المختلفة لا تكفى ولا تسمن من جوع فكرى فلابد من اعداد دراسات ، وحصص ، وحلقات ، قبيل الملتقى ، وخلاله . تواكب جـــو الملتقى ، وأهميته ، كجزء من أصالتنا وتفتحنا . وذلك على غـــرار مـــا يحدث فى الملتقيات الاخرى السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . ان الاســـلام والتـــراث الاسلامى احدى ركائز ، أصالتنا ، وشخصيتنا . ولا عذر لنا اطـلاقا فى أي تقصير . وما دمنا ننفق بسخاء على هذه الملتقيات ، فينبغى ان نعد لها من كل الجوانب .

– ولوحظ أيضا عدم استغلال الملتقى للتعريف الحقيقى بنشـــاط البـلاد العام ، ومنجزاتها الهائلة ، وتجربتها الرائدة . ان هذا الملتقى فرصة هامة للقيام بهذا التعريف

وذاك باعـداد النشرات ، والكتيبات ، وتوزيعها على كـل الملتقى ، على أن تكون فى مستوى الملتقى نفسه ، ومستوى التجربة نفسها ، وليس من قبيل نشرات مصالـــح السياحة والاعلام العام التى تستهدف استجلاب السواح . ان ضيوف هذا الملتقى من النخبة . وينبغى ، بل يجب ، أن نقدم اليهم نخبة تجربتنا ، واعمالنا ، ومنجزاتنا . وهذا العمل كفيل بأن يجعل الملتقين كل سنة يعودون الى بلدانهم بنظرة حقيقة عن البلد الذى استضافهم ، فيكونون رسلا لنا أوفياء الى شعوبهم ، ويتجنبون فى نفس الوقت الوقوع فى فخاخ الدعايات المغرضة والمظللة التى يروجها ضد بلادنا خصوم نهضتنا ، وتطورنا وتقـــدمنا .

ان وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية من جانبها تقوم بهذا الواجب ، فتوزع باستمرار على الملتقين الضيوف كتب الملتقيات السابقة ، ومجلة الاصالة ، وتمكنهم من صحافة البلد طوال أيام الملتقى . ولكن هذا وجده فى نظـرنا لا يكفـى ، خـاصة وأن صحافتنا خلال فصل الصيف كثيرا ما تكون هزيلة فى المواضيع ، والدراسات ، لان أغلبية المحررين ، والكتاب يكونون على ما يظهر فى اجازاتهم السنوية .

– ولوحظ ، أخيرا ، غياب جمهور عنابة ، من غير الطلبة ، عن الملتقى ، فقد لاحظنا فى تلمسان ، وبجاية كثرة تردد جمهوريهما على قاعة المحاضرات رغم ضيقها ، ولكن فى عنابة لم نلاحظ هذا ، وقد لاحظ الكثير من الاخوان ، ولم استطع أن أعلل حقيقـة قاعة المسرح البلدى عامرة بالمدعويين ، ومن ضمنهم بعض طلبة عنابة ، ولكن عنابـة مليئة ، والحمد لله ، بالجمهور المثقف والواعى ، ونشاط الملتقى ينبغى أن يمتـــد الى هؤلاء بصورة ما . وأعتقد أنه لو حجز الشارعان المحاذيان لقاعـــة المسرح البلدى ، وجهزا باغطية ، ومقاعد ، وحراس ، لكان هذا العمل حسنا ، وعاد على جمهور عنابة بالخير العميم ، خاصة وان مكبرات الصوت مجهزة ومعدة فعلا خارج القاعة هناك وفى كل الملتقيات السابقة ، أن أبواب قاعة المسرح البلدى هذا العام تغلق بمجردان يدخل الملتقون والطلبة ، وبذلك لا يتمكن أحد من جمهور عنابة من الدخول ، ونحن نريد أن يمتد تأثير الملتقى الى غير الملتقين كذلك ، وهم جمهور المدينة التى يعقد بها . وهذا ينبغى أن يقرأ له حسابه فى الملتقيات المقبلة .

ازمة الشيخ سليمان داود بن يوسف :

هذه ملاحظات عامة حول الملتقى العاشر للفكر الاسلامى بعنابة أودردتها كمقدمة فقط لمعالجة قضية خاصة أثيرت على هامش الملتقى . وليس من غرضى هذه المرة أن

أقوم الملتقى فى صلب موضوعاته ، على غرار ما فعلته بملتقى تلمسان التاسع . وذلك لامـــرين اثنيـــن :

أولهما : أنى لم أحضر اليومين الاولين من الملتقى بسبب سوء تنظيم المشرفين عن سفرى ، بصورة خاصة ، الى عنابة ، رغم حرصى على تفادى ذلك ، وقد تسبب هـذا التأخر بالنسبة الى فى فوات عدد كبير من المحاضرات والتعقيبات التى القيت خـلال ذينك اليومين ، فى المحور الذى أميل اليه بطبعى ، وتفكيرى ، وكان ذلك فجـوة كبيرة تمنعنى من اعطاء تقويم صادق للملتقى

وثانيهما : هو أن تقويم ملتقى تلمسان أثار على حقد وغضب أبينـا ، وشيخنـا سليمان داود بن يوسف ، الذى حاول أن يرمينى ويتهمنى ، على ملا من جمهور ملتقى عنابة الكريم والبهيج ، بالاقليمية ، والجهوية ، والعصبية ، التى يعلم الله أنى لا أمقت شيئا غيرها . ولا تجد سبيلا أبدا ، الى تفكيرى ، علما بأن الكثير من الشباب والمفكرين الميزابيين من رفاقى وأصدقائى الاوفياء منذ أيام الصبا و الدراسة ، وبامكانى أن أعطي له الدليل بالدكتور صالح خرفى ، والدكتور ابراهيم فخار ، والدكتور محمد الصـالح الجون ، والاستاذ بلعديسى بلحاج ، والاستاذ خبابة موسى وعيسى ، والاخ باباتو صالح ، والاستاذ العلوانى ، والشيخ الثمينى رحمه الله ، و.. و.. الى ما لا نهاية ٠

ان الشيخ سليمان داود بن يوسف الاباضى ، يدافع عن فكرة وقضية اصبحت مـن التاريخ ، ولا أملك أن أكفه أو احوله عنها ، بل وليس من حقى ذلك ، ولكنى أرجـــوه فقط الا يحاول مرة أخرى أن يتصرف ويصنع مثل صنيعه بملتقى عنابة ٠ أولا : لانه لا ينبغى أن يتصور أن كل الناس يعرفون الدقائق عـن التـاريخ والحضارة الاباضية الرستمية . وثانيا : لان تصرفه ذاك سيعود عليه بما لا يرضاه ولا يحبـه ، وسيجنى عليه هو وحده ، ومن على شاكلته فقط ان كانوا ، ولا أعتقد انهم موجودون .

ان على الشيخ سليمان ان يتخلص من هذه الوطنية الضيقة ، العجفاء ، والمحلية ، خاصة فى مثل هذه الملتقيات التى يلتقى فيها اخوان مسلمون من سائر اصقاع الدنيا ، من طوكيو شـرقا الى كاليفورنيا غـــربا ، ليتدارسوا حضارتهم الغابرة ، ومشاكلهم الحاضرة ، وآفاق طموحاتهم المقبلة ، فى جو من الحرية والاخاء ، والتسامح ، والتوادد والتعاطف ، بل والتواضع كذلك .

اننا ياشيخنا سليمان نجلك ، ونحترمك ، ونقدر نشاطك الفكرى وفى مثل ذلـــك السن المتقدم ، ونرجو لك امتداد العمر ، ولكننا ننكر عليك تلك الوطنية الضيقة ، ونرجو

أن تتخلص منها ما أمكن ، ونؤكد لك عن معرفة ، ودراية ان معظم الشباب والكهـــول الميزابيين ، متفتحون ، ويخالفونك . فلقد عاشرناهم ، وجاورناهم ، وتعاملنا معهـــم فلم نلاحظ عليهم ما نلاحظه عليك .

وبعد كل هذا استسمحك عن هذه الملاحظات التى صدرت منى وعن طيب خاطر ، وأننى اعتبرك بمنزلة والدى ، فمعذرة اذا كان فى هذا ما يسيئك ، واستغفر الله .

تجربة الجزائر الرائدة ، كيف ولماذا أثيرت فى الملتقى :

اما النقطة الخاصة التى أريد طرقها ومناقشتها ، بصورة خاصة ، فهي : تجـربة الجزائر الرائدة التى قصرت رؤيا بعض اخواننا العرب المسلمين ، عن ادراك حقيقتها ، وتشخيص أهميتها وأبعادها . ذلك أن هذه النقطة أثيرت فى الملتقى ولكن بشكل خافت ، ومحتشم ، ومبتور ، لضيق الوقت أولا ، وللرغبة فى عدم الاحراج ثانيا ، وحتى لا يقال عنا بأننا نريد الدعاية لبلادنا ، أو ننشد استدرار الشكر والاطراء . ونحن فى غنى عن ذلك قطعا ، لان الاهم عندنا هو أن تشكرنا أعمالنا ومنجزاتنا .

والقصة على حقيقتها بدأت وتمت على الشكل التالى :

لقد اعترضنى صدفة ، فى نهاية الشارع الكبير (شارع الاستقلال على ما اظن) بعنابة ، أحد الاخوان الشرقيين ، وذلك مساء الجمعة ، وهي الامسية الوحيدة التـى كنا فيها أحرارا للتجول ، واستوقفنى ، وحيانى ، وشكرنى على المحاضرة التى القيتها فى الملتقى وقدم لى نفسه على أنه مندوب لجريدة الاهرام القاهرية ، وأنه عمـــل فى الحقل الصحفى طيلة عشرين عاما تقريبا . ثم طلب منى أن نتجول معا اذا لم تكن لـى شواغل وموانع ، فشكرته ، وبادلته نفس الرغبة . وأخذنا طريقنا على طول الشـــارع الذى يمتد على حافة ميناء عنابة البحرى ، ذهابا وايابا ، وختمنا جولتنا بالجلوس فى احدى مقاهى ذلك الشارع الكبير الذى التقيا فيه أولا ، وتبادلنا الحديث عن الجزائر والملتقى ، وكان الاخ الكريم (من عائلة هويدى) يسأل عن أشياء كثيرة حول الميثـاق الوطنى ، ومناقشات الشعب الجزائرى له ، وموقفه مـــن بعض جوانبه كالاشتراكية والاسلام ، والتعديلات التى ادخلت عليه ، والاشخاص الذين صاغوه ، وحـــرروه ، وعدلوه ، واليسار الجزائرى ، وتأثيره ، ومواضيع الملتقى ، وتعدد الملتقيات الاسلامية هذا العام ، وما الى ذلك . وكنت أجيبه بصراحة عن كل ما أعرف ، وفى حدود ما أعرف طبعا . وكان هو يقارن أحيانا بأوضاع مصر ، والعالم العربى بصراحة كذلك يشكـر عليها على أساس أننا من عائلة واحدة ، الشىء الوحيد الذى لم أستطيع أن أجيبـه

عليه لكونى لا أعلم بواطن الامور ، هو عدم حضور المغاربة فى هذا الملتقى هذا العام ، ولكن السيد الوزير مولود قاسم ازال هذا اللبس ، واعلن فى قاعة الملتقى بأنه وجه الدعوات لهم ، وعلى الاقل ، المفكر والكاتب المهدى بن عبود ، ولكن لم يتلق أي جواب .

وقد شعرت خلال المناقشة والحوار ، بأن الاخ (هويدى) كان غير راض أو غير مقتنع ببعض الاشياء ، وأنه كان متضايقا من بعض المشاكل التى اعترضته فى مقر اقامته بالنفدق (بلازا) ، وعلى سبيل المثال لم يمكنوه من الاتصال الهاتفى بكان فى فرنسا رغم ملازمته لغرفته طوال يوم كامل ، بحيث لم يقولوا له لا ! صراحة ، ولم يلبوا رغبته . واعتقد أنه محق فى غضبه فى هذه النقطة ، ولا ينبغى أن ندعى نحن الكمال ، وليس من حقنا ذلك ، لان الكمال لله وحده ، ثم أنه لدينا نقص ولدينا عيوب فى ميدان الاستقبال بصورة عامة . وعلينا أن نخلق روح اللياقة التى تليق بكل شخص خاصة فى مثل هذه المناسبات .

ان استغلال التيليفون فى فنادق الملتقيات الاسلامية ، يكاد يكون من المستحيل كما لاحظت أنا شخصيا فى تلمسان العام الماضى ، وعنابة هذا العام . وقد اصطدمت أنا شخصيا العام الماضى مع مسؤول فندق المغرب بتلمسان ، واضطررت هذا العام بعنابة ان أذهب الى مركز البريد المركزى ليلا على الساعة الحادية عشرة للاتصال بأسرتى والاطمئنان عليها .

وأعتقد ان الوزارة التى تتحمل جميع نفقات الاقامة فى مثل تلك الفنادق الضخمة ، لا تضيرها المكالمات التيليفونية التى يطلبها بعض الملتقين للاطمئنان على عائلاتهم ، وحتى لو طلبت مصالح الفندق مبالغ هذه المكالمات لقدمناها لها · بصدر رحب ، على ان تكفينا الذهاب الى مراكز البريد المكتضة بالرواد ، وفى أوقات غير ملائمة ، ما دام الجميع مشغولا فى متابعة الاعمال بقاعة الملتقى . وقد أكد لى الاخ المصرى بمرارة أنه لو طلب منه دفع مبلغ المكالمة لدفعه . ان الاخ المصرى الصحفى محق فى انتقاده هذا ، ونتمنى أن نتفادى هذا مستقبلا وزارة التعليم الاصلى حتى ولو بالنسبة للضيوف على الاقل ، وأن كنا نتمنى أن يشمل الجميع وفى حدود الامكان .

قلت كنت أجيب الاخ هويدى بصراحة ، وهدوء ، وبشاشة ، عن كل ما أعرف حول استفساراته ، الى أن فاجأنى بفحوى السؤال التالى : سمعنا أن الانسان عندكم فى الجزائر لا يستطيع أن ينتقل بين ولاية وأخرى الا برخصة ، فهل ذلك من أجل الحفاظ على الامن ؟ ام لراحة المواطن ، أو لغاية أخرى ؟ فشعرت بصدمة وخيبة أمل ، وأجبته

بسرعة ، ودون تروى . لا ! ومن قال لكم هذا ، وهل سمعتم هذا من أحد ؟ وكررت ذلك عليه عدة مرات ، فاحس بعنف الصدمة لدى ، وكأنه لم يكن يتوقع ذلك منى ، فأخـــذ يبرر تساؤله ، ويلطف منه ، ولو امكن له سحبه لفعل ذلك ، ولكن الامــر قد فـــات ، وسرعان ما انتقلنا الى مواضيع أخرى ، غير أنى فى قرارة نفسى كنت احترق من مثل هذا السؤال ، ومن الذين يضعونه ويروجونه ، ظلما وبهتانا ، وكذبا وزورا .

ورغم أنى متأكد من حسن نية الاخ هويدى وبراءته ، لان سؤاله لا شك كان مبنيا على واقع ما من الاشاعات هذه ، الا أن صدمتى من سؤاله كانت شديدة ، وألمى كـــان حادا وبالغا لعدة أسبـــاب :

أولا : أن هذه الاشاعات ، عبارة عن مجرد أكاذيب ، لا أساس لها من الصحـــة اطلاقا ، ولا ينبغى لاخ شقيق ومن بلد شقيق يشتغل مهنة الصحافة أن تنطلى عليه ، أو تخفـــى عنـــه .

ثانيا : ان اخواننا العرب بالمشرق العربى ، للاسف الشديد ، يصدقون بســرعة ، ودون تروى ، هذه الاشاعات المغرضة والمضللة ، التى كان الغرب الاوروبى يشيعها وينشرها ضد بلدان شرق أوروبا الشيوعية ، وأصبح اليوم يحاول عبثا أن ينشرها ضد الجزائر لتشكيكها فيها تقوم به من أعمال خلاقة ، لصالح تنميتها القومية ، ولايقاف وعرقلة مسيرة نهضتها الشابة الفتية .

ثالثا : ان اخواننا فى الشرق العـــربى ، للاســف الشديد ، يسيئون فهم تجربتنا الثورية ، ومدى ابعادها الكبرى داخل الجزائر ، وفى محيط العالم العربى والاسلامى ، ويفسرون اشتراكيتنا على أنها شيوعية مستوردة ، روسية ، أو صينية ، أو كورية .

رابعا : ان الجزائر مفتوحة فى وجه اخواننا عرب الشرق ، وغيرهم ، وليس هناك أي حاجز أو ستار حديدى حال أو يحـــول دون زيارتهم لها ، وتنقلاتهم فى أطرافها وارجائها . والمتعاونون منهم معنا يعدون بالآلاف ، ويعيشون فى كل أطراف الجزائر منذ فجر الاستقلال عام 1962 حتى يومنا هذا . ولا نعتقد أن هناك شيئا قد خفى عليهم من أوضاعها الحقيقية ، لاننا لم نعمل ، ولن نعمل ، على اخفاء أي شيء عنهم ، لانــه ليس من شيمنا ذلك ، بل على العكس نبذل جهدنا لاطلاعهم على ما لربما لم ينتبهوا اليه .

فأي مجال بعد هذا يبقى لهم ، ليصدقوا أو يغتروا بمث هذه الاشاعات الباطلـــة ، والزائفة ، التى كانت توصم بها بلدان أخرى . وحتى نوضح أكثر نروى ما سمعناه من بعض المسافرين ، والعمدة عليهم ، من أن الانسان فى روسيا لا يستطيع ان ينتقل خارج

ا
الم
المص

فـ
والمغالط
واشتراكي

اننا لا
وطويل ، ومس

أحكام الدكت

بقيت هذه المح
وفى الغد حاضرنا ا
يعمل فى احدى الجام
الوطن الام ، جاءت محا
الذى صوره تصويرا مأس
غير أنه كان فى نظرنا مبال
المقارنات التاريخية والحال أ
أية تجربة ناجحة ، ويستثنيها ،
بالجملة فى مشاكل العالم العربى
فى حدود بلدان المشرق العربى وح

وهنا وجدت نفسى اسرع لطلب
مشكلة المحادثة مع الاخ هويدى الص
نظرة اخواننا العرب نحونا ونحو تجرب

وأسئلة الطلبة حول بعض مشاكل في الطب كالدورة الدموية ، وابن النفيس ، وهارفي ، وسيرفيد ، وكالادب ، والقصة ، في موضوع تاثير الحضارة العربية الاسلامية فيهما باوروبا ، وما الى هذا ، فكيف أغامر بالاجابة هكذا ·

انني أومن بالمثل القائل ، عاش من عرف قدره ، ومن قال لا ادري علمه اللـــه ما لا يدري . ولا أعتقد أن مثل هذا الاسلوب والسلوك يضر بصاحبه ، بل على العكس يجلب له الاحترام . وقد تلقيت شكرا من الدكتوراه وداد القاضي على هذا التصرف ، وحسن التخلص ممادعته هي : احراجا ، وأسميه أنا طيبة من جل الطلبة ، وسذاجة من القلة فطـــرية ·

تدخل السيـد وزير التعليم الاصلي :

وعندما جاء دور الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي الفلسطيني ليرد علي ، وعلى غيري كذلك ، بالغ في بعض ردوده خاصة فيما دعاه : الوطنية الضيقة ، التي أكـــد بأنه لا يتمناها للجزائر . وهنا طلب السيد الوزير الاستاذ مولود قاسم ، استفسارا منه على هذه الوطنية الضيقة ، وطلب تعقيبا زكى فيه تعقيبي ، وأضاف عليه بأن تجـربة الجزائر مغمرضة الجانب لدى اخواننا العرب في المشرق العربي ، ومسكوت هنـــا . وأشار بالمناسبة الى أفكار حسنين هيكل المنحرفة والزائفة حول كيان الجزائر التاريخي والى المغالطة الواضحة الراسخة في أذهان بعض اخواننا العرب بالمشرق العـــربي ، عن اشتراكية الجزائر النابعة في الحقيقة والواقع من تاريخها وكفاحها ، وطموحاتها الكبرى ، والتي لا تتعارض اطلاقا مع دينها الاسلامي الحنيف الذي هو دين الـــدولة الرسمي ، كما هو دين الشعب طبعا . وهو ما أكده الميثاق الوطني أخيرا . ولا تتعارض مع تقاليدنا العريقة كمجتمع اسلامي يسعى الى النهضة والتطور بسرعة ، ومن أقصر الطـــرق .

واستشهد السيد الوزير بأقوال وآراء بعض مفكري الازهـر التي صدرت أخيرا حول مفهوم الاشتراكية الذي لا يتعارض مع الاسلام .

أسس تجربة الجزائر الرائدة :

ذلك هو فحوى وخلاصة النقاش الذي جرى حول هذه النقطة الحيوية ، وتلك هي الاسباب والدواعي لذلك ، وهو نقاش جميل ولطيف ، وهادىء ، ليس فيه أية غرابة ، بل الغرابة في عدم حصوله لو لم يحصل . والفضل فيه للاخ المصري هويدي ، والدكتور

الفلسطيني اسماعين راجى ، اللذين أشكرهما غاية الشكر لتسببهما فى حصوله ، حتى مكننا من توضيح بعض ما غمض فى بعض جوانب حياتنا ، وازالة بعض اللبس فيها فى جو من الحرية الفكرية الرائدة ، والاخوة والصراحة الصادقة ، والثقـــة فى المستقبل المشترك . وتلك هي مزية هذه الملتقيات الفكرية الاسلامية .

وهذا النقاش الحيوى الجميل هو الذى أوحى لى وحفزنى على تحرير هذا الموضوع لايضاح ما لم يسمح الوقت بايضاحه فى الملتقى ، انصافا لبلادى وتجربتها ، وايضاحا لاخواننا العرب بالمشرق العربى حتى يكونوا على بينة وبصيرة منا ، ومن تجربتنا ، واشتراكيتنا . ولا يبقوا أسرى بعد ذلك لمثل هذه الاشاعات .

ان فى الجزائر اليوم ، ومنذ عام 1962 ، وخاصة بعد التصحيح الثورى عام 1965 ، تجربة رائدة يجرى انجازها بارادة قوية ، وعزم لا يقهر ، وثقة لا تتزعزع . وذلك فى مختلف المجالات والميادين التى ترتبط بالثورات الثلاث : الصنـاعية ، والـزراعية ، والثقـــافية .

1) تجربة السد الاخضر ، أو غرس غابات السد الاخضر العظيم ، الذى سيضع حدا لزحف رمال الصحراء القاحلة الى الجزائر الشمال الخضراء ، ويحدث تغييرا فى المناخ لصالح توفر الرطوبة ، والاستغلال الفلاحى ، والحيوانى ، ويوفر ثروة الاخشاب للتدفئة والتنمية الصناعية . ويحمى التربة الخصبة من القحولة والجفاف . وهو سد طوله ألف وخمسماته (1500) كلمتر ، وعرضه بين عشرة وخمسة وعشرين (10 — 25) كلمتر . ويقوم بانجازه جنود الجيش الوطنى الشعبى ، وشبـــاب الخدمة الوطنية ، بسواعدهم المفتولة والفتية . وكان قبل اليوم حلماً من الاحلام ولكنه اليوم حقيقة واقعة .

2) تجربة التشجير الواسعة لمختلف منحدرات البلاد من أجل مقاومة الانحراف ، والحفاظ على التربة الخصبة فى أماكنها ، وتوفير الغابات وثروة الاخشاب ، وتنقية الجو من الرواسب العفنة ، وتنويع الغلال والثمار وتكثيرها . وقد تم حتى الآن غرس مئات الملايين من الاشجار فى طول الجزائر وعرضها ، وبدأت هذه العملية تؤتى أكلها وثمارها .

3) تجربة الثـــورة الزراعيـــة التى احدثت تغييرا جذريا فى أرياف بلادنا ، وفى المعطيات الفلاحية ، وعقلية الفلاحين . وكان من نتائجها البارزة استصلاح عشـرات الآلاف من الهكتارات لاضافتها الى المساحات المزروعة ، وخلق عقلية روح التعـاون لدى الفلاحين مما سمح باقامة عشرات ، بل مآت من التعاونيات الفلاحية ، واقـــامة

عدد لا بأس به من السدود لحجز المياه للري والسقى الفلاحى · واخضاع العمل الفلاحى والزراعى للتطورات العلمية والتقنية الحديثة التى تساعد على تذليل العمل للفلاحين ، ورفع مردود الانتاج الفلاحى وتنويعه ·

4) تجربة بناء ألف قرية فلاحية للفلاحين الذين شردهم الاستعمار فى الصحارى والهضاب العليا القاحلة وقمم الجبال الجرداء ، عشرات السنين · وقد تم حتى الآن بناء عشرات وعشرات منها بكل مرافقها الحيوية من المسجد والمدرسة ، الى المستوسف ومركز البريد ، والبلدية ، والسوق ، والنادى ، والحمام · ويبذل جنود الجيش الوطنى الشعبى ، وشباب الخدمة الوطنية جهودا جبارة فى انجاز هذه القرى التى تعتبر مفخرة الجزائر الجديدة وثورتها الزراعية الرائدة. وأصبح فلاحونا الجزائريون يشعرون اليوم ولاول مرة ، بعد عشرات السنين من التشرد والهوان ، بالاستقرار الحقيقى ، والهدوء ، والاطمئنان ، وبضمان العيش الرغد ، والحياة الكريمة .

5) تجربة انشاء طريق الوحدة الافريقية ، أو عابر الصحراء العملاق ، بسواعد الجنود وشباب الخدمة الوطنية ، الذى لا تقتصر فائدته على الجزائر وحدها ، وانما سيفتح آفاقا واسعة لبلدان ما وراء الصحراء الكبرى ، ويقضى على عزلتها واختناقها ، ويتيح لها الاتصال بشمال القارة وكل عالم البحر المتوسط ، وأوروبا · وتفخر الجزائر بأنها كانت وما تزال البوابة الحقيقية لانفتاح وسط افريقيا على شمالها ، وعلى العالم المتمدن فى النصف الشمالى من الكرة الارضية · ان هذا العابر العظيم عز ويعز على غير الجزائر أن تنشئه وتنجزه ، لان الطريق الذى طوله حوالى الفى كلمتر ، ويخترق صحراء كالصحراء الكبرى بقساوة مناخها ، وشدة حرارتها ، وقحولة ترتبها ، وانعدام المياه وكل مظاهر العمران الاخرى بها ، ليس من السهل انشاؤه وانجازه لا تقنيا ، ولا ماديا ، ولا بشريا ، ولا طبيعيا ·

6) تجربة فرض الخدمة الوطنية على الشباب والطلبة ، وتسخير طاقاتهم الشابة وجهودهم الخلاقة لصالح النهوض بالبلاد ، وتنمية قدراتها الاقتصادية ، وتدعيم مشاريع التنمية القومية فيها خاصة وأن البلاد قد خربها الاستعمار الفرنسى تخريبا فضيعا لا نظير له طيلة وجوده بها مدة قرن واثنين وثلاثين عاما . ولا يمكن لمرتزقة أجانب أن يصلحوها بعد الاستقلال · فكما استشهد مليون ونصف مليون من أجل تحرير هذا البلاد من وطأة الاستعمار ، فان شباب اليوم يقدم بسخاء وعن رضا وطواعية ، ضريبة الدم والجهد والعرق من أجل النهوض به ، ودفعه دفعا للحاق بركب التطور الحضارى ·

ان الخدمة الوطنية لشباب الجزائر اليوم تعتبر مفخرة هذا البلد كذلك ، وأثارت اعجاب العديد من بلدان العالم الثالث التى ، كما قال الرئيس بومدين ، أصبحت تستفسر ، وتستوضح ، عن كيفية تطبيقها ، والنتائج التي عادت بها على البلاد · مما يدل على تاثيرها خارج بلادنا ·

7) تجربة الثورة الصناعية التى بدأنا هامن الصفر ، وتستهدف تحطيم الاحتكار الغربى والشرقى ، لمجال الصناعة ، والتيكنولوجية ، ورفض جعل بلدنا سوقا رائجا فقط لمنتجات العالم المصنع كما كان قبل الاستقلال ·

وهذه الثورة الصناعية الرائدة هي التى استلزمت تصفية كل الاحتكارات الاجنبية وتأميم الثروات المعدنية ، والطاقة ، لتدعيم هذه التجربة الفتية التى ستعود بالنفع على البلاد ولاشك اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ·

ولعل اخواننا العرب يذكرون ، ولا يجهلون أن الجزائر هي التى فجرت معركة البترول عام 1971 ، وخاضتها حتى النهاية ، وخرج الجميع بعد ذلك منتصرين فى المغرب العربى ، ومنطقة الخليج ، وفى فينيزويلا ·

ولعل اخواننا العرب ، يذكرون ، ولا يجهلون ، أن الجزائر هي التى دعت الى عقد دورة خاصة للامم المتحدة ، من أجل مناقشة موضوع المواد الاولية ككل ، وليس الطاقة وحدهما كما كان الغرب يبغى ذلك ، ونجحت فى معركتها · واضطر الغرب مكرها ان يجلس على طاولة واحدة مع بلدان العالم الثالث للتفاوض والحوار من أجل اقامة نظام اقتصادى جديدى عالمى يستجيب للتطورات الجديدة فى العالم · ويأخذ بعين الاعتبار مصالح البلدان النامية فى العالم الثالث ·

وقد شاهد الملتقون بعنابة ، مركب الحديد والصلب كنموذج للثورة الصناعية الحديثة التى تخوضها الجزائر بعزم وارادة قويين ، وتقيمها بالاعتماد على سواعد شبابها ، وبامكانياتها المادية الاخرى · وهذا المركب الذى يعتبر فجر الصناعة الحديثة بالجزائر له نماذج أخرى كثيرة فى البلاد والحمد لله مثل : مركب الجرارات الميكانيكية بوادى حميمين فى قسنطينة ، ومركب الدراجات فى قالمة ، ومركب الشاحنات بالرويبة ، ومصانع الزجاج والخزف فى وهران وقالمة ، ومركبات الورق فى مستغانم وقالمة وسوق أهراس ، ومركبات النسيج فى ذراع بن خدة ، وتليلات ، والكرمة ، وباتنة ، وقسنطينة ، ومركب عربات السكك الحديدية فى عنابة ، وغيرها ، مما لا يسمح المجال باستعراضه ·

8) تجربة التطوع الرائدة ، والفريدة من نوعها ، التى اصبح الشرق والغرب يقلد الجزائر فيها ، كما فعلت البرتغال بعد ثورتها لتطهير عاصمتها لشبـــونة من الازبال والاقذار ، وكما تفعل كوبا وغيرها .

ان تجربة التطوع بالجزائر ، عظيمة الاهمية والفائدة ، لاننا اصبحنا نحقق بهـا ما كان مستحيلا تحقيقه قبل اليوم ، وفى أقصر وقت كذلك ، كاستصلاح الاراضى ، وبناء القرى الفلاحية ، وشق الطرق المعبدة ، وتنظيف المـــدن والقرى من الاوساخ ، وتوعية الفلاحين باعمالهم الفلاحية ، ومساعدة الاجهزة الادارية فى الارياف والقرى على القيام بواجباتها فى خدمة المواطنين .

ومما يزيد فى روعة حركة التطوع عندنا اقبال عنصر الشباب والطلبة عليها بشكل تلقائى وجماعى بحيث أصبحوا يفضلونها ويفضلون قضاء عطلهم الفصلية فى الحقول والمزارع ، والقرى ، والارياف ، لاداء الواجب الوطنى ، بدلا من التسكع فى الازقـــة والشوارع ، أو التمتع بملذات الشواطى ، والمسابح ، والملاهى . ويكفى ان نذكر أنــه فى صيف هذا العام 1976 بلغ عدد الطلبة الذين شاركوا فى حملة التطوع سبعة عشر ألف طالب . انها لمفخرة حقا للجزائر تنبع من لب الاسلام الذى يدعو الى التعاون ويحث عليه فى كل تعاليمه .

9) تجربة الثورة الثقافية التى تستهدف محو الامية على الكبار ، وتعميم التعليم لكل الاطفال ، واحياء التراث الوطنى التاريخى واعادة الشخصية الجزائرية العـربية الاسلامية ، التى حاول الاستعمار الفرنسى مسخها وطمسها بكل ما أوتى من قـــوة ووســـائـــل .

وفى هذا المجال قامت الجزائر بانشاء ماآت وماآت من مؤسسات التعليم العام ، والتقنى ، وعشرات من المعاهد التيكنولوجية المختلفة الانواع والاشكال ، وعددا آخر من الجامعات العادية ، والعلمية ، والتقنية ، لتستطيع بها أن تواكب التطورات العلمية الحديثة . وقد أولت الجزائر أهميتها لقطاع التعليم والتكوين ، وخلق الخبرة الوطنية ، وخصصت ميزانية ضخمة لذلك يشهد بها الخاص والعام ، والعدو والصديق ، بدأت تعطـى ثمـــارها .

وما معركة التعريب الرائدة ، والناجحة ، الا مثل ونموذج ، لهذه الثورة الثقافية ، التى من نتائجها مشاهدة الملتقين بمركب الحجار للحديد والصلب ، تقنيين جزائريين يشرحون لهم ويوضحون المصطلحات العلمية والتقنية باللغـة العـــربية السليمة ،

ومشاهدتهم بقاعة المسرح البلدى لاطباء جزائريين ، يحاضرون ويناقشون باللغة العربية السليمة التى قد تكون احيانا أفصح من فصحاء رجال اللغة العربية نفسها ٠

وكما قلنا سابقا فان من لا يعرف مأساة الفرنسية ، وخطورتها فى بلادنا الجزائر ، لا يدرك أهمية هذا ولا يتصور مداه وأبعاده ، ولكننا نحن الجزائريين الذين اكتوينا بنارها ، وابتلينا بويلاتها ، نقدر هذا التطور غاية التقدير ، ونباركه ، وندعمه بكل طاقاتنا ، بل ونفخر به لكونه تحقق فى وقت وجيز جدا .

10) تجربة الطب المجانى ، وتعميم التلفزة ، والاذاعة ، وكل وسائل الاعلام الاخرى وايصالها الى كل المواطنين فى كل جهات البلاد مهما تكن بعيدة ، وأيا كانت الصعوبات والتضحيات ٠ وتطوير وسائل النقل والمواصلات الجوية ، والبحرية ، والبرية ، والحديدية ، والسلكية ، واللاسلكية ، لخدمة أغراض التنمية الاقتصادية القومية ، وتسهيل سبل العيش والحياة للطبقات الشعبية الكادحة ٠

11) تجربة انتخاب المجالس الشعبية البلدية ، والولائية ، والحزبية ، والعمالية ، تمكينا للشعب من المراقبة الذاتية ، ومن ممارسة المسؤوليات بنفسه ٠ ويستعد الشعب الجزائرى فيما بقي من هذا العام 1976 ، أن ينتخب أعضاء المجلس الوطنى التأسيسى ، ورئيس الجمهورية ليستكمل بذلك كل مؤسسأته الدستورية التى بدأها من القاعدة وبتؤدة ٠

12) وآخرا ، وليس أخيرا ، تجربة الملتقيات الفكرية الاسلامية التى تجمع الجزائر فيها حشدا من العلماء الاجلاء شرقا وغربا ، وأفواجا من الطلبة والطالبات ، والشباب والشيوخ ، للمناقشة والحوار ، وتبادل الآراء ، فى جو من الحرية الخلاقة ، والمبدعة ، وفى جو من التسامح واللياقة العلمية والفكرية الرائدة .

ان هذه الملتقيات الفكرية الاسلامية عبارة عن مدرسة تكوين ، وتعارف تنفق الجزائر بسخاء من أجل نجاح مهمتها التى تتمثل فى احياء التراث الاسلامى ، والفكر الانسانى ، وفى مناقشة المشاكل التى تعترض مجتمعاتنا الاسلامية ، وايجاد ، واقتراح الحلول المناسبة لها ، وهي دليل قاطع على عروبة الجزائر واسلامها بالنسبة للمتشككين فى ذلك ، وبرهان على تفتحها على الغير كذلك دون خوف ، وفى اطار الحفاظ على مقدساتها الحضارية والاسلامية ٠

ومما يثلج الصدر أننا نلاحظ تطورا كبيرا فى هذه الملتقيات كل عام ، سواء من حيث الشكل ، والاطار ، أو المضمون والمحتوى ، أو الفوائد المنجزه عنها .

لماذا يتعامى بعض اخواننا العرب عن التشخص الحقيقي لتجربة الجزائر الرائدة :

هذه هي المحاور الكبرى لتجربة الجزائر الرائدة ، وهي لا تحتاج الى أي دليل أو برهان ، لانها كلها عبارة عن ورش أعمال كبرى يجرى العمل فيها على قدم وساق ، بجد ونشاط وحيوية ، وصمت . والكثير من قادة العالم شاهدوها بأعينهم خلال ترددهم المستمر على الجزائر ، وحتى جماهير الملتقيات الاسلامية يشاهدون كل عام نماذج منها .

ومع ذلك يتعامى عنها « بعض » أقول « بعض » اخواننا العرب فى المشرق العربى ، ويغمطون حقهـا كما قال السيد الوزير مولود قاسـم ، ويعرضون عنها صفحـا ، ويتجاهلونها · فما السبب يا ترى ؟!

يبدو ويظهـر أنهم يفهمون اشتراكيتنا فهمـا معكوسا كما ذكـرنا ، ويقرنونها باشتراكية روسيا ، أو الصين ، أو كوبا ، أو غيرها o وهو فهم خاطىء ، ومقارنة غير موفقـة ·

كما أن البعض منهم يحسدوننا ، على ما يظهر ، على نهضتنا الجادة ، والسريعة ، والهادفة ، كما أوضح ذلك حسنين هيكل فى احـدى حماقاته ، ومهاتراته بعد هزيمة عام 1967 ، وبعد فك الارتباط وايقاف حرب الاستنزاف ضد اسرائيل عام 1970 ، عندما ذكر بأن الجزائر لا تهتم الا ببناء نفسها ، ناسيا ، ومتناسيا ، أن بناء الجزائر يعنى بناء مصر وكل بلد ان العرب الاخرى ، وان قوتها هي قوة للعرب كلهم ·

وأذكر أن الرئيس بومدين قد رد على مثل هذه الحماقات ، وأعلـن فى استجواب لاحد مندوبى احدى صحف المشرق العربى ، عن استياء الجزائر من تجاهل الاخوان العـرب بالمشـرق لتجـربتهـا الرائـدة وتحـداهم أن يثبتـوا أن أحـدا منهم قد مات فى سبيل الجزائر خلال ثورتها المسلحة بميدان المعركة ، فى حين أبنـاء الجزائر استشهدوا فى جبهة القتال وسينا ، وجبهة الجولان ·

وهذا لا يعنى أبدا أننا ننكر ونجعد المساعدات المادية التى قدمها اخواننا العرب لثورة الجزائر ، ولكن نقول لهم أن مثل هذه المساعدات المادية ، تلقيناها أيضا مـن المنظمات اليسارية الاوروبية ، وفى داخل فرنسا نفسها ، فضلا عن غيرها ·

كما ان هذا لا يعنى أبدا أننا نمنى عليهم ونتباهى · فاستشهاد أبناء الجزائر فى سينا ، والجولان ، أمر وَجب ومقدس ، يفرضه الواجب الوطنى ، ولا خير لنا فيه ، ولا فضل ، ولا نستحق عليه أي شكر ·

غير اننا مع هذا لا نستأهل أن تتجاهل تجربتنا ، وتتناسى ثورتنا التحررية الرائدة ويغمط أمرها بهذا الشكل ، فعلى الاقل ضعوها ضمن الثورات العربية .

ثورة الجزائر هي التى اعادت للعرب الثقة والاعتبار :

ان ثورة الجزائر هي التى اعادت الاعتبار للعرب ، والثقة بانفسهم بين شعوب العالم وهي التى رفعت رؤوسهم عالية بعد أن انتكست عشرات السنين تحت أقدام المحتلين الغاصبين من أفاقى أوروبا ومرتزقتها · وذلك لان ثورة الجزائر ليست ثورة عـادية ، من نوع الثورات التى عرفها المشرق العربى · وانما هي ثورة مليون ونصف مليـون شهيد ، وثورة سبع سنوات ونصفا من الكفاح المتواصل ليل نهار ، ذاق خلالها الشعب الجزائرى ما لم يذقه أي شعب آخر من الاذلال ، والتشريد ، وجحيم التعذيب · انهـا ثورة أعجزت الحلف الاطلسى بكـل خبراته وامكانياته المادية والعسكرية ، واطاحت لفرنسا سبع حكومات متتالية ، وحطمت لها الجمهورية الرابعة ، وفرضت عليها عزلة دولية فضيعة الى أن انقذها الجنرال دوقول بالاعتراف مرغما باستقلال الجزائر وحريتها انها ثورة كانت السبب فى تحرير معظم بلدان القارة الافريقية · وكانت رائدة لـواء الحرية والاستقلال فى عقدى الخمسينات والستينات من هذا القرن بلا منازع ·

اشتراكية الجزائر لا شرقية ولا غربية :

ان اشتراكية الجزائر التى يتحذر منها « كثير » من اخواننا العرب فى المشـرق وفى المغرب العربى هذه المـرة ، لا هي شـرقية شيوعية ، ولا هي غربية رأسمالية بورجوازية ، وانما هي جزائرية صميمة قلبا وقالبا ، أساسها لب الاسـلام ومبادئه السمحة ، وقوامها خدمة مصالح البلاد العليا وتحقيق العدالة التى يدعو اليها الاسلام بين كل المواطنين ، وهدفها جعل الانسان الجزائرى خاصة ، والعربى عامة ، يؤمـن بتاريخ وحضارة بلاده العربية الاسلامية ، وبالوحدة العربية ، والتضامن الاسلامى ، فى اطار تكافؤ الفرص ، واشاعة الحق والعدل والمساواة بين جميع البلدان العربية والاسـلامية ·

ان اشتراكية الجزائر تعنى بناء الانسان الجزائرى المسلم ، الطاهر ، النظيف ، الخالى من كل عقدة ، والمؤمن بامجاده التاريخية ، وحضارته الاسلامية ، والمعتـز بشخصية بلاده القـومية ·

ان اشتراكية الجزائر تعنى تطهير الاسلام من الخرافات ، والاباطيل والظلالات ، والبدع ، التى أدخلها فيه أدعياء الدين الآثمون . وتعنى بناء المساجد لعبادة اللـه وحده ، والمعاهد الاسلامية ، والجامعات ، وكليات الشريعة وأصول الـدين لتكوين أجيال مسلمة حقا ، ومؤمنة بحقيقة الاسلام وشريعته السمحاء الطاهرة ، والنقية .

وتعنى محاربة التحلل الخلقى ، والميوعة الغربية ، والافكار الاجنبية الدخيلة التى غزت عقول شبابنا فى عالمنا الاسلامى الواسع ٠

فأي شيء يضيركم فى هذا يا اخواننا العرب ، وأي شيء يجعلكم حذرين هكذا من اشتراكيتنا وتجربتنا ، علما بأننا لا ننشد آية زعامة ، ولا نؤمن بأية ديماغوجية ، ولا تستهوينا أية أغراض أو طموحات زائفة ٠

ان الجزائر تعيش كل أحداث اخوانها العرب :

اننا هنا فى الجزائر نعيش كل أحداث اخواننا العرب فى المشرق والمغرب العربى ٠ ونتأثر لها بصورة تلقائية ، ونتتبعها خطوة خطوة وباهتمام بالغ ، ونستخدم كـــل امكانياتنا المادية والمعنوية لشرحها وايصالها الى كل طبقات شعبنا ، ونعتبر هـــذا واجبـا قــوميا ٠

وفى مقابل هذا نلاحظ ان اخواننا العرب فى المشــرق العــربى لا يتكلفون حتى مجرد المتابعة الصحفية لاخبارنا فضلا عن ان يبحثوا عنها ، ويحللوها ، بل انهـــم لربما لا يقرأون حتى ما يهدى اليهم من كتب ، ودراسات ، ونشريات ، من قبلنا الا ما قل منهم طبعــا ٠

فاي تفسير لهذا يا ترى ! ! نترك الجواب لهم ، أما نحن فنعرفه جيدا ٠ بقي أن نقول لهم ان فكرة تقوقع كل بلد عربى ، وانطواءه على نفسه قد اخنى عليها الدهـــر وشرب ، كما أن فكرة : مصر أم الدنيا ، أو سرة الدنيا ، التى توحى بالتعاظم ، قـــد أخنى عليها الدهر وشرب كذلك واذا فلم يبق من سبيل سوى التعاون والتكامل بين كل اجزاء العالم العربى أولا ، والاسلامى ثانيا ، حتى نستطيع أن نقاوم ونواجه بجـزم وقوة ، وصمود ، جملة هذه التحديات الغربية الخطيرة التى تهدد كياننا من أساسه ، لقد آن الاوان لان ينصف بعضنا البعض ، ونضع كل الامـــور فى نصابها وامــاكنها الحقيقية ، ولا مخرج لنا غير هذا ٠

نقول هذا لان الجزائر قد اعطتها قضية مأساة شعب وأرض الساقية الحمــراء ووادى الذهب ، تجربة مرة فى علاقاتها مع شقيقاتها البلاد العربية المسلمة ، تلك القضية التى جامل فيها اخواننا العرب ، العرش المغربى الذى يعطيهم أى شيء ، وضحــوا بالجزائر وشعب الجزائر الذى قدم لهم كل شيء ٠

نهضة وتوحيد العالم الإسلامى

مقابلة مع
الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء
أستاذ الشريعة فى الجامعة
الاردنية ـ عمان ـ الاردن ـ
اجرى الحوار
الدكتور خير الله عصار



الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ، أستاذ الشريعة الاسلامية فى الجامعة الاردنية ، عمان (الاردن) ، صاحب أكثر من 12 مؤلفا تتكون من سلسلتين : قانونية وهى تدرس الآن فى دمشق منها « شرح القانون المدنى السورى » وفقهية ، هدف منها صاحبها الى صياغة الفقه الاسلامى بالطريقة الموضوعية المعروفة فى التأليف المدنى وعنوانها : « الفقه الاسلامى فى ثوبه الجديد » .

درس الدكتور الزرقاء القانون المدنى والشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق فى جامعة دمشق منذ عام 1944 ، وكان فى نفس الوقت رئيسا لقسم القانون المدنى فى

(*) نذكر دائما فى هذا الاطار وغيره ان ما ننشره لا يعبر بالضرورة عن آرائنا ، ونحن نرحب بكل رد أو تعليق فيه تصحيح أو تأييد . (الاصالة)

الجامعة وبعد تقاعده من الجامعة قام بمشروع لكتابة الموسوعة الفقهية فى الكويت لمدة 5 سنوات ·

لقد جمع أستاذنا فى دراساته بين الثقافتين الشرقية الاصلية والعصرية العامة وذلك فى اطار دراسته الثانوية والجامعية · فقد حصل على ليسانس فى الآداب وتعلم اللغة الفرنسية ، وهكذا أمكن له أن يكون تأليفا فريدا فى شخصه من عطاء الشرق وعطاء الغرب ·

تولى الشيخ الزرقاء وزارة العدل والاوقاف (الشؤون الدينية) فى سورية لفترات متفاوتة فى أيام الحياة البرلمانية · وشارك فى مؤتمرات علمية واسلامية عديدة فى شتى انحاء العالم : فى أمريكا ، والبلاد العربية والباكستان وفى « أسبوع الفقه الاسلامى » الذى عقد فى باريس عام 1951 والذى انبثقت عنه فكرة موسوعة الفقه الاسلامى التى ذكرناها أعلاه .

* * *

أظهرت لى محاضرة الدكتور الزرقاء وتدخلاته فى الملتقى العاشر للفكر الاسلامى عناية أنه فاهم ومتمكن من لب المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تواجه العرب خاصة والمسلمين عامة · وعليه اعتبرتها فرصة العمر الذهبية (بعد الجولة التعليمية التربوية الاسلامية التى قام بها فى الغرب الجزائرى) أن القى عليه أسئلة حول المشكلات الراهنة الكبرى التى تواجه العالم الاسلامى عامة ·

وبما أن المشكلات الكبرى التى تواجه العالم الاسلامى كثيرة كان الاختيار من بينها دقيقا للغاية · لقد ارتأيت أن مشكلتين رئيسيتين تشغلان بالنا أكثر من غيرهما وهما : مشكلة النهضة بالفرد العربى المسلم ومشكلة توحيد العرب والمسلمين · فاذا ما تحققتا أمكن لنا أن نشق طريقنا بين الامم فى هذا العالم العصرى الملتهب بالصراع .

* * *

السؤال الاول :

دكتور مصطفى : هل تعتقدون أن العالم العربى والاسلامى فى طريقه الى نهضة اسلامية شاملة تعيد تكوين الفرد تكوينا سليما يتوافق مع روح ومتطلبات العصر الحديث ؟ وما هي الشواهد على ذلك ؟

الجـــواب :

ان العالم العربى والاسلامى هو فى طريق تنوير وكسب فكرى اسلامى شـــامل يعتبر نهضة اسلامية من حيث التوعية والتجلية للمفاهيم الاسلامية الصحية وازاحة كثير من الاوهـام والشبهـات · والدليل على ذلك مـا صـدر ويصـدر من الكتابات والكتب الاسـلامية الحديثـة التى صححت ووضحت المعـالم الاسـلامية بأقـلام كثير من قادة الدعوة والفكر الاسلامى كالاستاذ أبى العلا المودودى ، والشيخ أبـى الحسن الندوى والاستاذ محمد المبارك ومحمد قطب وسيـد قطب وعبد القـادر عودة والشيخ محمد الغزالى ويوسف القرضاوى وكثير غيرهم ·

أما اعادة تكوين الفرد المسلـم تكوينا سليما يتوافق مـع روح العصـر الحديث ومتطلباته فهو أمر آخر يتوقف على أن يكون المسؤولون فى البلاد العربية والاسلامية يشعرون بمسؤوليتهم عن الاسلام وترسيخ مبادئه وروحه فى نفوس الناشئة وجعـل مناهج التعليم تخدم هذه الغاية وتؤدى اليها ، وازالة التناقضات بين المبادىء الاسلامية وواقع الحياة فى البيئات الاسلامية · وهذا ما لا أجد فى الافق بشائر تدل عليه ·

* * *

الســؤال الثـانى :

هل من اقتراح أو فكرة ترتأونها من أجل توحيد العالم الاسلامى حول نظام اسلامى عصرى متكامل وكيف يمكن أن يتم ذلك ؟

الجـــواب :

توحيد العالم الاسلامى حول نظام اسلامى عصرى متكامل لا يتـم الا اذا أدرك المسؤولون فى العالم الاسلامى ضرورته عقيدة وسياسة ، وعرفوا ان مصالحهم ومصالح بلادهم التى هم مسؤولون عنها تستدعى هذا التوحيد وتتوقف عليه · وان الكـوارث التى أصابت العالم الاسلامى بمكر أعدائه وتخطيطاتهم الخبيثة قد نبهت بعض الشىء الى هذا الادراك فوجدت فكرة التضامن على مستوى الـدول وقاداتها بدعـوة الملك فيصل رحمه الله ، فناهضته بعض زعامات عربية وقاومته بعنف وافتراء وضراوة لاسباب ودوافع أنانية ·

اما الطريق الذى أقترحه والصيغة التى تجعل هذا التوحيد مستساغا وغير متعارض مع المصالح الذاتية والاقليمية التى هي من أكبر الحوائل دونه فهو تأليف مجلس قمـة

اسلامى يكون له اجتماع دورى نصف سنوى يكون فيه جميع الرؤساء والملوك على قدم المساواة ، ويكون هذا المجلس قائما على أساس نظام شبه فيدرالى ولا يحول ذلك دون اختلاف النظم وبقائها داخليا كما هي ، على أن يكون لهذا المجلس برأي أكثريته حق بحث الاوضاع الداخلية لكل دولة من أعضائه وتقرير تعديل ما يتنافى منها مع المبادىء الاسلامية والتضامن والتكامل . وأن يكون الى جانب مجلس القمة هذا مجمع فقهى من كبار علماء العالم الاسلامى المستنيرين ليكون مرجعا اسلاميا يرجع اليه المجلس فى الاجتهاد الجماعى فيما يتعلق بموقف الاسلام من قضايا العصر والساعة .

* * *

السؤال الثالث :

ما هي انطباعاتكم العامة حول الملتقى العاشر للفكر الاسلامى وحول رحلتكم عبر الغرب الجزائرى ، والجزائر بصورة عامة ؟

الجواب :

كان الملتقى العاشر فى نظرى أحسن وأنجح من كل الملتقيات السابقة وكلها ناجح وكان له أثر عظيم على مستوى القطر الجزائرى كله ، كما تبين لى فى رحلتى الى الولايات الغربية والقاء عدد من المحاضرات فى مراكزها ، فقد كنت أجد أخبار الملتقى وبحوثه وآثار مناقشاته على كل شفة لسان عن طريق وسائل الاعلام المختلفة التى كانت تنقل أو تنشر وقائعه .

واذا كان هذا الاثر الكبير لهذا الملتقى العاشر لدى جمهور الشعب المثقف ، فكيف بالطلاب والطالبات الذين كانوا من حضور الملتقى المسجلين فيه ، وقد بلغ عددهم أكثر من ألف وثلاثمائة من مستوى السنوات العالية فى الدراسة الثانوية والمستوى الجامعى ؟

ولاشك ان هذه الملتقيات التى تقوم بها وتقيمها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بهمة وزيرها السيد مولود قاسم هى فريدة من نوعها فى البلاد الاسلامية عامة حيث تتيح لهذه المستويات من الناشئة أن يتلقوا البحوث والمعلومات الاسلامية عن أصالتهم وحضارتهم وشريعتهم وتاريخهم وتراثهم ، وما يتبعها من مناقشات وتمحيص وازالة شبهات بأقلام وألسنة كبار رجال العلم والفكر الاسلامى مما لا يتمكنون

من سماعه ومعرفته طوال حياتهم لولا هذه الملتقيات · فالشكر الجزيل لوزارة التعليم الاصلى ولكل من يدعمها فى هذا السبيل من المسؤولين فى الجزائر الحبيبة ·

ومن أعظم ما أثار اعجابى فى هذه الرحلة التى قمت بها الى الولايات الغربية لالقاء بعض المحاضرات الاسلامية فى مراكزها ، والتى كان أقصاها ولاية وهران ثلاثة أشياء تركت فى نفسى أجمل الانطباعات ، وأحسن الآثار ، وأثارت تقديرى الكبير ، وهي :

أولا : هذه المدارس الثانوية الجديدة التى تنشئها وزارة التعليم الاصلى فى مراكز الولايات ، كثانوية وهران ، وثانوية مدينة الاصنام ، وثانوية العاصمة هنا ، وهي لم تكتمل بعد ، وستكون من الفخامة والتجهيزات والسعة بحيث تتناسب مع مكانة التعليم الاصلى فى بلد اسلامى عظيم كالجزائر · فهذا عمل فريد من نوعه فى البلاد الاسلامية ·

ثانيا : تلك النهضة الزراعية الشاملة ، وحملة المتطوعين من الطلاب والشباب فيها لتوعية أهل القرى ومعاونتهم العملية بالعلم والسواعد والارشاد والفوائد ·

ثالثا : هذه القرى النموذجية التى يتم تنفيذها فى هذه الخطة الرباعية الثانية فى مشروع (الالف قرية) ، مثل قرية الشهيد بن برناص فى ولاية سيدى بلعباس ، وسواها وفى كل قرية مسجد ، فانها فى هندسة مساكنها ومرافقها ونظامها نموذجية حقا ، وترفع من مستوى الحياة فى الارياف رفعا يتناسب مع ما يجب أن تكون عليه ، فى بلاد من الله عليها بهذه الطبيعة الفتانة والسخية الخصبة كالجزائر

* * *

السؤال الرابع :

علمنا بأنك قد سجلت بعض أبيات من الشعر ، بعض الذكريات واللقاءات والانطباعات عن رحلتك الى الولايات الغربية والقائك بعض المحاضرات الاسلامية فى مراكزها ، فهل لك أن تتكرم بها علينا لنشرها فى مجلة « الاصالة » ؟

الجواب :

لقد كنت كبير الغبطة بما أتيح لى فى هذه المرحلة من مناظر ولقاءات ، فقد صادف ذلك انعقاد بعض الملتقيات الولائية ودعيت اليها والقيت فيها بعض كلمات ·

وكان اعجابى كبيرا بمدينة وهران · وحينما جئنا مدينة أرزيو التى أصبحت الآن مرسى هاما لصناعة السفن جمعنا عشاء حافل فى مطعم بحرى أنيق مع عدد كبير من

المديرين ونائب المحافظ فى وهران ، بصحبة الاستاذ الجليل البحاثة الشيخ المهـــدى بو عبدلى (عضو الملتقى العاشر للفكر الاسلامى) فانه من أهـــالى أرزيـــو ، وكذلك فضيلة الاستاذ العامل الشيخ عبد القادر الزبير مدير التعليم الاصلى بوهران ، وقــد سجلت فى صبيحة تلك الليلة انطباعاتى عن هذا اللقــاء الكريم بالابيات التالية التى ودعت بها مدينة وهران ، وأعتبرها الآن كذلك وداعا للجزائر الحبيبة وأنـــا أغادرها عائدا هذا اليوم باذن الله تعالى :

مشـــاعـر وانطبـــاعـــات

عن ليلتنا فى مطعم مدينة أرزيو البحرى وعشائنا الشهي فيه ، بمناسبة المحاضرة التى ألقيتها فى أرزيو فى برنامج جولتى فى الولايات الغربية بالجزائر الحبيبة :

وليلــة أنس بالجــزائر كان لى — بها مجلس ضـــم الافارقة الغـرا
لقــاء بظهــر الغيــب غير مــؤمل — على مطعم فى أرزيو تـــوج البحرا
أفاضوا علينــا فى الضيافة جودهم — ومدوا به من حولنا الكـــرم الغمرا
تــلاقى بـــه شـــرق وغـــرب كأننا — نعــانق فى عليائها الانجم الزهـــرا
على رأســه المهـدى بوعبدلى الذى — سمــا فضله فى قومـــه وسمــا قدرا
وفتية صــدق فى الجزائر ســادة — رجال جهــاد البسوا هامه فخـــرا
وقد زاننــا الشيخ الزبيـر بلطفــه — وكان نظام العقد أكـــرم به حـــرا
أصيــل بأعبــاء الاصــالة نــاهض — بوهران أضحى جـــده الآية الكبرى
همـــام رؤوب مخلــص لرســالــة — حباها ووفاها الامــانــة والصبــرا
وداعا أيا وهران من قلـــب معجب — بسحر مغانيك التى تبعث الشعـــرا
وراع فتى أبقى من الحب والهـــوى — على أرضك الغنــاء مهجتــه الحرى
اذا درســت فى أنفس ذكريــاتهــا — ستخلــد فى نفسى لكــم هذه الذكــرى

وهران 30 من رجب 1396 هـ 28/7/1976 م .

ظلال فى الملتقى الثامن

صلاة العصر فى قلعة بنى حماد

أنــور الجنــدى

كاتب وعضـو المجلس الاعـلى
للشؤون الاسلامية بالقاهرة



مقـدمـة

فى الفصل الخاص بما نشر عن الملتقى الثامن للفكر الاسلامى الذى أوردنا فيه احـاديث ومقـالات فاتنا ـ لاسباب فنية بحتة ـ مع عميق الاسف ادراج شيئين هامين :

احدهما : هو اسـم الصحفى الكبـير ، الصديق الاستاذ صبرى أبو المجد رئيس تحرير مجلة المصور فى آخر مقاله المنشور بمجلـة المصـور بتاريخ 12 ابريل 1974 عدد 2583 . والمنشور فى الصفحة 1539 من المجلد المذكور من كتاب الملتقى الثامن للفكر الاسلامى .

والشىء الثانى : المقال القيم الذى نشره الاستاذ الكاتب الكبير والصحفى المعروف أنور الجندى (مصر) فى العدد الصادر فى شهر رجب 1394 (غشت 1974) من المجلة المغربية (دعوة الحق) ونحن اذ ننشر المقالين القيمين فى هذا العدد مـن الاصالة ، نعتذر للاستاذين الكبيرين وللسادة القراء ، ونعد بتدارك خطئنا وذلك بضم المقالـين الى الطبعة الفرنسية التى ستصدر قريبا ، والى طبعة عربية جديدة ان شاء الله .

كما ناسف عن عدم ادراج اسماء السادة : محمد فارح ، وعبد المجيد أبو حديـد ، وعاطف يونس ، ومحمد بليدى ، وعبد القادر الادريسى ، وبول بالطا ... ونعتـذر اليهم ، ونقوم بنفس التدارك فى المستقبل .

عندما وصلنا الى قلعة بنى حماد كان وقت العصر قد آذن ، فكان لابد ان نحتفظ بهذه الذكرى التى لا نظن انها ستتكرر مرة أخرى لرجل جاء من المشرق ليشارك فى الملتقى الاسلامى الثامن الذى عقد فى ولاية بجاية وكان من اهدافه دراسة مساهمة بجاية الحمادية فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، ولذلك فما لبثنا ان اقمنا صلاة العصر على هذه الربى بينما كان زملاؤنا يقتحمون القلعة ويصعدون الى منارتها العالية وكنا قد انطلقنا منذ الصباح الباكر الى هذه الرحلة فوصلناها بعد مشقة شديدة قريبا من الغروب بعد ان مررنا بمدينة سطيف وتناولنا الغداء عند عائلاتها ٠

ومن الحق ان يقال اننا فى كل خطوة كنا نخطوها كنا نجد معالم التاريخ الحافل ونستمع الى خيوط من تراث عزيز طالما قرأنا عنه فى الكتب وها نحن نراه اليوم واقعا حيا ٠

وفى الطريق الى قلعة بنى حماد مررنا بذلك الوادى المخيف الذى يطلقون عليه (وادى الآخرة) وذلك حتى لا ينزعج الناس اذا اطلقوا عليه (وادى الموت) ٠

فقد كانت جباله العالية وخطوط طريقه المتعوجة واغواره العميقة تملأ النفس حقا بالخوف والعجب لهذه المنطقة الحافلة بكل عوامل الخطر وتبارك الله رب العالمين الخالق الذى جمع بين الجبل الاشم والوادى العميق والصخر الاحمر والارض السندسية الخضراء ٠

ولقد كانت هذه الصور غريبة حقا على امثالنا ممن عاشوا فى الوادى الاخضر لا يقتحمون الجبال الا نادرا ، أو اذا مروا بها وجدوها جرداء ، مقفرة لا نبت فيها ولا ماء ، اما هنا فى الجزائر فالامر جد مختلف ، هذه الجبال العالية خضراء جد مزدهرة ، ومن حولها الاودية كالبساط الزاهر ، ومن حول ذلك كله غابات واشجار ومياه وعيون وصدق الله العظيم : «**وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار** » ٠

وفى ظل قلعة بنى حماد يكشف التاريخ الاسلامى صفحة من ازهى صفحاته عندما كان حماد بن بولغين حاكما للمغرب الاوسط بإسم دولة بنى زيرى ، منذ عام 398 هـ . ثم بنى هذه القلعة واتخذها عاصمة للمملكة وقد تم هذا فى نهاية القرن الرابع وقد

ظلت هذه المدينة عاصمة للمملكة الحجازية زمنا كانت خلالها أهم مدينة فى المغرب كله واليوم يجرى اصلاح هذا البرج الضخم وترميمه حتى يكون آية من آيات الفن المتجدد الذى يجرى بالنسبة لكل تاريخ هذه البلاد وآثارها ٠

وسواء ذهبنا الى آخر هذا الطرف حتى سطيف أو ذهبنا الى وادى الصومام من الطرف الآخر فان مناظر الازدواج بين الجبال والبحر والوادى الاخضر متفرقة وملتقية متعانقة ومنفصلة هى طابع الرحلة ٠

أى روعة تلك فى هذه المناظر الخلابة فى بطن الوادى وقد تدفقت الامطار فـــوق الجبال وأخذت تتسرب من خلال فتحات ومسارب ما تزال تتقاذفها منحدرة الى الوادى حتى تصل الى نهر الصومام فاذا هو بعد قليل يفيض ويمتلىء ، بالمياه الحمراء المتدفقة فى طريقها الى كل مكان وهى تحمل الغرين الاسود ٠

حقا لقد كان يوما حافلا عندما انطلقنا تجاه وادى الصومام بالحافلات الضخمـــة ، وأخذت السماء تمطر فى غزارة ، ولكن الجو كان دافئا ، ولقد ظلت الحافلات تصعـــد بنا فى طرق ممهده ولكنها حلزونية حتى وصلنا الى ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر وما تزال الجبال فوقنا شامخة ٠ ومن الجبل الى السهل فالسهل فى قلب الجبل ، والجبال مخضرة مليئة بالغابات ، وقممها شامخة بيضاء كعمائم العرب وقد كستها الثلـــوج ، مجموعة من السلاسل المتداخلة من الجبال بينها الوادى الاخضر ، ومجارى النهر ، ولقد ترى وأنت فى أعلى قمة الجبل واديا منخفضا أمامك ثم ترى الجبال العالية الاخرى من بعدها محيطة بك من كل جانب ٠

ترى وأنت فى أعلى قمة الجبل واديا منخفضا أمامك ثم ترى الجبال العالية الاخرى من
الاسلامى الرحمة ٠

ولقد كان نهر الصومام مرافقا لنا طول الرحلة فهذا هو واديه الواسع ، نراه ثـم يختفى ثم يعود ثانية ، كان فى الصباح ضحلا تبدو صخوره واحجاره ٠ فلما عدنا فى المساء كان قد امتلأ بالماء وازبد وتدافق فى قوة ، لقد تلاقت العيون المتدافقة من أعلى الجبال فى مسارب متعددة ثم اختفت تحت الطريق الذى تمر عليه الحافلات فاذا بها

تتجمع فى رواق أكبر وأكبر جياشة بالمياه الحمراء ، حتى بلغت النهر نفسه الذى دبت فيه الحياة وجاشت وعلا موجه وزبده وهديره فذكرنا قدرة الله القادر ، الذى أحيا الارض بعد موتها ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وما رأيت كيف تفسر هذه الآية الا فى مثل هذا المنظر الباهر الذى لا نعرفه نحن فى المشرق أو فى مصر على الخصوص : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا » لقد جرف السيل أمامه كل شىء وجاء رزق السماء واسعا وفيرا وامتلأت قلوب أهل وادى الصومام بالفرحة التى جاءت مع وفد الملتقى الاسلامى ٠

كانت هذه الصورة خارج الحافلة ، أما فى داخلها فقد كانت حلقة علم وتاريخ تترامى فيه أسماء الاعلام ووقائع الاحداث كلما مررنا على موقع منها مشخصا اسماء يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وابن تومرت ، وفى ملاله حين ملتقى عبد المؤمن مع ابن تومرت كان منطلق الدولة الموحدية وفى صدوق مسقط رأس الشيخ الحداد الذى قاوم الاستعمار الفرنسى وفى افرى حيث انعقد مؤتمر الصومام عام 1956 كان هناك أعلام فى تاريخ الجزائر والمغرب كله فى مقدمتهم شيخ المؤرخين ومؤرخ الحضارة الاسلامية على الخصوص : عثمان الكعاك ، ومحمد الفاسى صاحب الابحاث الواسعة عن احداث المغرب القديم والوسيط وكان المهدى بوعبدلى هذا الرجل الذى كان يتحدث عن هذه البلاد وكان عاش تلك الفترات عارفا برجالها وما ورد فى الكتب عنها وما نشر فى المغرب أو فى المشرق ، والشيخ سليمان داود الذى كان يعرض من الجوانب ما يكشف عن أعماق التاريخ وكان هناك مولود قاسم نفسه هذا الوزير العلامة حقا ، الذى كان يصحح ويدقق ويستكمل الجوانب من كل ما يعرض وما يقدم وكان الاستاذ مصطفى بعيو الوزير والمؤرخ الليبى ، وكان الشيخ عبد الله الشماحى القاضى اليمنى فكاهة الندوة ومجلاها فى الشعر والادب أما مفدى زكرياء شاعر الثورة الجزائرية فكان يذكرنا بشعره الرصين دوما بتلك المواقف الحاسمة من جهاد الجزائر ٠ ولقد حدثنا الوزير مولود قاسم عن ثورة الشيخ الحداد : هذه الثورة التى استمرت الى عام 1910 ، وكان الشيخ الحداد فى الثمانين من عمره وقد جاء اليه محمد المقرانى الذى قاد الثورة المسلحة ووجد فى الشيخ سناده الروحى حيث كان الحداد شيخ الطريقة

الصوفية الرحمانية مقيما فى زاويته قال المقرانى : جئناك لنعلن الجهاد على فرنسا . قال الحداد : ان الامر يتطلب اعدادا واستعدادا ... قال المقرانى بل فى الحين ، فوافق الشيخ على مضض وقال : دعوتك هذه مشؤومة ، ولكن سنقوم بها ، وقد كان المقرانى يظن الشيخ الحداد من أولياء النعمة والمطمع على النحو الذى عرف عن بعض رجال الطرق غير انه لما ازاح الشيخ الغطاء عن الطعام الذى قدم لـه لم يكن فيه غير زيت وجبن وشقة خبز ، وكان هذا كل ما يأكله الحداد ، هناك تبين المقرانى ان الحداد ليس رجل دنيا واندلعت الثورة وأعلن الجهاد (8 أبريل 1871) ولما قدم للمحاكمة صدر الحكم عليه بالسجن خمس سنوات فقال : أنتم حكمتم على بخمس سنين وأنا حكمت على نفسى بخمسة أيام ثم مات بعد الايام الخمسة ودفن فى قسنطينة بجوار الامام عبد الحميد بن باديس .

ولقد أشار الوزير مولود قاسم بعد ان استعرضت ندوته الحافلة تاريخ بجاية وسبب سقوط دولتها : الى مضمون هام هو غاية القول فى سقوط الحضارات : قال لقد ذكر ابن خلدون بكل وضوح الاسباب التى مهدت لانهيار دولة بنى حماد وهى نفس الاسباب التى وقعت بالنسبة لدولة المرابطين وبقايا الزيريين فى تونس ونفس اسباب سقوط الموحدين ، وهى نفس الاسباب التى قضت على الدولة الفاطمية والعباسية ، وبابل واشور وقرطاجة وأثينا .

هذه الاسباب هى الانحلال الذى يعقبه الاحتلال مستشريا وكيف كان النساء يتصرفن فى شؤون الدولة وكان الرجال قد تخنثوا ، يخرجون للصيد ويستمعون للموسيقى . غناء وحداء بشعره وخده وما شابه ذلك . هذا هو الوضع الذى كانت فيه دولة الحماديين ، وهذا هو الوضع الذى كان عليه الموحدون بعدهم .

هكذا انقلبت الاوضاع وانعكست وهذا يؤدى الى النتيجة المحتومة . لقد تأنث الرجال واسترجلت الاميرات وكان ما كان ، وان كان ليس من الضرورى أن يعيد التاريخ نفسه تماما ، فعلينا أن نستفيد من ماضينا وماضى الامم ، وان كانت قد بنيت قبل أن تلهو فان خراب بنائها يعقب اللهو مباشرة . وبمثل هذه المناقشات الجادة

المثرية مضت ساعات طويلة بين بجاية ووادى الصومام مرة وبين بجاية وقلعة بنى حماد مرة أخرى واتصل هذا بالنقطة الثالثة من مواد الملتقى الاســلامى الثامن التى ركزت عـلى دور بجايـة الحمادية فى الفكر والحضارة الاسلاميين والعالميين وأسبـاب وآثار انحطاطهما • وتلك سنة طيبة استنها وزير الاسلام فى مختلف المؤتمرات وهو التركيز فى نقطة هامة من النقط على ولايـــة من ولايات الجزائـر : ومن قبل تناولت الابحاث قسنطينة وتيزى وزو ووهران وفى العام القادم تتركز الابحاث على « تلمسان » ومن خلال هذا يثرى البحث العلمى تاريخ الجزائر كله بهذه الدراسات المكثفة وقـــد وزع علينا هذا الكتاب التاريخى المصور الانيق عن بجاية الـذى أثار الانتباه حتى سألنى زميـلى الصحفى الاستاذ صبـرى أبو المجـد عما اذا كان لدينـا فى القاهـرة متخصصون على هذا النحو !

ولقد كانت هذه هى زيارتى الاولى للجزائر بعد ان عشت معها بالعلم والقلم والقلب سنوات الكفاح الطويلة وسنوات الثورة الظافرة •

ولا ريب كانت دعوتى لزيارة الجزائر مصدر فرحة روحية كبرى وكنت عشت هذه الملتقيات الاسلامية من قبل بالروح والفكر فقد أتيح لى أن أطالع ما نشر من مناقشات ومحاضرات وعرفت كيف تقدم الى الفكر الاسلامى اضافات ذات بال ستكون بعيدة الاثر فى دراساته ومفاهيمه • وقد كان قلبى يخفق وأنا فى الطائرة الى الجزائر بحب عدد من الاعلام الذين عرفتهم وأحببتهم وتعلمت عنهم من أمثال الامام عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الابراهيمى ومالك بن نبى والفضيل الورتلانى وكنت قد درست الحياة الثقافية فى المغرب العربى كله (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) حينما ألفت كتابى (الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقيا) منذ بضعة عشر سنة ودرست جهاد جمعية العلماء وفى مقدمة رجالها ابن باديس والابراهيمى والمدنى والميلى والتبسى وغيرهـم من الرواد وان حز فى نفسى ان جريدة الشعب تجاهلت موضوعى الذى قدمته الى رئيس تحريرها بمجرد ان وطئت قدماى أرض الجزائر تحية للجزائر والملتقى ، ولست أدرى لذلك سببا واضحا •

نعم لقد وصلنا الى الجزائر ومنها قصدنا الى بجاية ومن خلال رحلة الطائرة كان البحر الابيض مصاحبا لنا فى نتوئه وشواطئه وجباله على نحو يسعد النفس ويملأ القلب فرحة لامتداد ذلك الشاطىء الاسلامى حيث يلتقى الجبل بالبحر والسهل بالصخر ، وحيث الجبال العالية مكسوة بالخضرة الدائمة والاشجار الباسقة ·

لقد عشت فى هذه الايام رحلة الفكر وعبرة التاريخ وصورة الحاضر ، ووجدنا الجزئر تبنى حياتها من جديد فى نشاط وعزيمة قوية وتتحرك نحو النهضة والتقدم فى اطار مفهوم الاسلام الصحيح ، وقد تعالت صيحة اللغة العربية فبدت على كل لسان ·

وأعطانا فندق الحماديين فى بجاية حيث نزلنا صورة التجدد والمحافظة فى اطار واحد ، فهو مبنى على صورة القلاع التاريخية الاسلامية وفى داخله تجد النموذج الجزائرى المغربى الاسلامى القديم : وبالرغم من التقدم العصرى فى كل مجال البناء والهندسة والخدمة ، أجد أمامى هذه (الغازة) الجميلة المصممة على الطراز الجزائرى القديم ، وتحت المادة وعاء من الحوض وهناك الطاقة القديمة والخزنة الخشبية ، ولقد أمضيت ليلتى أمس أستمع الى هدير البحر واصطخاب موجاته وهو يضرب فى جدار الفندق الضخم ·

ومن خلال هذا الملتقى تعرفنا على العشرات من الاعلام من شرق الارض وغربها ، نماذج متعددة من اليابان واليمن والهند وايران ومن ايطاليا وفرنسا واسبانيا والمانيا ، كلهم جاءوا يتحدثون عن الاسلام ويشاركون فى البحث عن حضارته وفكره ويدلون بدلائلهم من حول الاصالة والمعاصرة · ومجال الحوار مفتوح ، فما تنتهى محاضرة باحث فيهم حتى يفتح باب التعليق والتعقيب ، فتضاء كل المصابيح ، وتتكشف كل الحقائق وهناك رجال فى الجزائر يقظون حذرون لا يتركون خطأ أو انحرافا دون أن ينهوا عنه واذكر فى مقدمتهم : الشاذلى مكى وأحمد حمانى ورشيد ابن عيسى ، هؤلاء ركائز من النواحى التاريخية والفقهية والدراسات الحديثة ، أما الوزير فانه يقظ لا تفوته كلمة ولا يتجاوز عن الحق متحدث أمامه ، بيده الضوابط التى تكفل حماية البحث من الانحراف ، ورده الى الاصالة اذا أعوزه الامر ·

ولقد تحدث المتحدثون عن حضارة بجاية وقالوا كل ما عندهم عن علوها وسقوطها ، ولكنهم غفلوا عن حقيقة أساسية فلم يلبث الا أن تقدم الى المنبر بعد ان انتهوا ليكشف هذه الحقيقة ويصحح الموقف ويضعه فى الاطار الصحيح ·

لقد كانت رحلة الملتقى الاسلامى الثامن بعيدة الغور فى آماد التاريخ وفى أعماق الفكر وفى آفاق البحث جميعا وكانت ثروة ضخمة للمفكر والباحث والمؤرخ والصحفى من خلال اثنى عشر يوما من العمل الدائب والنظر المتصل على نحو لم نشهده فى كثير من مؤتمرات البحث أو ندوات الدرس · مما يجعلنا نعتقد بحق ان الملتقى قد أضاف
من مؤتمرات البحث أو ندوات الدرس مما يجعلنا نعتقد بحق ان الملتقى قد أضاف

رسالة جامعية في
فكر المعتزلة

د. أبو عمران الشيخ
جامعة الجزائر



1 ـ موضوع الرسالة :

تتناول الرسالة مشكلة الحرية الانسانية فى فلسفة المعتزلة .

تساءلت من زمان عن أسباب تأخر مجتمعاتنا العربية الاسلامية منذ عصر ابن خلدون الى القرن التاسع عشر وتراءى لى أن الاسباب هذه تعود الى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية غير أن مفهوم الحرية الانسانية الذى هو من العوامل الثقافية

(*) ناقش أخيرا الاستاذ أبو عمران الشيخ من جامعة الجزائر رسالة لنيل دكتوراه الدولة كان موضوعها : « مشكلة الحرية الانسانية فى فلسفة المعتزلة » .
ونال بها شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون (باريس) بدرجة ممتازة جدا . وبهذه المناسبة طلبنا منه أن يلخص بحثه لقراء « الأصالة » وهذا نص التلخيص .

الاساسية ، ومدى مسؤولية الانسان واجتهاده المبتكر قد استرعى انتباهى بصفة خاصة لكون هذه المسالة لم يولها الباحثون كل عنايتهم ما عدا بعض المقالات الصادرة هنا وهناك فى مجلات قليلة اذ يتعذر على الدارس اليوم العثور على دراسة شاملة لهذا الموضوع مع أنه قد شغل بال مفكرين كثيرين من العصر العباسى الى عصر النهضة الحديثة • وحتى نضمن لدراسة هذه المشكلة ما تستحقه من العناية ركزنا بحثنا على مدرسة فكرية معينة وهى مدرسة المعتزلة وتتبعنا تطور قضية الحرية الانسانية منذ ظهور المعتزلة وانتشار آرائهم فى المشرق والمغرب • وقد اخترنا المعتزلة لانهم سبقوا غيرهم الى وضع مشكلة الحرية فى اطارها الصحيح •

2 ـ آراء المعتزلة الاساسية فى حرية الانسان :

ان المعتزلة يمتازون بنظرتهم العقلية ومنهجهم النقدى ومن أجل ذلك سماهم بعض الباحثين الغربيين ـ وهم يبالغون نوعا ما فى ذلك ـ « المفكرين المتحررين فى الاسلام »• وقد حاولوا ـ فى الحقيقة ـ أن يجدوا لتفسير قضية الحرية الانسانية حلا وسطا بين نظريتين متناقضتين : نظرية الجبرية الذين ينفون هذه الحرية نفيا مطلقا والنظرية التى تقول بالحرية الشاملة • وأشهر مفكرى الاعتزال أبو الهذيل والنظام والجاحظ ولهم أتباع كثيرون قد توسعوا فى شرح آراء شيوخهم ودعموها بأدلة جديدة •

وتتلخص هذه الآراء فيما يلى :

ان الانسان حر فى تصرفاته ومسؤول عن أفعاله ، فهو ليس لعبة للقدر كما يدعى بعضهم وليس كذلك أداة مسخرة للارادة الألهية اذ الارادة هذه لا تظلم الانسان فى شىء وانما هى تتصرف بحكمة وعدل ومن الحكمة والعدل أن يجاز الانسان على أعماله ، الامر الذى يقتضى حرية أفعاله وحرية اختياره وتحمل مسؤوليته • وبهذا الموقف عارضت المعتزلة استبداد الامويين الذين زعموا أن سلطتهم مصدرها الارادة الالهية مع أنهم اشتهروا بالظلم والطغيان ، ولا يعقل فى نظر المعتزلة أن تسند هذه السلطة الظالمة الى الارادة الالهية ويتضح من هنا أن المعتزلة اهتموا بنظام الحكم الذى تعرضوا اليه تحت عنوان « الامامة » •

ومن شروط الامامة ذكروا العدالة والعمل بمبدإ الشورى · فهم لا يعترفون بعصمة الامام ولا بالحكم الوراثي لان الامام في رأيهم مسؤول عن أفعاله ولا يجوز له أن يتخذ الارادة الالهية ذريعة لتبرير أخطائه · ولذا جعل المعتزلة من حق الامة مراقبة الامام كما أثبتوا لها حق التمرد عليه أو عزله اذا استبد وطغى ·

وكان من الطبيعي أن يعارض هذه الآراء الجريئة الجبرية والسلفية من جنابلة وأشاعرة وغيرهم. وتسببت هذه المعارضة في تشويه آراء المعتزلة واتلاف الكثير من كتبهم ومخطوطاتهم وظلت كتب خصومهم ــ لمدة طويلة ــ المصدر الاساسي لمعرفة الاعتزال ولم ينصفهم الا عدد قليل من المؤرخين واستمر الامر هكذا الى أن اكتشف الباحثون مخطوطات هامة للمعتزلة في عصرنا هذا ــ ومن أهمها المخطوطات المكتشفة باليمن والتي شرع في طبعها ونشرها منذ سنة 1962 ــ وأصبح اليوم من اليسير على الباحثين أن يدرسوا كتب المعتزلة دراسة موضوعية تنزل هؤلاء المفكرين منزلتهم الحقيقية ·

3 ــ مختصر ما جاء في الرسالة :

تشتمل الرسالة على خمسة أبواب :

ــ الباب الاول : تناولت فيه أصول نظرية المعتزلة في قضية الحرية الانسانية وعلاقتها بالفلسفة اليونانية من ناحية وبالفكر العبري ــ المسيحي والنظرية الهندية الايرانية من ناحية أخرى ·

ــ في الباب الثاني : تعرضت الى نظرية القضاء والقدر عند الجبرية وانتقاد المعتزلة لها ·

ــ في الباب الثالث : بينت أن الانسان حر في نظر المعتزلة ومخير في تصرفاته وعليه فانه يتحمل تبعات أعماله ·

ــ في الباب الرابع : حللت علاقة العقل بالحرية الانسانية ·

ــ في الباب الخامس والاخير استعرضت انتشار الاعتزال في المشرق والمغرب وحاولت ابراز تأثيره في اصلاح مجتمعنا ·

4 ـ أهمية الاعتـزال فى عصرنا الحاضر :

يمكننا القول بأن آراء المعتزلة قد أثرت الى حد كبير فى مدرسة الافغانى وعبده ومحمد اقبال وغيرهم ·

ومما يدل على مكانة المعتزلة أن اهتم اليوم الكثير من الباحثين الشرقيين والغربيين بدراسة الاعتزال مبرزين أهميته فى وقتنا الحاضر ·

وقد أقرت العلوم الحديثة صحة نظرية المعتزلة التى أثبتت ان الانسان حـــر فى تصرفاته الاختيارية من ناحية ، ومقيد بما يصدر عن القوانين الطبيعية من ناحية أخرى ·

وفى الختام فاننا نأمل أن تتعدد البحوث فى موضوعات الاعتزال المختلفة وذلك بغية التعرف بصورة أوســـع على مدرسة المعتزلة التى تحتل مكانا بارزا فى ثقافتنا قـديما وحـــديثا ·

منشــــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيــة

صــدر أخــيرا :



بهذه الفتوى اقتحم الاسلام باب التصنيع الحديث

نص الحديث الذى أدلى به السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، لرئيس التحرير الملحق الثقافى لجريدة « المجاهد » اليومية الصادرة بالفرنسية ، السيد مولود عاشور ، وتولت « الأصالة » ترجمته .



س ـ ما من شك يا سيادة الوزير أن الفتوى التى صدرت لصالح عمال مركب الحديد والصلب بالحجار ، تعد من بين الفتاوى التى أثارت كثيرا من الجدال والنقاش فى الملتقى الاخير حول الفكر الاسلامى . فهذه الفتوى قد تعددت حولها الآراء : فالبعض يرون بأنها دليل على ما فى الاسلام من تسامح ويسر ، فى حين أن البعض الآخر يعتبرونها ثغرة فى الدين تبشر بعهد تصبح فيه العبادات تدريجيا أكثر مرونة وأقل صرامة ، وهناك من لم يدرك الحكمة البالغة لهذه الفتوى ، وما سوف يكون لها من آثار حميدة ، فراحوا يعبرون عن تخوفهم مما أسموه : «تصفية الدين» بينما نجد أن قوما آخرين ـ ومن بينهم احدى الصحف اليابانية الكبرى ـ قد وصفوا هذه الفتوى بأنها « أشد صلابة من صلب عنابة وحديدها » ... أمام هذه الآراء المتعددة ، نرجو منكم

يا سيادة الوزير أن تعطونا بعض الايضاحات حول فحوى هذه الفتوى ، وحول الاسباب الداعية لاصـــدارها .

ج ـ لابد قبل كل شيء من القول بأن هذه المشكلة طرحت علينا عدة مرات بصورة فردية من بعض المواطنين القاطنين بأوربـا ، ممن يشتغل فى معـامل الحديد المصهور وغيرها من المعامل ، فيتعرضون بذلك للاثار السيئة الناتجة عــن الاحتكاك بالنـار والغبار ... وبالاضافة الى هذا الجحيم الذى يعيشون فيه باستمرار ، فانهم يتعرضون كذلك لزمهرير الشتاء الذى لا يكاد يطاق فى بعض البلدان الاوربية ، كما انهم يعانون من سوء التغذية ، وهكذا فان البرد الشديد ، والمبيت على الطوى ، والعمل المرهــق ، كل ذلك يعرض هؤلاء العمال لاخطار• ورغما عن هذا، فان الكثير منهم يتحملون هذه المشاق بـدلَ الافطار فى رمضان والتعويض فيمـا بعد . ويقول هؤلاء العمـــال بأنهم يفضلون الصوم على الافطار لكي يرتاح ضميرهم بعد أداء هذا الواجب الدينى ، على أن البعض من هؤلاء العمال كانوا دائما يستفتوننا حول هذه المشكلة ، لما يترتب عـلى الصيام من آثار على الصعيد الاجتماعى والمهنى ، فى البلدان الاجنبية ، ومن بين تلك الآثار ، الوهن الجسمى الذى قـد يـؤدى الى وقـوع حوادث ، وانخفاض المـردود ، كنتيجة لهذا الوهن الجسمى ، مما قد يتسبب فى تسريح العامل من عمله .

ويجب على أن أقول بأن العلماء لم يجدوا من جـــواب على هذه الاسئلة المتعددة سوى أن يذكروا بالمبدإ الثابت الذى تقرر منذ أربعة عشر قرنا وشرح شرحا وافيا فى كتب الفقه المختلفة ، وهذا المبدأ يؤكد بأن الاكل والشرب فى رمضان ليس كل منهما حلالا فحسب ـ اذا كانت حياة المرء متوقفة عليهما ـ بل يعد هذا الامر واجبا• وفضلا عن هذا ، توجد حالات أخرى ، غير حالة الافطار فى شهر الصيام . ومن بينها حـالة الانسان المتعرض للهلاك بسبب العطش ، ولا يجد ما يشفى به عطشه ســـوى الخمر . فهذا الانسان يجب عليه أن يتناول من الخمر ، وان كان الخمر محرما فى الاسلام • والاكثر من هذا أنه فى حالة ما اذا مات من العطش خـــوفا من الوقوع فى الحرام ، فكأنه انتحر ، وبالتالى يعد من الكفار الآثمين . وهناك حالة أخرى هي حالة الانسان الجائع الذى قد يعرضه الانقطاع عـن الاكل اما للمرض الشديد أو للموت والهلاك . فمثل هذا الانسان يجب عليه ـ اذا لم يجد ما يتقوت به ـ أن يأكل من غير المذبوح ، أو من لحم الخنزير .

واذا عدنا بعد هذا الى موضوع رمضان ، فان نفس المبدأ السابق ينطبق عليه . واذا استثنينا الحالات التى نصت عليها الشريعة الاسلامية ، فمن واجب كل من بلـغ سن التكليف أن يؤدى فريضة الصيام ، وأن يبيت على نية الصوم . فالاسلام لا ينظر الى العمل وحده ، بل ينظر كذلك الى النية . فهما متكاملان وواجبان . بقي علينا بعد هذا أن نقول بأن الانسان ، لو فرضنا انه كان يؤدى عملا يدويا عاديا لا يكلفه جهـدا فوق الطاقة ، وأحس هذا الانسان بالعطش الشديد ، أو تعرض لمـــرض أو لوعكة أو نكسة ما ، فانه مسموح له أن يفطر وأن يقطع الصوم طوال النهار ، على شرط أن يكون ذلك فى الستر ، وأن يعوض عن اليوم الذى أفطر فيه فيما بعد . فاذا أفطـــر يوما واحدا ، فله أن يعوض عنه بعد انقضاء رمضان ، أما اذا أفطـر عـدة أيام ، فلا بد حينئذ من مراعاة الاستمرار والتتابع لدى التعويض .

تلك هي بعض المبادىء المتعلقه بالصيام ... على أنه لابـــد لى ـ بعد أن تحدثت سابقا عن المواطنين الذين يشتغلون فى فرنسا ـ لابد لى كذلك أن أشير الى حـــالة مما ثلة لتلك فى بلادنا ، وكانت قد عرضت قبل أن تدخل بلادنا فى عصر الصناعة : تلك هي حالة الحصادين . فهؤلاء كان مسموحا لهم بحكم الشريعة الاسلامية أن يفطـروا فى الايام التى يتعرضون فيها أثناء العمل للشمس المحرقة وللحرارة الشديدة .

وفى عهد الاستقلال طرح علينا نفس هذا السؤال المتعلق بالصناعة . ولكن العلماء عندنا كانوا دائما مترددين فى اتخاذ موقف واضح حول هذا الموضوع ، خوفا مـــن عواقب التعميم الذى قد ينجر عن اصدار الفتوى . على أننا عندما قمنا بزيارة مركب الحديد والصلب بالحجار ، بمناسبة انعقاد الملتقى فى عنابة ، طـرح علينا السؤال بعبارات واضحة ودقيقة ، بل ألقى علينا السؤال بكل صراحة .

وبعد أن قضينا نحن أيضا لحظات فى ذلك الجو المحموم من النار ، أعطينا العمال وعدا بمناقشة هذا الموضوع ، بمجرد رجوعنا الى قاعة الملتقى . وفى انتظار قـرار العلماء فى هذه المسألة طلبنا منهم أن يتفادوا من جهتهم الجوانب السلبية الناجمة عن التصنيع ، وذلك من حيث الاخـــلاق والسلوك (وهو الجـزء الثانى من النقطة الثانية المدرجة فى جدول أعمال ملتقى عنابة) . كما وعدناهم من جهتنا أن نتفهم المسألة على ضوء ما يسمى « مقاصد الشريعة الاسلامية » .

وبعد أن أخذنا علما بالبيانات التى قدمت الينا بواسطة اللوحات الايضاحية حول مركب الحجار ، اتجهنا الى الفـرن العـــالى ، وهناك شاهدنا ، وعانينا ، وأحسسنا

احساسا عضويا بما أسماه الاستاذ صلاح الصاوى ، من جامعة طهران بـ « مــذاق من نار جهنم » . فالنار التى واجهناها ، وان كان من مسافة بعيدة قد تزيد على عشرين مترا (فى حين أن العمال كانوا يؤدون عملهم بجوارها تماما) ، ان تلك النــار كانت ترسل لهبا وهاجا ، وشرارا وقادا يكاد يصل الى حيث كنا واقفين · وبينما كان الاساتذة مترددين عندما أثار مـدير التصنيع هذا الموضوع أثناء شرحه ، لانهم شعروا بـأن المطلـوب منهم اصـدار فتـوى اداريـة ، فاذا بنـا نـراهم ، بعـد أن واجهـوا هـذا اللهيـب الذى يمتص المــاء من بـدن الانســان ، كـانوا مستعجلـين فى الخروج من ذلك المكان ، رغم اهتمامهم بالموضوع ، لان الحرارة كانت لا تطاق . ولاشك أن الحرارة كانت أشد بالنسبة للعمال المنهمكين فى تحـريك الآلات لتوجيـه الحـديد المصهور الذى كان يخنق انفاسهم ، وتجف له أبدانهم . وقد خيل الينا ان الشغل فى ذلك الجو من قبيل المعجزات .

وبعد أن شاهد العلماء المسلمون من مختلف المذاهب هذا الامر فى مركب الحديد والصلب ، أخذوا يفكرون فى هذه المسألة ويدركون أبعادها الحقيقية . ولذلك فما كاد الجمع يأتلف فى قاعة المؤتمر حتى أثار أحدهم هذا الموضوع ، وقد اتخذ الحاضرون بالاجماع موقفا موحدا بشأن اصدار فتوى تنحو منحى اليسر والتسامح مع أمثــال هؤلاء العمال الذين يؤدون عملا شاقا ومرهقا ، على ضوء مقاصد الشريعة ·

ان هذه الفتوى واضحة لا لبس فيها ، ودقيقة · وقد استمع المشاركون فى الملتقى الى كلمات ألقاها عدد من العلماء والاساتذة فى الاصول والفقه ، وبعض هؤلاء عمداء كليات ، مثل الدكتور محمد المبارك ، الاستاذ سابقا بكلية الشريعة بدمشق وعميدها ، والاستاذ حاليا بكلية الشريعة بجدة ··· والاستاذ عبد الرحمن البيصار، وكيل جامعة الازهر ··· والدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ، وزير الشؤون الدينية سابقا ، ثم وزير العدل بسوريا ، ويعد من كبار المتخصصين فى الشريعة ، وقد أشرف على وضع موسوعة الفقه الاسلامى ، ويشغل الآن منصب أستاذ لهذه المــادة فى جامعة عمان بالاردن ، والدكتور محمد فاروق النبهان ، الاستاذ بكلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت ... والدكتور عبد الحليم عويس ، الاستاذ بكلية الشريعة بجامعة الامام محمد بن سعود فى الرياض ، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ، عميد كليــة الشريعة بجامعة دمشق ، والشيخ محمد صادق بسيس ، أستاذ الفقه وأصول الفقه بجامعة الزيتونة ، والاستاذ صلاح الصاوى· وبعد الاستماع الى آرائهم ، كلفهم المشاركون فى الملتقى بوضع صيغة الفتوى التى يستفاد منها أن الاسلام هو دين اليسر وليس دين العسر · وقد صادق

المشاركون فى الملتقى بالاجماع على هذه الفتوى التى سوف يكون لها أحسن الاثـر لخدمة الفرد ، ولصالح الامة جمعاء .

ولهذا يمكن القول بأن عمال مركب الحجار ، أو غيره من المعـامل الاخرى حيثما كانت ، وكذلك العمال المسلمين الجزائريين أو غيرهم ممن يوجد فى أوربا أو فى بلـد آخر غير اسلامى ، ويؤدى عمله فى المصانع ، متعرضا للفح النار وزمهرير البرد ، أقول ان جميع هؤلاء الذين يشتغلون فى ظروف متشابهة ، يمكنهم أن يفطروا فى رمضان. ان كل من ليس له الخيار ، ويجـد نفسه مضطرا للعمـل فى ظروف لا يحتملها بـدن الانسان ، ويكد من أجل اعلاء شأن الامة الاسلامية والدفاع عن كيانها ، وخدمة مصلحة الوطن ، بل حتى لو كان من أجل اعالة أسرته ، ان جميع هؤلاء مسموح لهم بالافطار فى رمضان ، على أنهم بالمقابل مطالبون بالتعويض عن الايام التى لم يصوموا فيها ، ويكون التعويض بدون تتابع فى الايام ، كما هو الحكم فى حالات الافطار الاخرى .

وقد أثار البعض فى هذه المناسبة مسألة التعويض المادى ، باطعام مسكين واحد عن كل يوم افطر فيه الصائم المضطر . ولكن هذا الحكم استبعد لان هذه الحالة لا يمكن ان تقاس على المريض المزمن ، أو الشيخ الهرم وغيرهما .

بهذا نكون قد أوضحنا الحكمة من هذه الفتوى.وهنا أجيب على سؤالكم الذى أشرتم فيه الى ما يدعيه البعض من أن هذه الفتوى أحدثت ثغرة فى صرح الاسلام . والحقيقة أن مثل هذا التأويل هو من قبيل الخيال ولا يستحق أي اعتبار . وذلك أن الفتوى صريحة ودقيقة فى نصها : فهي لا تنطبق على من يشتغل فى مكان آخر غير المكان المنصوص عليه ، أي فى مصانع الحديد والصلب ، حيث يواجه العمال الفرن العالى الحرارة ... كما أنها لا تنطبق على من يشتغل بعيدا عن النار ، غير متعرض لها من قريب ، حتى ولو كان يشتغل فى مصنع الحجار ، أو فى غيره من المصانع المماثلة له فى ألمانيا، أو فرنسا، أو بلجيكا أو فى أقطار أخرى من العالم الاسلامى . واسمحوا لى أن ألح وأن اكرر مرة أخرى بأن هذه الفتوى لا تنطبق الا على هذه الفئة من العمال الذين يواجهون النار فى مصانع الحديد والصلب . فالفتوى لا تنطبق بأية حال من الاحوال على فئة أخرى من العمال ، كالموظفين ممن يشتغل فى المكاتب مثلا ، أو كالمهندسين أو الاداريين ، بـل لا تنطبق حتى على الشغالين اليدويين اذا كان هؤلاء يعملون فى ظروف اقـل ارهاقا وتعبا من التى سبق ذكرها . فصرح الاسلام اذن لم يتصدع بهذه الفتـوى كما يدعى البعض ، وليس فى الامر أية مساومة أو تفريط فى الدين أو تصفية له !

بقي أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب هذه الفتوى ، وهو أنها نوع من أنــواع الاجتهاد . ولابد من الاشارة هنا الى أن العمال الذين تنطبق عليهم لا يشترط فيهـــم النية ، قياسا على المسافر وعلى المرأة التى ترضع وليدها الخ اذ انه معروف مقدما ان أمثال هؤلاء العمال لا يمكنهم ان يتحملوا الحرارة الشديدة المنبعثة من الفرن العالى ، ولا يستطيعون أن يتحملوا البرد الشديد ، وبدون تعريض حياتهم للخطر ·

وخلاصة ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع أن باب الافطار غير مفتوح للجميع ، وأن هذه الفتوى لا يجوز أن تتخذ ذريعة للتعميم ، بل هي على العكس تعبر عن اجتهاد العلماء وعملهم لما فيه خير الامة الاسلامية ، وسعيهم لشرح تعاليم الاسلام . وقد تأتى هذا لكون العلماء المسلمين الذين كانوا فى ملتقى عنابة يمثلون كافة المذاهب · لنبــدأ بالاستاذ الصادق بسيس الذى صرح بأن الاسلام ــ بعد صدور هذه الفتوى ــ قـــد « دخل عصر الصناعة من بابه الواسع · ومن بينهم أيضا علماء آخرون من شمال افريقيا وأغلبهم ينتمون الى المذهب المالكى · ومن بينهم كذلك علماء من مصر ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، وهم ينتمون الى المـــذهب الحنفى والشافعى والحنبلى . ولنذكر من بينهم أيضا الشيخ عبد الله الشماحى ، من اليمن (وهو من الزيدية) ، وكان متحمسا لهذه الفتوى أكثر من سواه ، رغم كبر سنه . ومن بينهم أيضا الدكتور الصاوى وهو شيعى جعفرى · وعلى هذا يمكن القول بأن هذه الفتوى منبثقة عن اتفاق تام بين علماء المذاهب الاسلامية الثمانية السائدة · وكما ترون فالاساتذة هم الذين اصدروها جميعا من أقطار أخرى غير القطر الجزائرى ، ويعد كل واحد منهم من العلماء الافذاذ فى الشـــريعة ·

وأستطيع أن أضيف أمرا قد يكون مهما ، وهو ان جميع العلماء الذين تحدثت عنهم ــ باستثناء وكيل الازهر الذى لا أعرف ماضيه السياسى والعقائدى ، وان كنت عــلى علم بكفاءته التامة فى ميدان الشريعة الاسلامية ، وهذه الكفاءة تشهد بها مؤلفاتـــه العديدة ، والمسؤولية التى كان ينهض بها كأمين عام للجنـــة البحوث الاســلامية فى الازهر التى اللجنة تتألف من مندوبين يمثلون عددا من الاقطار الاسلامية ــ أقول ، ان جميع العلماء الذين تحدثت عنهم ، باستثناء وكـيل الازهر ، يعتبرون من جماعة « الاخوان » ، وهم معروفون فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، ولذلك فلا يمكن لاحد أن يتهمهم بأنهم يساريون أو « متسامحون » أو مفرطون فى الدين ، بــل على العكس . ومع ذلك فقد وضعوا هذه الفتوى ، وأيدوها تمام التأييد .

ومما تجدر الاشارة اليه ــ وان كان هذا الامر معروفا ــ أن ملتقى عنابـــة ، كغيره مـــن بعض الملتقيات الاخرى السابقة ، لم يقتصر على العلماء من مختلف المــذاهب الاسلامية ومن مختلف الاتجاهات السياسية والعقائدية فى العالم الاسلامى بل ضـــم كذلك شخصيات أخرى تنتمى ، فى العالم غير الاسلامى ، الى اليمين المتطرف الذى كان يمثله « التماميون » ومن ينحو منحاهم خارج العالم الاسلامى ··· كما ضـــم أيضا شخصيات أخرى تنتمى ، فى العالم غير الاسلامى ، الى اليســـــار المتطرف الذى كان يمثله بعض الشيوعيين من جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وبولونيا ، ويوغوسلافيا ، وغيرها مـــن البلدان الاخرى ··· هذا ، فضـــلا عن الممثلين الكاثوليك من اسبانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ··· والممثلين للبروتستانت من ألمانيا وغيرها ·

س ــ سيادة الوزير ، ان القرار المتعلق باعتبار يوم الجمعة يوم العطلة الاسبوعية عوضا عن يوم الاحد قد بدأ تطبيقه على وجه التحديد فى اليوم الاول من شهر رمضان من هذه السنة، وقد صادف هذا اليوم الاول يوم الجمعة· هل لكم يا سيادة الوزير، أن تتفضلوا بالتعليق على هذا القرار بمناسبة ادلائكم بهذا الحديث الينا ؟

ج ــ الموضوع يتعلق ــ اذا سمحتم ــ لا بأمر جديد ، بل بالعودة الى وضع كان ، لان يوم الجمعة كان دائما يعتبر هو يوم العطلة الاسبوعية فى الجزائر وفى سائر الاقطار الاسلامية ، وذلك من يوم ان انتشر الاسلام . وانما تغيرت الامور ابتداء من 5 يوليو 1830 ، يوم أن غزت جيوش الاستعمار أرض بلادنا ووضع المارشال دى بورمون ، قائد جيوش الاحتلال الفرنسى ، وضع صليبا كبيرا على أعلى مكان فى مدينة الجزائر ، وهو صومعة جامع كتشاوة ، كما قام برفع العلم الفرنسى مكان العلم الجزائرى على قصر الداى ، رئيس الدولة الجزائرية · وعلى هذا، فاتخاذ يوم الاحد يوم عطلة بدلا من يوم الجمعة ان هـــو الا اجـــــراء من الاجراءات التعسفية الاخرى التى اتخذتها السلطات الاستعمارية ، كرفع العلم الفرنسى ، وتحويل مسجد كتشاوة الى كنيسة ، والقضـــاء على اللغـــة العـــربية .

وكما تلاحظون فقد علقت السلطات الاستعمارية أهمية على هذا الاجراء المتعلـــق بيوم الاحد ، ولا يخفى على أحد ما يتضمنه هذا العمل من مغـــزى دينى . ومـــا على الانسان ، لكي يتأكد من صحة هذا الكلام ، الا أن يراجع قاموس « لاروس » الشهير لكي يجد فيه هذا التعريف ليوم الاحد : « اسم مذكر ، مشتق من أصل لاتينى dies dominica ومعناه يوم اللـــه . وهو اليـــوم الاول فى الاسبوع ، ويكرس للراحة » . واذا كنت الآن أستشهد بما جاء فى قاموس لاروس فليس قصدى من ذلك هو السخرية أو التهكم مـــن

أحد ، بل قصدى هو أن أذكر ببعض الحقائق قـــوما يتمسكون حسب ادعـــائهم ، بل يتشدقون بالفكر الديكارتى ، وبالمنطق ، حتى انك تجدهم أحيانا يزيفون الحقائق المعروفة ويشوهونها فى المحافل او على صفحات الجرائد باسم منطق ديكارت المظلوم ٠

ومن ذلك أن احدى الصحف الكبرى التى تصدر فى باريس ، سوغت لنفسها ، على لسان مراسلها فى مدينة الجزائر ، أن تكتب بأسلوب لا يخلو من مغالطة ، أن الجزائر انفردت ، مع ليبيا والعربية السعودية ، باتخاذ هذا القرار ، مع الاشارة بعد ذلك الى ان بقية الاقطار العربية مثل « المغرب وتونس والعراق ولبنان وغيرها » لا تزال تعتبر يوم الاحد هو يوم العطلة الاسبوعية .

ويجب علينا قبل كل شيء أن نصحح ادعاءات هذه الجريدة التى قد يكون من المفيد أن نذكر عرضا بأنها نفس الجريدة التى كتبت منذ بضع سنوات بأن يـــوم العطلـة فى الجزائر كان هو يوم الجمعة الى غاية 1830 . ولنشر بعد هذا الى أننا اذا نظـــرنا الى الدول المنضمة الى الجامعة العربية ، وعددها يزيد على العشرين ، فلا يوجد أي بلد عربى يعطل يوم الاحد، باستثناء الدول التى كانت جزءا من الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية ، ومن بينها المغرب وتونس اللتان ذكرتهما الجريدة ، وينضم اليها لبنان ٠٠٠ أما بقية الدول الاخرى، فانها تعطل يوم الجمعة٠ ولنذكر من بينها ليبيا، ومصر ، والسودان،وسوريا،والكويت،والعربية السعودية،وبلادا اليمن ، والامارات العربية،وقطر، والبحرين ، وعمان ، والاردن ، بل حتى العراق الذى ادعى صاحب المقال فى الجريدة خطأ بأنه يعطل يوم الاحد٠أما العالم الاسلامى غير العربى فيكفينا أننذكر من بين البلدان التى تعطل يوم الجمعة الدول الآتية : ماليزيا ، أفغانستان ، ايران والباكستان ٠ ان أمثال هذه المزاعم وما أشبهها ليست مجرد أخطاء مطبعية ، بل تدل دلالة واضحة على نوايا سيئة ، ومهما يكن من أمـــر ، فان يوم الاحد قد فرض كيوم عطلة أسبوعية فى الجزائر ابتداء من 5 يوليو 1830 ، ولذا فقد كان من المفروض ان يعاد الحق الى نصابه فى اليوم المشهود ، اي فى 5 يوليو 1962 ، يوم أن استعادت الجزائر استقلالها ، أي ليوم الجمعة الذى هو اليوم الحق لا من الناحية الزمنية فحسب ، بل كذلك من الناحية المنطقية أيضا ، سواء نظـرنا الى المســألة مـــن الزاوية الروحية ، أو التاريخية ، أو السياسية ، أو الثقافية ، أو باختصار : من الزاوية الوطنية ٠

أزمة التغذية العالمية

ليستر براون وايريك ايكهولم
ترجمة : **د٠ عبد القادر زبادية**

من المعروف أن العالم يمر الآن بأزمة حادة تخص نقص المواد الغذائية فى السنوات الاخيرة ، وأول مظاهر هذه الازمة يتمثل فى نقص الانتاج الفلاحى وتكاثر السكان على وجه الكرة الارضية بشكل لم يسبق له مثيل ، وبالنظر الى ان القليلين فقط هم الذين ظلوا يشعرون بما لهذه القضية من خطورة ، فقد رأينا أن ننقل لقراء الأصالة جانبا من الدراسة الهامة التى قام بها حول هذا الموضوع الباحثان ليستر براون وايريك ايكهولم ونشرتها مجلة (دايلوق) الاميركية أخيرا ؛ فتحت هذا العنوان كتب هذان الباحثان ما يلى :

فى بداية السبعينات تضخم الطلب على المواد الغذائية بتأثير استمرار تزايد السكان وارتفعت الاسعار الى درجة كبيرة ، وأدى ذلك الى أن طاقة المزارعين وصيادى الاسماك فى الانتاج أصبحت لا تكفى لمجابهة الحاجة ٠ أما النتائج فكان منها تضاؤل الاحتياطى من المواد الغذائية ثم ارتفاع الاسعار بشكل مفزع وأخيرا المنافسة الحادة بين مختلف البلدان للحصول على الغذاء .

وهذه التغيرات الاساسية فى وضعية العالم الغذائية قد تركت الحكومات والمؤسسات والافراد فى كل مكان فى تحير واضطراب لانها أخذت الجميع على غرة ٠

ان تزايد عدم الاطمئنان العالمى فيما يتعلق بالتغذية قد ارتبط مباشرة بالنقص الحاصل فيما يتعلق باحتياطات العالم من المواد الغذائية؛ فمنذ الحرب العالمية الثانية اعتمد سير العالم على حقيقتين أساسيتين : أولاهما تزايد المخزون من الحبوب فى العالم لدى البلدان المصدرة الرئيسية ، وثانيهما أن

مناطق انتاج الحبوب فى الولايات المتحدة قد سارت فى ظروف غير مواتية بتأثير من البرامج الحكومية للمزارعين • وهذان العاملان خلقا ضعفا كبيرا أمام تقلبات المناخ واضطرابات الاسواق.

ففى سنة 1961 كانت احتياطات العالم من الحبوب ترتفع الى 222 مليون طن او ما يكفى العالم فى الاستهلاك لمدة 95 يوما كاملة ، ولكن فى سنة 1974 أصبح هذا الاحتياطى لا يكفى لاكثر من 26 يوما فقط • وبالنتيجة فانه فى سنة 1974 اضطربت وضعية العرض والطلب فى المواد الغذائية بشكل مخيف ، ورافق ذلك موسم سيء فى كل البلدان المنتجة للحبوب بكميات كبيرة : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتى، الهند والصين ، فانطلقت من هذه البلدان موجة لا تخص فقط قطاع المواد الغذائية فى العالم ، ولكنها امتدت لتشمل التضخم فى بقية القطاعات كذلك • ان الاختلال فى ميزان العرض والطلب الغذائى دفع البعض على التفكير فى أن المناخ نفسه ربما يخلف التلوث فى أن يصبح من اهتمامات العالم حول البيئة أيضا •

سياسات الندرة

وأمام هذه الوضعية سلكت حكومات عديدة مختلف الطرق لتحصل أو لتتأكد من وجود الكميات الضرورية من المواد الغذائية لشعوبها ، وأدى ذلك، الى ظواهر جديدة يمكن اجمالها فى عبارة (سياسات الندرة الغذائية) ، ففى صيف 1972 استعمل الاتحاد السوفييتى طرقا سرية تماما ليجمع معظم ما فى السوق العالمية من حبوب ، وذلك بشرائه لمعظم صادرات الولايات المتحدة من القمح • أما فى الصيف الموالى فقد عمدت الولايات المتحدة ــ وهى مصدر 85٪ مما يدخل السوق العالمية من الذرة ــ بصورة مفاجئة الى منع تصدير الذرة وذلك فى محاولة منها للقضاء على النقص الحاصل وارتفاع سعر هذه المادة فى السوق الداخلية • وقد وضع ذلك تهديدا خطيرا أمام شعوب شرق آسيا التى تشكل بروتينات هذه المادة غذاء أساسيا لها • وتطورت حالة مشابهة بالنسبة لتايلندا فى قضية الرز التى هى احدى البلدان المصدرة له ، حينما منعت تصديره لعدة أشهر وذلك بغرض مجابهة ارتفاع الاسعار فى الداخل وما يرافق ذلك من مضاعفات سياسية • كما ان البرازيل هى الاخرى عمدت وبنفس الغرض الى منع تصدير كل من الذرة واللحوم •

ان التحول السريع للاقتصاد المالى فى خصوص مواد الغذاء من سوق البائعين الى سوق المشترين ، كما دلت على ذلك موجة 1970 وما تمخض عنها من ارتفاع الاسعار ، لم يكن كل ذلك متوقعا لدى الكثيرين ؛ فبين نهاية 1972 و 1973 تضاعف

سعر القمح ثلاث مرات كما تضاعفت أسعار الرز مرتين وتضاعف سعر الـــذرة فى ظـرف سنتـــين • ثـم ان التضاعف الفجـائى لاسعــار القمح قد تبعه فى ظـــرف أشــــهر فقـط تضاعـــف دراماتيكى معـــادل لـه فى أسعـــار البترول (I) : فبين 1960 الى 1972 أصبـــــح السعران العالميان لبشل مـــن القمح وبرميل مـــن البترول متعادلين ، وهمـــا يتراوحان بين 1،35 دولار الى أكثر قليلا من دولارين ، وبذلك أصبح يجرى تبادل البرميل الواحد من البتـــرول بالبشـــل (1) الواحد من القمح فى السوق العالمية • أمـــا فى أخريات سنة 1973 فقد ارتفع سعـــر القمح الى ما يفـــوق خمس دولارات ، وفى ظرف قصير أصبح البشل الواحد مـــن القمـ ح يتبادل بـــه مقابل برميلين من البترول • وغداة أعياد الميلاد لسنة 1973 رفع سعر البترول من طرف الدول المصدرة لـــه ، وبذلك حصل ثانى تضاعف فى سعره خلال سنة واحدة ، ثم ما لبـــث سعره أن ارتفع الى أكثر من ذلك فبلغ 8 دولارات للبرميل الواحد •

لقد أثر كل من نقـص المواد الغذائية وما رافقه من ارتفاع كبير فى مواد الطاقة تأثيرا مهيلا في التبادل العالمى المشترك • ولا يـوجد هناك قطر من أقطار الدنيا لـــم يتأثر جزئيا أو كليا بذلك حتى الآن ، فقد تأثرت كـل البلدان فى نظامها التجارى والنقدى • وكان يظـن أن للولايـــات المتحـدة الامريكية القدرة على أن تضمن لسكانها المواد الغذائية بسعر مخفض ولكن عندما حلت سنة 1973 اكتشف الامريكيون فجأة بأنهم يشاركون بقية سكان العالم فى نـدرة المـــواد الغذائية لديهـم، وأصبحت الولايـــات المتحـــدة تشترى البتـــرول المرتفع الثمن بالمواد الغذائية التى تصدرها • وفى الحقيقة فان سهم كل العالم من المواد الغذائية وقضيـة استهـلاك مواد الطاقة تخطت الى جميع الحدود فيارتفاعها باستمرار•
تستورد اليابان أكثر بكثـير من نصف حاجتها من المـــواد الغذائية مثـــلا ، وتستورد مصر حوالى 40٪ من حاجتها . وتستورد بلـدان المجمـــوعة الاقتصادية الاوروبية كـــل حاجياتها من البترول تقريبا كما تستورد حــــوالى أربعة أخمـــاس من المـــواد ذات البروتينات العالية وذلـــك لاطعام المـواشى الصناعية • كما تعتمد الولايات المتحـدة على استيراد ثلث حاجياتها من البترول ، واذا استمر لديها النسق الموجود حاليا فانه من المتوقع أن تستـورد النصف من حاجياتها فى سنة 1985 .

من الكثرة الى القلة

ان هذه الحـــوادث التى ابتدأت منذ 1970 تشـير الى

(I) بهذا يثبت أمامنا ان الارتفاع فى أسعار البترول ، خلافا لمدعيات الغربيين ، لم يكـ السبب فى ارتفاع المواد الغذائيه ، لانه جاء بعدها •

تغيرات جذرية فى بنية اقتصاد التغذية العالمية . ففى خلال معظم سنوات هذه الفترة منذ الحرب العالمية الثانية رأى اقتصاد التغذية العالمية ازديادا متصاعدا من حيث الحجم ، وتضخم المخزونات وتناقص الاسعار. لكن الظروف الطارئة تشير الى أن هذه الحقبة هى على وشك الانتهاء ، وستخلفها فترة أخرى تتسم بالندرة المستمرة وارتفاع الاسعار مع قلة الانتاج ·

ويساهم فى هذا التغيير للوضعية العالمية فيما يتعلق بالغذاء التحول الحاصل فى جانبى العرض والطلب · وفى تاريخ العالم الطويل فان ازدياد الطلب على الغذاء انما ينتج دائما عن التضخم السكانى ؛ فمنذ أيام مالتوس MALTHUS ، كان ينظر دائما لمشكلة التغذية على أنها مشكلة السكان ، ذلك أن التضخم السكانى يزداد أثره بسرعة وباستمرار ، وأدى الآن الى بداية ظهور وضعية أخرى تتمثل فى الضغط الحاصل على مصادر انتاج الغذاء فى العالم بالذات ·

أثر التضخم (السكانى)

ان تأثير التضخم السكانى على ازدياد الطلب على المواد الغذائية هو أمر يمكن ملاحظته وفهمه بسهولة · فازدياد السكان بنسبة 3 ٪ يؤدى تلقائيا الى ازدياد الطلب بنسبة 3 ٪ كذلك ، لكن تأثير الازدياد القوى (اللا منتظم) ليس مما يمكن فهمه بيسر · وقد تتمثل احدى الطرق الميسرة لفهمه فى تصورنا لمتطلبات الفرد الواحد من الحبوب ؛ ففى البلدان الاقل تطورا لا يتوفر اكثر من 400 رطل فى العام للفرد الواحد ، وهذا فى المتوسط العام · ويستهلك هذا المقدار بصورة مباشرة تماما وذلك لمواجهة الحد الادنى من حاجيات الفرد من الطاقة الغذائية · والقليل فقط من هذه الكمية قد يتحول الى المنتجات الحيوية الاخرى ·

وعلى العكس من هذا فان متوسط استهلاك الفرد الواحد فى أمريكا الشمالية يصل الى الطن الواحد من المواد الغذائية فى السنة ، وهو ما يعادل خمسة أضعاف المتوسط فى البلدان النامية ومن مجموع هذه الكمية يستهلك فقط 200 رطل بصورة مباشرة فى شكل رغيف ، وعجائن مختلفة · اما الكمية الباقية فتستهلك بصورة غير مباشرة فى شكل لحم ولبن وبيض ·

ان تأثير كل من التضخم السكانى واستمرار تزايده بشكل غير منتظم يتسيان على ايامنا هذه في اتساع حاجيات العالم المعاصر من المواد الغذائية بشكل لم يسبق له مثيل · ففى بداية هذا القرن كان التضخم السنوى العالمى فيما يخص الطلب على الحبوب حوالى أربعة ملايين طن فى العالم · ولكن فى 1970 أى بعد عشرين سنة فقط بعد ذلك ارتفع معدل الطلب العالمى على المواد

الغذائية الى ثلاثين مليونا من الاطنان ، وهذا يعادل كل المنتوجات السنوية من الحبوب لكل من كندا وأوستراليا والارجنتين مجتمعة • ومثل هذا التضخم فى الطلب غير متوقف البتة ، فهو حاصل سواء فى سنوات المواسم الجيدة أو سنوات الجفاف والاحوال المناخية السيئة •

وفى جانب العرض ، فان هناك ثلاثة عوامل أساسية بدأت تؤثر على المجهودات المبذولة لزيادة الانتاج العالمى من المواد الغذائية بالسرعة التى تقتضيها الحاجة المتزايدة • وأولها يتمثل فى الاندفاع على الميادين التكنولوجية التى حددت بطبيعتها الاندفاع فى نشاطات التوسع الانتاجى الغذائى للعالم وخاصة فيما يتعلق بالحبوب واللحوم • أما العامل الثانى فيتمثل فى أن الاربعة مصادر الاساسية التى تستعمل للانتاج الغذائى ، وهى – الارض ، الماء ، الطاقة – وهى الآن دون درجة الوفرة اللازمة بكثير . ويتمثل العامل الثالث والاخير فى أن تزايد ضغط الطلب على المواد الغذائية قد بدأ يؤدى الى اضعاف قدرة البيئة نفسها على الانتاج •

وبالنظر الى أن التغلب على الصعوبات المتمثلة فى هذه الجوانب الثلاث المذكورة يشكل احدى الحلول المقترحة لمشكلة الغذاء فى العالم بشكل علمى ، فان دراسة كل منها على حدة وتفصيل هى من الضرورة بمكان هنا وهو ما سنتابعه فيما يلى •

(البقية فى عدد قادم) •